رحلة في البادية

من مذكرات

الشيخ اسكندر يوسف الحايك

رحلة في البادية

من مذكرات

الشيخ اسكندر يوسف الحايك



الطبعة الاولى سنة ١٩٣٦

ثمن النسخة « اربعون فرنكاً » ما عدا اجرة البريد



اذا لم يكن للمرء من ربه هدى فلا شيء يهديه من القيل والقال

احمد فارس الشدياق

المقدمة

« رحلة في البادية » قمت بها منذ عشرين عاماً ، برفقة السيد باسيل كورباه احد رجال الحكم القيصري الروسي الذي جاء الشرق ليجوب البادية الآهلة بالقبائل العربية لغاية اظنها سياسية

تعرفت الى الرجل في القا[illegible] بواسطة احد اصدقائي الانكليز ، وكان

قد صرف مدة طويلة يبحث في خلالها عمن يرافقه في هذه الرحلة الكثيرة المخاطر التي اعرضت عنها جميع شركات السياحة لما فيه من عظم المسؤلية والاهوال

فتم الاتفاق بيننا وسافرنا من القاهرة في الحادي عشر من شهر اذار ١٩١٤ وخطتنا كما ترى في سياق الرحلة التي شاهدنا في اثنائها من الحوادث والعادات ما يستحق الذكر والتدوين ، فدونتها في مفكرة يومية ، رأيت اليوم ان انشرها بالطبع لما تضمنته من عادات القبائل وغرائب البلدان العربية التي زرناها من دمشق الى تدمر ، فدير الزور فالموصل عن طريق الجزيرة وجبل سنجار حتى حدود كردستان وبغداد وجوارها ، ونهر الهيذر ، وارمينيا ، ثم الرجوع بطريق الجبال الى ماردين فديار بكر فاورفا فحلب الخ

وقد قسمت هذه الرحلة الى ثمانية فصول لكل منطقة من المناطق التي مررنا بها فصل خاص يتضمن كلما يتعلق بالمنطقة المذكورة بعد رحلة مئة وثلاثين يوماً متواصلة عَلَى ظهور الخيل وتحت الخيام

درست في خلالها بنفسي احوال الصحراء ومجاهلها ومفاجئاتها واخلاق سكانها . فجعلت من هذا الدرس قصة تاريخية فكاهية تجعل القاريء ينتقل بنفسه وبفضل الاسلوب الخاص الذي وضع به الكتاب الى تلك المواطن البدوية التي يعرفها القليلون من الحضر ، ويختلي باهلها ، ويسمعهم يتحدثون ويدلون بافكارهم الثاقبة التي اكسبهم اياها الاختبار ، ويحافظون عَلَى شرفهم وعلى ضيفهم محافظتهم على نفوسهم . وما سكان تلك المواطن التي اعني سوى العرب . فانك ايها القاريء لترى نفسك منهم امام الاجتهاد والشرف العربي

والذود عن القبيلة وضيوفها ، والمحافظة على العادات والتقاليد الطبيعية العربية الصرفة ، والحكم البسيط العادل ، والمبادلات التجارية الطبيعية التي لا يشوبها الغش ولا الخداع ، والمحافظة على العرض ... والتمسك في الاخر بالدين على ما غير تعصب كل هذا اجل نقرأه في المجموعة المتقدم ذكرها بقالب روئي مفيد يجعل الوقت يمر بك سراعاً وانت لا تشعر به ولا تكاد تنتهي من قراءتها حتى تحس في نفسك الرغبة في طلب المزيد ثم تنتقل بالفكر ايها القاريء الى ذلك السائح الذي يبرح بلاده، راكباً متن البحار والاخطار في سبيل التمتع بما ذكرت لك آنفاً من الاحوال والمشاهد، ويسرك ان تتمتع انت بها دون ان تكون مضطراً بفضل هذا الكتاب ، الى تكبد شيء من تلك الاخطار فانت ، وانت مقيم في بيتك او مكتبك ، فتستطيع ان تجتاز المئات والالوف من الاميال دون اقل عناء ولا خطر ، وان تمتع نفسك بما يتمتع به تماماً اولئك السياح المغامرون

وفضلا عن ذلك فالكتاب هذا من الكتب القليلة التي يمكنك كرب عائلة وضعها بين يدي بنيك ليتلقوا عنها دروساً في الحياة الحرة الشريفة لا يمكن ان يجدوها في اي كتاب آخر وما هذه الدروس غير بقية باقية من مناعة الادب العربي ، وطيب الاخلاق والمبادئ الشرقية ، التي كانت وما تزال حجة لنا على عراقة امجادنا الماضية التي يحاول انكارها علينا الاخرون

ثم انك لتطالع في هذا الكتاب الشيء الكثير عن تاريخ القبائل ، وعلاقات بعضها ببعض، واستقلال كل منها في اعمالها، وعدل امرائها وشيوخها وطرق التعاون بينهم، واجتماع كلمتهم في بعض الاحوال والظروف، واحترام

بعضهم بعض والزود عن كيانهم وحريتهم وازدرائهم بالموت في سبيل مبادئهم وشرائعهم الطبيعية المقدسة الى آخر ما هنالك من الخصائص التي اجتهدت كل الاجتهاد في جمعها سليمة من كل زيادة او نقصان

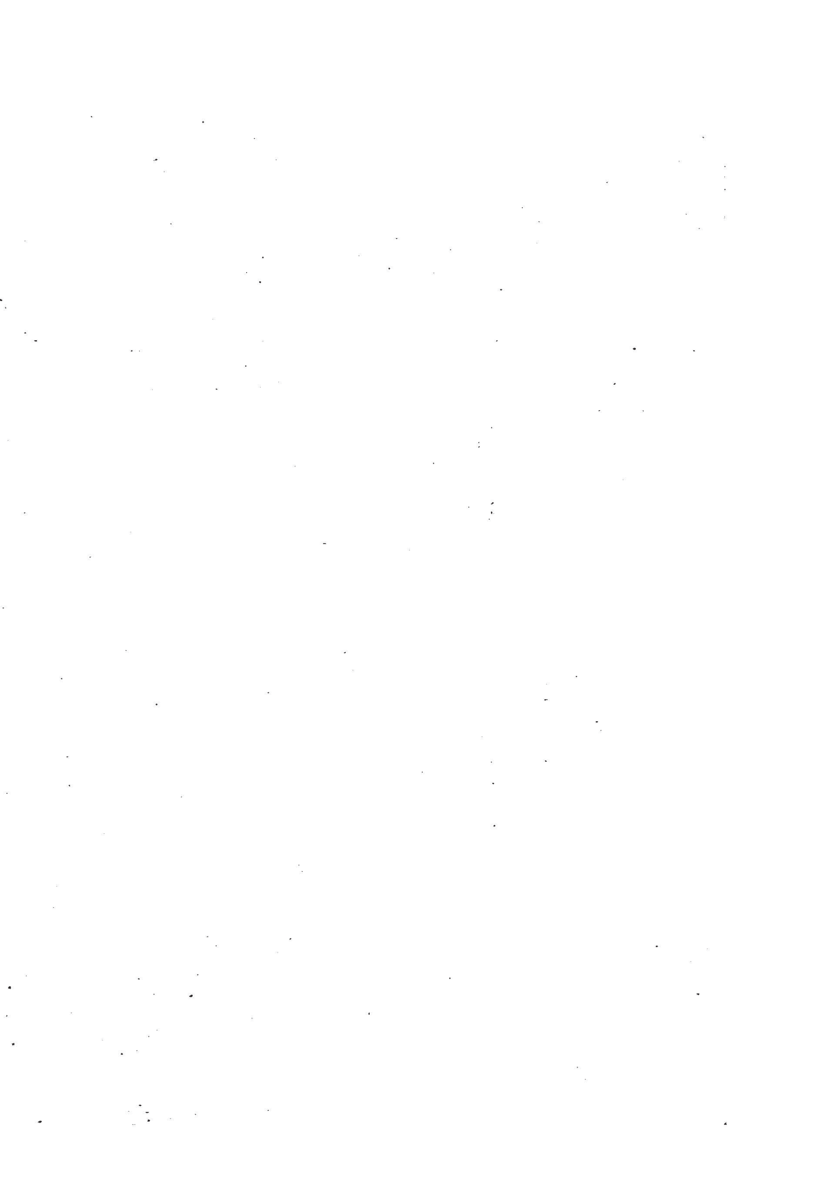
وقبل ختام كلمتي هذه اشكر جميع الذين تفضلوا بمناصرتي ادبياً وماديا وشجعوني على تحقيق هذه الفكرة راجياً منهم ان يضعوا هذا الكتاب بين يدي ابنائهم لنتمكن من المحافظة على البقية الباقية من مناعة الادب العربي وطيب الاخلاق والمبادي الشرقية

ولي الثقة التامة بان هذه الرحلة التي لم يسبقني احد الى تدوينها ستنال الحظوة في اعين القراء واللهم ولي التوفيق .

اسكندر يوسف الحايك









الشيخ اسكندر يوسف الحايك

« صاحب الرحلة »

ان لم يكن من الله حظ للفتى　　فاول ما يجني عليه اجتهاده



مدينة بيروت

الفصل الاول

من مصر الى بيروت فالشام فتدمر

١١ اذار — ٤ نيسان سنة ١٩١٤

تجهيز الحملة — الاوراق الحكومية في الشام — ثلاثة ايام مع قبيلة الحسنا وهدية الشيخ محمد الملحم — الهجوم علينا ليلا في الحماد — اثار تدمر او مدينة الورد — نبذة تاريخية عن تدمر وعن الملكة زينوبيا .

١١ اذار سنة ١٩١٤

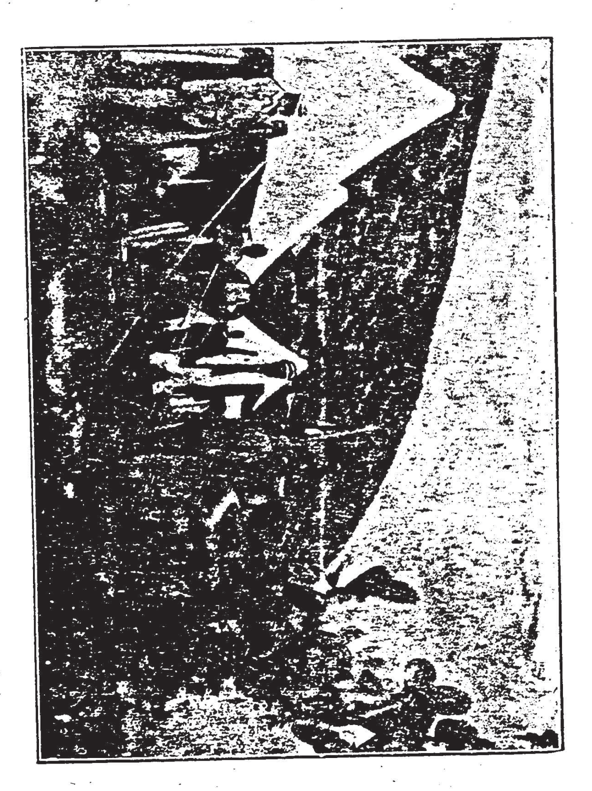
ركبنا القطار الحديدي في القاهرة وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة صباحاً وما زال ينهب الارض نهباً سائراً بين تلك المروج الفسيحة الغناء الى ان وقف بنا الساعة

الخامسة مساء في ثغر بور سعيد وهناك عند الساعة الثامنة ركبنا الباخرة التي اقلتنا الى بيروت تحت سماء زرقاء صافية الاديم

١٢ اذار

وكانت الساعة الثالثة مساء فرست الباخرة في مياه بيروت ، نزلنا الى اليابسة وذهبنا تواً الى فرن الشباك حيث نُصبت الخيام لمبيتنا تلك الليلة . وكنت سبقت وكتبت الى شقيقي (حنا) ان يوافيني الى هنالك ليعينني باعداد العدة اللازمة لرحلتنا فوجدته ينتظرني وقد تأهب ليقوم مقامي في تلك المهمة اعتقاداً منه ان سفرتنا هذه لن تتجاوز دمشق فبلاد فلسطين . فابيت عليه السفر مكاني ولم ابح له بما كان من امري مع السيد الرومي خشية ان تقوم عليّ قيامته وقيامة والدي لدى تصورهم الاهوال والاخطار التي كنا مزمعين ان نتعرض لها في تلك المفاوز والصحارى





الوصول الى فوق الشباك

بيروت

لمحة تاريخية

كانت بيروت او (بيريتوس) لايام تقادم عهدها مركز الملك عاموتيدا المصري نائب الفراعنة وكانت قائمة على اراضي الابليين في شمالي فينيقيا

وقد دمرتها حرب تريفون وانطيوخوس السابع سنة ١٤٠ قبل المسيح فعاد الرومان وشيدوها مطلقين عليها اسم « كولونيا جوليا اوغستا فليكس بريتوس » وهي ابنة الامبراطور اوغسطوس

ثم جاء هيرودس الكبير فالثاني فالثالث وبنوا فيها الحمامات والمسارح وجروا اليها الماء من نبع (المورغاس) المعروف اليوم بنبع الداشونية

واشتهرت بيروت في تلك الازمنة بمنسوجاتها الحريرية . وقد تهدمت بالزلزال سنة ٣٤٨ مسيحية ، وفتحها المسلمون سنة ٦٣٥ ثم استولى عليها الصليبيون فبقيت تحت سيطرتهم من سنة ١١٢٥ الى سنة ١٢٩١

وملك عليها الامير فخر الدين المعني من سنة ١٥٩٠ الى سنة ١٦٤٤ وعقد في ايامه معاهدة مع المصريين فازدهرت حينئذ التجارة وكان الامير هذا قد صرف ست سنوات في ايطاليا فراقته بناياتها فشيد في بيروت جملة بنايات على شاكلتها

وكان للامير المعني اعداء الداء فما زالوا يعملون حتى الفوا لمحاربته حزباً شديد البأس فدحر الاخصام ابنه علياً الذي قتله الاتراك في صفد وقتل بعده الامير والده في الاستانة .

وفي سنة ١٨٣١ استولى المصريون على بيروت تحت قيادة ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا امير مصر فرمموا مرفأها فتفوق على كل من مرفأي صور وصيدا

وفي سنة ١٨٤٠ ساعد الانكليز جماعة الترك على اخراج المصريين من بيروت وضواحيها فاستعادها الترك وظلوا اسياد البلاد الى نهاية الحرب الكبرى



حرش الصنوبر في بيروت

بيروت قائمة في وسط سهل ضيق منحدر نحو البحر على شكل لسان يجعلها شبه جزيرة تكتنفها البساتين الخصبة من جهتيها الجنوبية والشرقية وتتصل بجسر نهرها الذي يصب في خليج مار جرجس (الخضر) وتمتد على ستة كيلومترات من نهر بيروت وهو حدها الشرقي الى رأس بيروت الذي هو حدها الغربي حيث ينتهي بالبحر

رغماً عن ان بيروت كانت مسرحاً للغزاة والفاتحين وموطناً لشعوب كثيرة مختلفة لم يظهر فيها من الاثار ، الا بعض نواويس واعمدة من حجر السماقي المالس وقد ظهر فيها حديثاً شيء من الاثار حينما هدم الاتراك بعض اسواقها القديمة ايام الحرب الكبرى وهذا دليل قاطع على بقاء اثار تستحق الذكر مدفونة في جوفها

تقسم بيروت اليوم الى اثني عشر منطقة (اي حياً) وهي ١ دار المرايسي ٢ ميناء الحصن ٣ رأس بيروت ٤ المصيطبه ٥ المزرعه ٦ الباشوره ٧ زقاق البلاط ٨ المرفأ ٩ الصيفي ١٠ المدور ١١ الرميله ١٢ الاشرفيه

سكانها الوطنيون والاجانب بحسب الاحصاء الاخير يبلغون ١١٣٤٠٤ نسمات ما خلا الذين قيدوا نفوسهم في مناطق الجبل

١٣ و ١٤ اذار

كنا نعنى باعداد ما يلزم لرحلتنا فاضطررنا الى قضاء يومين كاملين في فرن الشباك جهزنا خلالها الحملة اللازمة

١٥ اذار

غادرنا فرن الشباك باكراً وكان الطقس عاطلا فسرنا تحت وابل من الامطار الى ان بلغنا بحمدون فاستأجرنا هنالك منزلاً خاوياً خالياً لا اثاث فيه ولا رياش فافترشنا بعض ما كنا ننقله من الامتعة وبتنا ليلتنا نرتاح بعد عذاب ذلك النهار

١٦ اذار

اصبحنا فاذا بنا تحت جو لا يزال عاطلا فركبنا القطار الحديدي في محطة بحمدون نسير منها الى دمشق موعزين الى رجال الحملة ان يتابعوا المسير فنجتمع معاً في تلك المدينة وقد اوصلنا اليها القطار عند المساء فبتنا ليلتنا تلك في نزل خوام

دمشق باب الحجاز وحصن البادية وعاصمة سوريا قديماً وحديثاً قائمة غربي صحراء سوريا التي تكتنفها من جهاتها الثلاث ما عدا الجهة الشرقية حيث تقوم سلسلة من جبال شامخة الذرى يحدها شمالا سلسلة جبال انتيلبنان الممتدة شرقاً نحو الصحراء وغرباً يميل الى الشمال جبل قاقر وجبل قصيون وجنوباً براكين جبل يعرف بالجبل الاسود- وعين الغوطة التي تعرف بغوطة دمشق ، جبل المني ، والغوطة كناية عن بساتين نضرة في ظاهر المدينة · على مسافة ثلاث ساعات ومن جبل انتيلبنان تتفجر الينابيع والانهار اليها واشهرها نهر بردى الذي يتفرع بعد خروجه من منبعه الى سبعة انهر

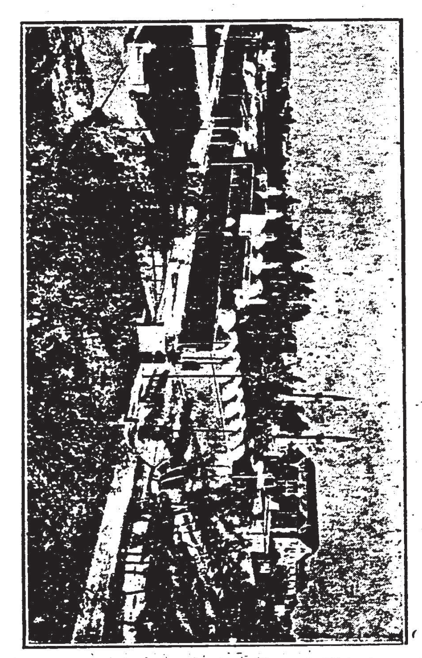
اما منتزهات دمشق فهي اشهر من ان نعرف عنها وعما هي عليه هذه المدينة من جمال المناظر ومدهشات الطبيعة

عدد سكانها ١٧٠ الفاً – اسلام ونصارى ويهود والاكثرية الساحقة فيها من الاسلام

دمشق الشام

لمحة تاريخية

هي جنة سوريا واحدى مدائنها التاريخية . عاصرت الاراميين والفينيقيين واليونانيين وبني اسرائيل والروم والعرب . طوقتها فيما عبر جيوش الفاتحين واطلق الغزاة خيولهم



جامع السلطان سليم في دمشق

عليها يريدون ضمها الى املاكهم · استعمرتها ذرية آرام واكتسحها الاسرائيليون وحاربها ملوك اشور وخفقت فوق ابراجها اعلام الروم ورضخت لحكم الخلفاء ، واعتلى عرشها صلاح الدين ثم اغتصبها التتر واستولى عليها بنو عثمان

وانتهت الحرب الكونية فتملصت من نير الاتراك واستقلت تحت اشراف الدولة الافرنسية

١٧ اذار

غادرنا النزل باكراً نتفرج على دمشق وما فيها من الآثار البديعة والبنايات الفخمة فزرنا جوامعها وكنائسها ومقابرها واسواقها الشرقية وعدنا الى النزل في ساعة متأخرة من الليل ·

١٨ اذار

واصلنا التجوال في المدينة نتفقد بقية ما فيها منتظرين وصول الحملة وماانصفنا ذلك النهار حتى كانت بين ايدينا

فنصبنا الخيام في جنينة على المرجة قريبة من نزل خوام

١٩ اذار

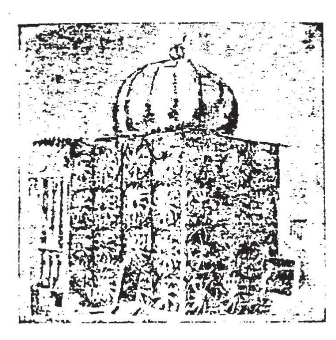
عدنا نكمل ما كان ينقصنا من المعدات مهتمين بالحصول على الاجازات الرسمية والتوصيات المتنوعة في شتى المراكز وكنا نحسب هذه التوصيات ضرورية جداً لتسهيل رحلتنا · فاستغرق عملنا هذا ثلاثة ايام بكاملها

٢٢ اذار

غادرنا دمشق حوالي الساعة الثامنة صباحاً راكبين خيانا وكنا في «حرستا» حوالي الساعة التاسعة ومن هناك تابعنا المسير الى «دوما» فوصلنا اليها بعد مرور نصف ساعة ثم مررنا الى «خان القصير» فالى «خان عياش» وكان ذلك عند الساعة الحادية عشرة صباحاً ·

فمكثنا هنالك نحواً من ساعتين ونصف الساعة نتناول طعام الظهر ونرتاح من اتعاب السفر ·

«وخان عياش» هذا كان في تلك الازمنة نقطة عسكرية يحرسها ثمانية من رجال



الدرك تحت قيادة جاويش وكانت الحكومة البائدة تغير اولئك الحراس مرة في كل شهرين ·

وقمنا نتابع السفر ووجهتنا «القطيفة» فبلغناها عند الساعة الرابعة وكانت حاشيتنا لا تزال على الطريق تحت حماية نفر من رجال الدرك فانضمت الينا عند الساعة السادسة ونصبنا الخيام في باحة داخل «خان اسنان باشا» وهناك بتنا ليلتنا؟

قبر ستنا فاطمة في دمشق

«والقطيفة» قرية صغيرة يتدفق في وسطها نبع ماء صغير يقع على مسافة قصيرة من الخان المذكور آنفاً · وفي هذه القرية لبن معروف بجودته وارضها غنية بالكلاء وبعلف البهائم والمواشي ·

٢٣ اذار

عند الساعة الثامنة صباحاً نهضنا مودعين «القطيفة» وما مر على ذلك نحو ساعة ونصف الساعة حتى كنا في «خان العروس»

ثم سرنا تاركين الحملة في ذلك الموضع فكنا في «النبك» عند الساعة الرابعة مساء وانضمت الينا الحاشية عند الساعة الخامسة

وفي «النبك تنتهي طريق العربات فتصبح المسالك بعدها وعرة قفرة

٢٤ اذار

غادرنا النبك عند الساعة الثامنة صباحاً قاصدين الى (ديرعطيه) فكنا هناك عند الساعة الحادية عشرة · واذ كنا نجوب القرية ابتياعاً لبعض الحاجات التقينا كاهناً من الروم الارثوذكس فقال لي رفيقي السائح هذا كاهن رومي ، وناداه محيياً مسلماً ودعانا الكاهن الى زيارة كنيسته وكانت على مسافة قريبة من مكان اجتماعنا وما كدنا نصل اليها حتى التقينا استاذ المدرسة الخاصة بالجمعية المسكوبية المشيدة في تلك البلدة

فاقترب منا والح علينا بزيارته في داره فكان له ما طلب • واجتمعنا في الدار الى شقيقتي الاستاذ وكانتا تثقفان الفتيات في معهد خاص بالجمعية المشار اليها وقد تفقدنا جميعاً ذلك المعهد فوجدناه منتظماً على ما يناسب ذوق العصر

وكنا عولنا على متابعة السفر على ان اولئك القوم ابوا علينا الا قضاء ليلة عندهم فتناولنا العشاء عند الاستاذ ورقدنا في داره وكان الاستاذ هذا نبيهاً لبيباً ارشدنا الى اشياء كثيرة من احوال تلك النواحي وكنا نجهل اكثرها

٢٥ اذار

خرجنا من دير عطيه عند الساعة الثانية صباحاً كمألوف عادتنا وكانت وجهتنا (حميره) فبلغناها عند الساعة الحادية عشرة واضطررنا الى البقاء فيها الى العصر وهو الوقت الوحيد لاستقاء المواشي والدواب

ثم تابعنا المسير فكنا في (مهين) نحو الساعة الخامسة مساء • وهناك نصبنا الخيام في خان فسيح هو كناية عن بناية كبيرة عظيمة المدخل قامت في وسطها فسحة طويلة

عريضة تحيط بها الغرف من كل الجهات

وفي (مهين) هذه اثار قلعة رومانية بعيدة العهد ونبع ماء غزير وسكانها باجمعهم مسلمون وحواليها من الجهات الاربع القبائل العربية المختلفة الاصل المتنوعة المذاهب والعادات والاخلاق

٢٦ اذار

طلع النهار فودعنا (مهين) نقصد الى (القريتين) فبلغناها عند الظهر ونصبنا خيامنا في حوش (موسى سليمان بو نعوم) وهو رجل من ابناء السريان الكاثوليك وله ثروته في تلك الربوع

تناولنا طعام الغذاء واسترحنا من عناء السفر وقمنا نستقصي احوال تلك البلاد وعادات اهلها واخلاقهم · ورقدنا ليلتنا في ذلك الحوش

٢٧ اذار

جاءنا من انبأنا بوجود نزل (منزول) في القريتين يؤمه الغرباء باجمعهم وقد جعله صاحبه — وهو من اغنياء مسلمي تلك البلدة — مأوى لجميع الناس على اختلاف نحلهم وطوائفهم · فقال لي رفيقي السائح : هيا بنا اليه · ذهبنا فاذا بالنزل بناية كبيرة الغرف والدور وفي جملتها قاعة كبيرة معدة للاستراحة والى جانبها باحة فسيحة هي باحة الاكل وجميع الغرف خصت بالنوم وفيها الفرش العديدة يبسطونها على الحصير

وما ان ولجنا القاعة الكبيرة حتى ابصرنا عربياً جميل الطلعة في عقده الرابع يحيط به العربان هيابين ساكتين فسألنا عن اصله وحسبه وكنيته فقيل لنا انه امير عربي يدعى الشيخ « محمد الملحم » وكان شيخ قبيلة « الحسنى »

ثم عرفنا انه كان عائداً من احدى غزواته فتقدمنا اليه مسلمين فدعانا الى الجلوس على مقربة منه ثم ابتدر حديثه قائلاً :

قضيت على ظهر جوادي نحواً من ثماني واربعين ساعة ولكني عدت مسروراً غانماً رابحاً . وكان بعض رعاة مواشينا في البرية فسطا عليهم خمسة وعشرون فارساً من العربان جيراننا وسلبوا منهم خمسين بعيراً . انتهى الي الخبر وكنت في القبيلة وحدي وكان فرساننا باجمعهم بعيدين عني فامتطيت جوادي مستصحباً هذا العبد الذي ترونه واقفاً على عتبة هذه القاعة . وما زلنا نتعقب اولئك الفرسان الى ان ادركناهم وكان قد مر على ذلك ما يناهز من الساعات اربعاً وعشرين فاسترجعنا (الحلال) حيث فر اولئك الانذال تاركين المسروق بين ايدينا . وها اناذا الان ارتاح مسروراً بعد ان صرفت ثماني واربعين ساعة على ظهر جوادي

قلت : وهل جرت العادة في هذه البلاد ان تسطو قبيلة عربية على قبيلة اخرى دون ما سابق عداوة او خصام بينهما ؟

قال : كلا . انما تتعدى قبيلة على اخرى متى كانتا « دشمان » اعداء او بينهما ثأر وكثيراً ما يتفق ان عصابة من اللصوص تسطو على احدى القبائل على غرة كما وقع لنا مؤخراً . وليس بيني وبين امير هؤلاء القوم الذين اعتدوا علينا الا العلائق الطيبة الودية على ان اولئك الفرسان انسلوا خفية من رجال قبيلتهم وقصدوا ان يسرقونا بدون ان يوعز اليهم بذلك اميرهم او شيخهم او احد من زعمائهم . والدليل على ذلك عدم مقاومتهم اذ انهم تركوا المسلوب حالما وقعت ابصارهم علي . ولو انهم فعلوا ما فعلوا بمشورة اميرهم لجاءهم من قبله من يعضدهم ويقاومونا حتى النهاية

قلت : وما اسم هذه القبيلة ؟ قال: السبعا . قلت : وهل لكم اعداء ياسيدي الامير قال : لا نخلو من بعضهم على اننا مرتبطون بالصداقة والاخاء مع اكثر قبائل هذه البقعة انما يجب على البدوي ان يكون في البرية على تمام التأهب لرد كل هجمة يولدها له المستقبل . ولست اخفي عنك انه كثيراً ما تغتنم قبيلة قوية من ضعف قبيلة مجاورة فرصة

للانقضاض عليها وسلبها ونهبها

وهذا ما يدعونا الى السهر المتواصل على كياننا القومي والى انتقاء امير او شيخ (خوش راجل) باسل شجاع

ورأينا الامير منزعجاً من تعب السفر فودعناه

وقد سألنا ساعة الوداع عن مكان نزولنا فقلنا : اننا ناصبون خيامنا في حوش موسى سليمان ابو نعوم · فقال : انني اعرفه وان شاء الله ازوركم هنالك

خرجنا من النزل نستفقد البلدة حيث زرنا مقابر النصارى القديمة ثم عدنا الى مرادقنا ونحن معجبون بشدة بأس ذلك الامير

٢٨ اذار

كنا مصممين على قضاء يومنا هذا في القريتين فذهبنا عند الساعة العاشرة صباحاً الى محلة فيها تعرف برأس العين فشاهدنا هنالك اثار قلعة رومانية قديمة العهد وعدنا الى خيامنا لتناول طعام الظهر

وعند الساعة الرابعة مساء بينما كنا جالسين على جوالق من القش اذ اقبل علينا عبد شاكي السلاح فحيانا وقال : مولاي في الباب قلنا : فليشرفنا بدخوله



الشيخ محمد الملحم شيخ قبيلة الحسني

دخل الشيخ محمد الملحم يحيط به عشرة من اركان قبيلته كانوا قد جاؤوا لملاقاته عائداً من سفره الذي اشرنا اليه سابقاً فرحبت به قائلاً : اهلاً وسهلاً ومرحباً، على عادة العرب ٠ قال : مرحباً بكم انتم من كرام الضيوف ٠ قدمنا لهم المقاعد فأبوا الا الجلوس نظيرنا على جوالق القش، سألناهم كيف يشربون القهوة فاجابونا مجردة من السكر ٠ وقدمت لهم من لفائف التبغ اللبناني من صنع معملنا في بيت شباب، فوجدها الشيخ لذيذة وصرح لي اذ ذاك انه يود كثيراً لو يزور لبنان ويجوبه ويمر ببلدتنا فيزورنا ٠ ثم طلب الينا ان نزور مضارب قبيلته القائمة على مسافة اربع ساعات من خيامنا فترجمت لرفيقي مقال الشيخ فقبل الدعوة شاكراً ٠ قال الامير :

ساكون عندكم غداً صباحاً ونسير جميعاً الى مضاربنا ، ثم ودعنا وانصرف

٢٩ اذار

ما دقت الساعة السابعة صباحاً حتى كان عبد الشيخ محمد الملحم يبشرنا بقدوم مولاه وبمعيته عشرة من اخصائه ٠ فادخلناهم مرحبين بهم ثم اعددنا عدة السفر ٠ وما كان غير القليل حتى غادرنا القريتين وركبنا الخيل بصحبنا الشيخ الكريم واعوانه ويتبعنا رجالنا والقافلة بحراسة دركي واحد وثلاثة من اخصاء الشيخ محمد وسرنا متكلين عليه تعالى وجهتنا مضارب القبيلة

وما كدنا نبتعد عن القريتين حتى شرع العربان يقومون على ظهر جيادهم بالعاب الفروسية المتنوعة . وكان الشيخ راكباً الى جانبنا يقص على مسامعنا نتفاً من حوادثه الغابرة . واشياء مهمة عن اخلاق وعادات تلك النواحي

وكنت لاحظت بان بالشيخ عرجاً فسألته عن سبب ذلك فاجابني قائلا : قتل والدي وكنت صغيراً قاصراً فانتقلت مشيخة قبيلتنا الى عمي ثم اتفق ان قتل عمي فاراد اولاده ان يستأثروا بالمشيخة وكنت اولى بها منهم فتنازعنا وتحاربنا ولكني تغلبت عليهم في آخر الامر .

وفي خلال المعارك التي دارت بيننا اصبت بضربة سيف في رجلي كانت سبباً لعرجي ولما كانت الوسائل الطبية والصحية بعيدة المنال في هذه الفيافي لم يتسن لي ان اتعالج فبقيت على ما ترى

قلت وما فعلت بابناء عمك بعد انتصارك عليهم ؟ قال . تركتهم وشأنهم حافظاً كرامتهم ساهراً على راحتهم كل السهر وهم الان يعيشون معي لا حقد بيننا ولا ضغينة يعترفون لي بالمشيخة خاضعين لاحكامي مؤتمرين باوامري نظير كل فرد من افراد القبيلة ولا تعجب اذا قلت انهم من اشد اعواني غيرة علي وحباً لي

قلت : الا تخشى غدرهم ؟

قال : حاشا وكلا . لسنا من جماعة الاتراك . انما نحن عرب لا يغدر احدنا بالاخر واذا شاء اعرابي منا ان يحارب اعرابياً مثله حاربه علانية واخطره قبل ذلك مراراً طالباً منه مطالب اذا رفضها وقعت بينهما الوقيعة . بناء عليه لا خوف علي اصلا من هذا القبيل والى الان لم يحدث في قبيلتنا ما يشتم منه رائحة الخيانة وما الخيانة الا دأب الجبناء وليس جبان بين ابناء عمي فانهم باجمعهم بواسل شجعان ذوو نفوس عالية واخلاق ابية وما زال الشيخ يحدثنا الاحاديث اللذيذة الى ان انتهينا الى مضارب القبيلة وقد استقبلتنا كوكبة من الفرسان باهازيج الطرب واناشيد الفرح قائلين « تشربفشم غالي شتير » اعني تشريفكم غالي كثير وكان جميعهم يرددون بالصوت الواحد يا مرحباً بالضيوف يا مرحباً يا مرحباً

وما هي الا هنيهة حتى شرعوا بالعاب رياضية تذهل الالباب واهم ما يذكر حركات الجياد حين تهاجم الفرسان فانك لترى الجواد مسرع من تلقاء ذاته الى الموقع الملائم



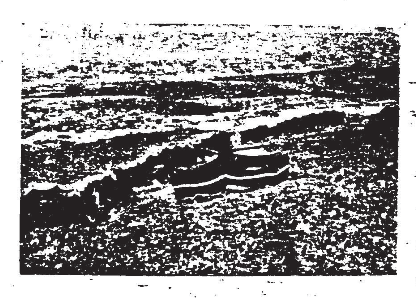
الوصول الى قبيلة الحسني

براكبه فكأنه يدرك ما يجب عليه لتوفير العناء والمشقة على الفارس

لم ارَ بين هذا العدد العديد من الفرسان من يمسك بيده لجاماً او رسناً بل كان كل منهم يلعب فرسه ويديرها باشارة يعملها بسيفه او بندقيته او رمحه لان كل من الفوارس يحمل هذه الاسلحة وعلى صدره كمية كبيرة من الخرطوش السيف على جنبه والبندقية في كتفه والرمح بيده الشمال ممدود عرضاً على السرج ومنهم من يضع البندقية بين اذني الفرس سانداً اياها الى رأسه ، الفرس يركض ورأسه لا يتحرك ، ومنهم من يضع الرمح على السرج عرضاً متوازناً فلا يقع رغم كثرة الالعاب وسرعة الحركات واختلافها كثير منهم يدورون تحت بطن الفرس ثم يعودون الى السرج بينما الفرس تسير بسرعة البرق ، ومنهم من يطرح السيف على الارض والفرس تنهب الارض نهباً ثم يأخذه بقبضته ، ومثل هذه الالعاب كثيرة مدهشة اجروها امامنا اكدت لنا انهم بالحقيقة من امهر الفرسان

وما كدنا نلج الخيام حتى نهض رجال القبيلة واقفين مرحبين بنا واقتادونا الى «بيت الاستقبال» وهو عبارة عن خيمة كبيرة من شعر الماعز الاسود قائمة على اربعة اعمدة ومفروشة بالسجاد العجمي الفاخر . ودعانا الشيخ محمد الى الجلوس فجلسنا معاً على مقعد

يعلو عن الارض نحواً من
نصف ذراع والمقعد عندهم
مؤلف من عدد من السجاد
توضع السجادة فوق الاخرى
الى ان يحصل الارتفاع الذي
ذكرنا . ولا يستعملون
المقاعد الخشبية لانهم يرون
بحملها جزيل العناء حين
يرومون التنقل



قسم من مضارب قبيلة الحسني

وما كدنا نجلس حتى رن في اذاننا صدى طرق موقع توقيع الانغام الموسيقية . فسألنا ما هذا ؟ فقيل لنا : طرق اجران البن واذا شئتم تفضلوا وانظروا . خرجنا من الخيمة وقصدنا الى بيت الطبيخ كما يسميه اولئك العربان وكان علَى مسافة بضعة امتار وشاهدنا خمسة عشر رجلا يدقون البن في خمسة عشر جرنا . وكانت الاجران ومدقاتها من الخشب الجيد ووجدنا في كل جرن كمية زهيدة من البن ويوزعون البن على الاجران العديدة للسرعة في العمل . وقد اعتادوا ان يحضروا البن عندما يرومون شرب القهوة تركنا بيت الطبيخ ودخلنا خيمة مجاورة فاذا هنالك عشر بدويات يدققن ويرقصن حول الاجران رقصاً موقعاً علَى الدق

ثم دعينا لتناول الطعام فادخلونا خيمة تعرف عندهم ببيت الاكل وهي قائمة على اربعة اعمدة وقد فرشت ارضها بالسجاد فجلسنا بشكل الحلقة وقدم لنا العبيد الطعام على الصورة الآتية :

١ً صينية من النحاس مملوءة من لحم الغنم وقد جعلوه قطعاً كبيرة . ووضعوا فوق اللحم اربعة رؤوس غنم كاملة وغير مقطعة . وكان يحمل الصينية اربعة عبيد ومعهم عبد خامس حامل طاولة صغيرة من الشعر المجدول وضعها تحت الصينية التي اصبحت على علو عشرة سنتيمترات عن الارض في وسط الخيمة

٢ً ثلاث طاولات صغيرة وضعت على مقربة من الصينية الكبيرة ليتمكن الجميع

من تناول الطعام بدون انزعاج .

٣ ثلاث صينيات صغيرة مملوءة سمناً سخناً وضعت على الطاولات المذكورة آنفاً

٤ طاولة كبيرة وضعت في الوسط وعليها صحن كبير جداً مملوء ارزاً اعدوه على شكل هرمي

٥ قدور عديدة مملوءة لبناً يشبه الجبن وخبز محمص على حرارة الشمس . اما الحضور فكانوا اربعة عشر : شيخ القبيلة وثلاثة من ابناء عمه وثمانية من اركان قبيلته وانا ورفيقي السائح

اشار الينا الشيخ ان نتناول الاكل في مقدمة الجميع فاجبته شاكراً قائلا تفضل اولا يا مولاي

فاخذ قطعة من اللحم وغمسها بالسمن ولاسها . ثم تناول بيده كتلة من الارز وطرحها في اللبن ثم انتشلها بيمناه حاملا بيسراه طاسة اللبن وقد وضعها تحت ذقنه ثم اكل كتلة الارز بلباقة غريبة بنوع انه لم يسقط منها حبة على عباءته

توقفت ورفيقي عن الاكل ففطن الشيخ انه لا يسعنا ان نعمل عمله . فامر اذ ذاك احد العبيد ان تأتينا بطبقين نظيفين وشوكتين وملعقتين وسكينتين ، فقلت له وهل عندكم يا مولاي من هذه الادوات ؟ قال :

نعم ، على اننا لا نستخدمها ، وقد خصصناها بالضيوف الذين لم يتعودوا تناول الطعام على شاكلتنا

وسالت الشيخ قائلا :

ما رأيت احداً مد يده الى شيء من هذه الرؤوس الاربعة الموضوعة فوق اللحم فما معنى وجودها والحالة هذه ؟ قال :

هي عادة القبائل في كل البادية ويقصد منها احترام الضيف واكرامه ، اننا نقدم اربعة رؤوس اكراماً لضيف نحبه من ذوي الطبقة العليا وثلاثة لذوي الطبقة الثانية واثنين لذوي الطبقة الثالثة ونقدم رأساً واحداً للضيوف العاديين الذين يؤمونا لحاجة كتجار السمن والصوف كما اننا نقدمه لامراء القبائل المجاورة التي تربطنا بها علائق الصداقة والاخاء

ولما انتهينا من الاكل نهض الشيخ وقال احمد الله تفضلوا فنهضنا معه جميعاً ومررنا



بيت الاستقبال في قبيلة الحسنى

الى بيت الاستقبال فرأينا عبداً جالساً في وسط البيت وامامه نار شكلها لفت نظاري لانها تختلف عن المعتاد . فسألت الشيخ :

ما هذه النار ومن اي شيء تتولد ؟

قال : من بعر الجمال لان القهوة لا تكون طيبة على نار قوية فبعر الجمال نارهخفيفة وامام النار ثلاثة اباريق نحاسية فيها جميعها ماء تغلي فبعد ما جلسنا وضع العبد البن في اول ابريق ثم وضعه فوق النار خمس دقائق في اثنائها فرغ المياه من الابريقين الاخرين في ابريق كبير اتى به احد العبيد ووضعه قرب النار، ثم بعد خمس دقائق فرغ الابريق الذي فيه البن في الابريق الثاني ووضعه فوق النار ايضاً نحو خمس دقائق ثم فرغه في الثالث ووضعه فوق النار نحو خمس دقائق ثم وقف وحمله بيده اليمين وحمل بيده الشمال الفناجين فوق بعضها بعضاً وكان يضع في كل فنجان مقدار جرعة واحدة من القهوة فيقدمه لواحد من الجالسين حتى اخذوا كلهم ثم استأنف اغلاء القهوة في ابريق آخر وسقانا مرة ثانية ثم مرة ثالثة هذه طريقة عمل القهوة عند العرب او « القهوة العربية » تؤخذ ثلاث جرعات ولكنها لذيذة ومسكرة في آن واحد

وازفت الساعة الرابعة مساء فسمعت اصوات اجراس القافلة فقلت للشيخ :

جاء رجالنا مروا لهم بمكان ينصبون فيه الخيام فامر قومه بالعمل فاطاعوا ، ثم قال:
اتريدون ان تتفقدوا القبيلة ؟
قلنا نعم
فقال اركبوا جيادكم لان المسافة بعيدة ويشق عليكم ان تسيروا على الاقدام ،
فسرنا والشيخ معنا والى جانبه احد العبيد يحرسه بسيفه . دخلنا المضارب فاذا بعضها كبير وبعضها صغير ، منها ما فرش بالسجاد ومنها بالشعر ، من العربان عراة ومنهم من ارتدى الملابس الفاخرة الثمينة ، فاحببنا ان نطلع على احوال القبيلة مفصلا فكانت بيني وبين الشيخ المحاورة الاتية :

قلت : ما هو نظامكم فيما يتعلق بافراد العائلة (عائلة امير القبيلة) ؟
قال : ماذا تعني بذلك ؟
قلت : اعني الانظمة التي تسيرون بموجبها حفظاً لكرامة العائلة
قال : يتزوج افراد العائلة من بناتها زواجاً صحيحاً شرعياً
قلت : وهل تعتبرون السبي زواجاً صحيحاً شرعياً ؟
قال : لا يكون السبي زواجاً صحيحاً شرعياً ما لم يكن مقيداً بما يأتي :
ينعقد مجلس عائلي مؤلف من افراد معينين فاذا ثبت للمجلس هذا ان السيدة المسبية من اصل شريف جدير بامتزاجه بعائلة البدوي الذي سباها كان الزواج شرعياً صحيحاً والا فلا

قلت : ايحق لشيخ القبيلة او اميرها ان يتزوج بنساء عديدات ؟
قال : نعم
قلت : باولاد اية امرأة يكونون اولى بان يرثوا المشيخة
قال : كانت الشريعة تخص المشيخة باكبر العائلة سناً ولكن الشريعة هذه قد تلاشت واضمحلت فاصبح الشيخ من احرز المشيخة بسيفه وسطوته
قلت : والحالة هذه يسع رجلا غريباً عن العائلة ان يحرز المشيخة بسيفه وبأسه
قال : ذلك مستطاع ولكنه صعب المنال . اجل ان المنازعة على المشيخة يثور ثائرها بين افراد العائلة ولكنهم يتكاتفون وينضمون لمقاومة اي غريب ودخيل فيتعذر على هذا الاخير والحالة هذه ان يتغلب على مجموع العائلة . واعلم ان البدوي لا يخضع الا

لابن النسب وسليل الدم الشريف

والى الان لم يتمكن دخيل من التسلط على القبيلة

قلت : لو قتل شيخ القبيلة ولم يكن له ولد ذكر وكانت له زوجة وبنات فماذا يكون حظهن بعده ؟

قال : تعود اليهن ثروة الشيخ برمتها ولا يسع احداً غيرهن ان يستولي على درهم من تلك الثروة ، ويظل معاشهن معاش افراد العائلة

ولو اتفق ان قبيلة اخرى تغلبت على قبيلتهن واخضعتها لسلطانها بقوة السيف فمن واجب القبيلة الغالبة ان تحافظ على كيان افراد عائلة القبيلة المغلوبة مقدمة لهم سائر ما يحتاجون اليه من امور المعيشة ، وتكون عائلة القبيلة المغلوبة اسيرة للغالبة ولكنها اسيرة مكرمة لا ضغط عليها ولا حيف ، فهي سنة بين القبائل على الاطلاق لا يخرقها الا بعض الشذاذ

قلت : وماذا يكون معاش عائلة الشيخ القتيل ؟ هل من امتياز لافرادها ام انهم خاضعون للنظام العام ؟

قال : يسري عليهم نظام القرابة فلا امتياز لهم في المعاش او في شيء آخر ، وكثيراً ما يتفق انهم يكونون ذوي ثروة طائلة فلا ينحصر همهم بامر معاشهم انما يعنون بامر حفظ كرامتهم ومنزلتهم في الهيئة الاجتماعية

قلت : وهل يمكن البدوي ان يميز بين سيدات العائلة وبقية سيدات القبيلة ؟

قال : نعم ، فان العماريات او حرم العائلة يرتدين الملابس التي تميزهن ، زد على هذا انهن يركبن الهوادج ، بين ان بقية النساء لا يركبن سوى الخلال (الجمال) ويحيط بنساء العائلة في سيرهن الحرس والحشم والخدم ، ولكل سيدة منهن اسم خاص ونسب خاص تعرف به بين القبائل

قلت : وكيف يعرف شيخ القبيلة وهو راكب بين فرسانه العديدين فهل من علامة فارقة تميزه ؟

قال : نعم ، فهو يسير دائماً في مقدمة الجميع وتكون ملابسه افخر من سائر الملابس ويتقلد سيفه الذي هو سيف اجداده . واعلم يا صاح ان لكل قبيلة سيفاً يتوارثه المشايخ قال هذا واستل سيف قبيلته وناولنيه فقرأت فيه تاريخاً يعود الى ستمائة سنة وقد نقش

عليه اسم مؤسس القبيلة هكذا :

شيخ قبيلة الحسنى : بقوة ومعاونة نبي الله صلى الله عليه وسلم

سهيل سنة ٧١٢

وقد نقشت الكتابة هذه على نصل السيف بأحرف ذهبية

ارجعت السيف وقلت : الم يسبِ سيدي الشيخ فيما مضى ؟

قال : استغفر الله ، ما اقدمت قط على هذا العمل اللئيم ولا فعل ذلك احد ابناء عائلتنا

قلت : ولماذا ؟ اتعدون ذلك عيباً ؟ نحن نسمع ان العمل هذا عمل شجاعة

قال : لا انكر انه عمل شجاعة ، غير انه لا يخفى عليكم ان نساءنا يكرهن هذا العمل اذ انهن يعتبرنه دليلا على عدم اكتفائنا بهن فنجد في طلب غيرهن وهذا ما يعكر صفاء الحياة العائلية

قلت : واذا كان البدوي عازباً هل يعاب اذا سبا ؟

قال : كلا ، اذا سبا وتزوج لا لوم عليه ولا تثريب ولكن السبي كثيراً ما يولد الضغائن بين القبائل فيكون والحالة هذه وخيم المغبة ولذلك نكرهه ولا نقدم عليه الا مرغمين

ثم انتهينا الى مركز رجالنا فوجدناهم قد نصبوا الخيام واعدوها بكل ما يلزم فدعونا الشيخ الى شرب الشاي فقبل الدعوة شاكراً

وعاد الشيخ الينا بعد العشاء فصرفنا السهرة في سرادقنا ، وفي خلالها كلفني رفيقي السائح بالحديث الآتي :

يفتخر المرء في الغرب بثروته ثم بعلومه ومعارفه فهل هذا دأب البدوي ؟

اجاب الامير قائلا :

لا يفتخر البدوي بثروته او بعلمه والعلوم عندنا قاصرة جداً انما افتخاره منحصر بالفروسية والشجاعة فهو يعتقد انه متى كان فارساً شجاعاً تمكن من اكتساب الثروة بسيفه وبأسه ، وليست الثروة في نظر البدوي مدعاة للافتخار ولذلك رأيته وهو بين اقرانه يحدثك عن جواده وسيفه ورمحه وعن الغزوات التي كان في جملة افرادها وما شاكل هذه الامور

قلت : وفي اي سن يتزوج عادة رجالكم؟

قال : يتزوج البدوي عادة وقد اصبح بين الخامسة عشرة والعشرين سناً وهو مضطر الى الزواج في مطلع شبابه اذ لا سبيل له الى ارضاء الطبيعة بالتجاءه الى الدعارة وابواب الدعارة مغلقة عندنا



بيت في قبيلة الحسنى

قلت : وهل حوادث الطلاق كثيرة بين القبائل كما هو شأنها في المدن والقرى العامرة ؟

قال : كلا ، فالطلاق عندنا نادر امره اذ لا يعاشر رجالنا سوى نسائهم فلا تفسد اخلاقهم والحالة هذه من مغازلة نساء غريبات عنهم

قلت : وكيف احوالكم وعلاقاتكم مع الدولة العثمانية ؟

قال : نحن ورجالها على خلاف دائم ولا سبيل لنا الى التقرب من ولاة امورها فهم يعتقدون بنا الهمجية والخيانة والغدر ونحن نحسب الاتراك الد اعداء العرب يضمرون لهم الحقد والبغضاء

قلت : وهل يفرض عليكم مال لهذه الدولة ؟

قال : اننا ندفع لها ضريبة الاملاك الثابتة غير انها لا تكتفي بذلك فتبذل كل ما بوسعها لجمع الاعشار وكثيراً ما لا تنجح

قلت : أتؤثرون بقاءها سيدة البلاد العربية ام تفضلون تقلص ظلها عنكم وحلول غيرها محلها ؟

قال : اننا لا نحب الدولة العثمانية غير اننا لا نفضل سواها عليها لاننا نجهل ما سيكون من امر دولة او امة جديدة تستولي على املاكنا . ولا اخفي عنك اننا نوعاً ما



الجمال تشرب قبل الرحيل

مستقلون بادارتنا و حكامنا فلا علاقة بنا لها من هذه الوجوه ولا خطر على كياننا القومي ما زلنا بعيدين عن الحضر ولا نضطر الى ارتياد المدينة الا لبيع غلالنا وشراء لوازم معيشتنا

قلت : وبأي الطرائق تستجلبون اسلحتكم ؟

قال : بواسطة التجار الذين يأتوننا بها الى وسط القبيلة ويتقاضوننا عليها ثمناً فاحشاً فالبندقية التي تباع في الشام بست ليرات مثلا نشتريها باثنتي عشرة وهكذا قل عن غيرها

ثم ما طال بنا الامر حتى انصرف الامير عائداً الى مضربه ٠ وما كدت اغمض جفني حتى جاءني احد رجالنا يقول لي :

اني اسمع وقع اقدام خيل ، فبعثت به يستطلع الخبر فعاد وقال :

شاهدت ضابطاً تركياً يصحبه عشرة من جنوده وقد ذكر لي اسمك وهو يرغب في مقابلتك ، فاوعزت اليه ان يدعوه الى الخيمة ، ففعل

حيانا الضابط ثم قال :

اننا آتون اليكم من قبل مدير القريتين وذلك محافظة على ارواحكم واموالكم من غدر البدو فانهم خونة اسافل لا زمام لهم ولا وجدان



الغنم تشرب قبل الرحيل

اجبته : ولكننا ممتنون لهم كثيراً فقد اكرموا وفادتنا واحسنوا ضيافتنا وعلى كل حال نحن شاكرون لعطف المدير علينا ولاهتمامه بنا وسنبذل الجهد لابداء امتناننا يوم نعود الى القريتين . اهلاً بكم ومرحباً بقدومكم ورقد الضابط وجماعته ليلتهم عندنا .

٣٠ اذار

كانت القبيلة قد عزمت على الانتقال في ذلك اليوم فعزمنا على الانتقال معها اقتباساً لفوائد جديدة لها علاقة بعادات العرب واخلاقهم فمر بنا الشيخ حوالى الساعة الخامسة صباحاً وقال . هيا بنا الى الرحيل

سرنا معاً على الاقدام مسافة قصيرة فوجدنا بدوياً في مطلع الشباب واقفاً على رابية صغيرة الى جانب بركة طافحة بماء الامطار (والى جانب برك كهذه ينصب العربان خيامهم ارواء لابلهم وبقية مواشيهم)

فنادى الشيخ الغلام قائلاً : اسق ياعلي

فاخذ علي ينادي الابل والغنم قائلا : راحله ياراحله : وظل يردد كلمته هذه نحوا من عشر دقائق وشرعت الابل تقترب والغنم بعدها من البركة وتشرب وتناولت المواشي شرابها بنظام وترتيب عظيمين وابتعدت عن الماء

ونحو الساعة التاسعة كانت القبيلة متأهبة للرحيل فسارت على النمط الآتي :
سارت الجمال اولاً تحمل الخيام او البيوت وسائر الذخيرة والادوات وسار قدامها خمسون فارساً بقيادة شيخ عربي في عقده الخامس سارت بعدها المواشي على اختلاف انواعها ومعها



قبيلة الحبنى راحلة

الرعاة وعائلاتهم وكان قدامها ايضاً خمسون فارساً بقيادة شيخ عربي في عقده الرابع

وسار موكب العائلة منظماً هكذا :

الحرم في خمسة عشر هودجاً وحولهن الحرس الخاص بهن ويتألف من خمسين فارساً من نخبة الفرسان . ثم الشيخ امير القبيلة والى جانبه ابنه الصغير وكان وحيداً وابناء عم الشيخ وكانوا ثلاثة وعبدان مسلحان يحرسان الشيخ ومن حوله

وفي مؤخرة الجميع سار الفرسان فرقاً فرقاً وقد امتطوا جيادهم وتقلدوا اسلحتهم وكان عددهم على ما افادنا الشيخ ثلثمائة فارس

مشينا والقبيلة حتى الساعة الثانية بعد الظهر وكنا انتهينا الى بركة ماء في محلة تعرف بالوادي واقعة الى الجهة الغربية من قرية (مهين) وهي القرية التي كنا فيها في الخامس والعشرين من اذار

وفي تلك المحلة نصبنا سرادقنا ونصب العربان خيامهم

وكان ذاك الوادي خصباً كثير المرعى فسرح العربان ماشيتهم في سهوله ثم مثل اركان القبيلة امام الامير يسألونه ما يجب ان يعملوه في الغد وكانت الشمس قد قاربت المغيب فاجابهم الامير قائلا : لقد عزم ضيوفنا الكرام على مغادرتنا غداً بناء عليه سنمكث يومنا هنا لاننا مضطرون الى ارسال قسم من فرساننا يرشدون هؤلاء الضيوف



حرس آلعماريات

الى الطريق المؤدي بهم الى السلطاني ويحرسونهم اثناء مسيرهم

وفي تلك الليلة دعونا الشيخ واركان القبيلة الاربعة لتناول العشاء على مائدتنا معتذرين لهم عن عدم تمكننا من دعوة غيرهم نظراً لضيق المقام

وقدمنا لهم الاطعمة على الطريقة الاوربية فسروا بذلك كثيراً وطلب الينا الشيخ ان نطلعه على الطريق التي ازمعنا سلوكها فقلنا له اننا عائدون الى بيروت عن طريق حلب فحما فحمص فبعلبك

قال : اؤمل منكم اذن ان تزوروني في (ديرة) حمص اثناء رجوعكم الى بيروت لاننا نكون هنالك في تلك الاونة وارشدني الشيخ الى طريقة الوصول اليه في (ديرة) حمص بدون عناء ومشقة

وسألني الشيخ قائلا . وماذا دعا رفيقك السائح الى تحمل مشاق هذه الرحلة ، فترجمت للسائح كلام الشيخ فاجاب ، دفعني الى ذلك درس حياة البدو واحوالهم وعاداتهم واخلاقهم واميالهم الخ

وسأل الشيخ ما اذا كانت الرحلة هذه على نفقة حكومة السائح ام على نفقته الخاصة فاجاب السائح انها على نفقته الخاصة على انه سيقص على حكومة القيصر كل ما يهمها من

موز العربان مبيناً لرجالها ما لقي بينكم من ضروب الحفاوة والاكرام وحسن الضيافة وعندها اعتذر الشيخ قائلا :

ما زلنا بعيدين عن تأدية كل ما يجب علينا نحوكم ولكن لنا عذرنا فنحن في البرية على انه اذا زرتمونا في ديرحمص نتمكن من سدل الحجاب على قصورنا في هذه الصحراء

ودعنا الشيخ ورجاله عائدين الى خيامهم للاستراحة والنوم وعندها قال لي رفيقي :

سها عن بالنا ان نسأل عن كيفية الارث عندهم وعما اذا كانوا يتمشون على الشريعة الاسلامية المعمول بها في الحضر ام انهم مصطلحون على انظمة وقواعد خاصة بهم فقلت له :

نسأله غداً انشاء الله

٣١ إذار

حوالي الساعة السابعة صباحاً جاءنا الشيخ يزورنا قبل مغادرتنا القبيلة وكان قد استصحبني في الليلة الغابرة لتفقد شؤون الخيل ، وهي عادته في كل ليلة قبل ان يذهب للرقاد . فسألني ما اذا كانت جيادهم قد اعجبتني ، فاجبته ان اكثريتها من اصل كريم . « وكنت قد شاهدت بينها جواداً حديدي اللون ازرق فحسبته من اصل مختلف عن البقية فنوهت للشيخ بذلك » فاجابني فوراً :

لو كنت تعلم كم ابلى هذا الجواد في الغزوات العديدة لغيرت اعتقادك . ثم نادى

احد عبيده وكان اسمه مرجان قائلا :

آتنا يا مرجان بمسعود « وكان اسم ذلك الجواد مسعوداً » . فـانجز العبد امر مولاه ، ولم يكن من الشيخ الا انه صاح بي قائلا :

هذا الحصان هدية مني اليك تفضل واركبه واثناء مرورك بحمص ترجعه الي ان لم يعجبك فاقدم لك غيره : فقبلت هدية الشيخ شاكراً لالطافه وكرم اخلاقه ، وعدت فسألته عن العادة المتبعة عندهم فيما يختص بالارث فاجابني :

انهم تابعون للشريعة الاسلامية بحذافيرها ، غير ان الابنة المسبية تفقد حق الوراثة ثم ودعنا قائلا :

لقد اوعزت الى عشرين فارساً برافقتكم الى طريق السلطاني وهم مستعدون لخدمتكم حيثما تشاؤون، قلت :

شكراً لك فليس من داع لازعاجكم اذ ان برفقتنا ضابطاً واثني عشر جندياً واظنهم يعرفون الطريق ، فقال :

ليس من يعرف الطرقات هنا سوى العربان الذين درسوها وداسوها مراراً . ولو اكد لكم الضابط وجنوده انهم يعرفونها لا تصدقوهم ويجوز انهم يرشدونكم الى طريق السلطاني ولكنهم لا ينجزون العمل قبل مرور يومين ان لم يكن اكثر في حين ان رجالنا يرشدونكم الى ذلك بعد ثلاث ساعات

ودعنا الشيخ شاكرين لاهتمامه بنا ومبرنا والفرسان والضابط وجنوده . وما مرت ساعات ثلاث حتى انتهينا الى طريق السلطاني فاصبحنا بأمن من كل خطر . وعندها اشار الي رفيقي ان اقدم للفرسان عشرين ذهباً عثمانياً فطلبت كبيرهم وقدمت له المبلغ المذكور فرفض قبوله قائلا . نحن نخدم ضيوف اميرنا ولسنا بمستأجرين . قلت انه لمبلغ زهيد مقدم لكم على سبيل الهدية وليس على سبيل الاجرة . فاقبله من السائح اذا شئت فرفض قائلا . كنت احسبكم تعرفون عاداتنا . لا يقبل البدوي الشريف مكافأة على مروته ، ونخوه بمروته . ثم اذا وقف اميرنا على خساستنا عنفنا وبصق في وجهنا بناء عليه لا تلحوا علينا بقبول درهم واحد . عندئذ عرضت عليه صندوقاً من لفائف التبغ اللبناني مؤونة لطريقهم فقبله شاكراً وعاد الفرسان ادراجهم

ورافقنا الضابط التركي ورجاله حتى القريتين . وكنا هنالك عند المساء . فنصبنا

خيامنا في المحل الذي قمنا فيه قبل رحلتنا الى ارض القبيلة اي في حوش موسى سليمان ابو نعوم وهناك بتنا ليلتنا



جمال العربان تنقل الصوف

١٠ نيسان سنة ١٩١٤

نهضنا باكراً وتأهبنا لزيارة مدير القريتين نشكره لاعتنائه براحتنا وحراستنافكنا على باب دارة حوالى الساعة السابعة صباحاً ٠ استأذنا فدخلنا فاذا بنا امام شاب تركي جميل الطلعة لا يتجاوز الثلاثين من عمره ٠فاجلسنا ثم جلس وقال :

كنت مضطرب البال من نحوكم فالبدوي خائن غدار لا يؤمن شره ولذلك بعثت بمن يحرسونكم ويرافقونكم في رجوعكم ٠

فقال له رفيقي جئناك الان نشكر لعنايتك هذه وسوف اذكرك ما حييت ولن انسى جميلك ٠

ثم قدموا لنا القهوة فشربناها شاكرين ونهضنا نودع المدير ٠ فهمس رفيقي في اذني خالياً مني ان استأذن المدير فنقدم شيئاً من المال لاولئك الذين قاموا بحراستنا ومرافقتنا فابى قائلا : انهم جنود مكلفون بالسهر على الامن العام ولم يفعلوا سوى واجبهم ولا اجر على الواجب زد على هذا اننا لا نريد ان يتعودوا عادة كهذه

عدنا الى مضاربنا فوجدنا كل شيء معداً للرحيل فقمنا برجالنا قاصدين الى (قصر الحير) وكانت الساعة التاسعة صباحاً ٠ فانتهينا الى ذلك المكان عند الساعة الثالثةمساء فتناولنا الطعام في ظل الاثار القائمة في تلك البقعة

وتعود آثار (قصر الحير) الى عهد زنوبيا ملكة تدمر التي تعرف بمدينة الورد ، ومما يروى انه كان في ذلك المحل خزان كبير لاحراز المياه التي جرتها زنوبيا من عين



العربان حول قصر اخير

الفيجة الى تدمر ·
وما زالت بين تدمر وعين الفيجة آثار القناة الحجرية التي اصطنعتها تلك الملكة ·

ثم سرنا ورجالنا الى ان ادى بنا المسير الى مفازة فسيحة فنصبنا الخيام على هضبة وكانت الساعة السادسة مساء

وكان الطقس رديئاً والبرد قارساً وهبت في ذلك الليل عاصفة قوية فجاءت ضغثاً على ابالة ولم يغمض لنا جفن وخشينا ان تشتد العاصفة فتقتلع حبال الخيام

ومرت ساعتان على انتصاف الليل فأحس الحراس بوقع اقدام خيل في الجهة الغربية فاسرع ينقل الي الخبر فاوعزت اليه ان يذهب ورفقاءه لمجابهة ما قد يطرأ علينا وذهبت الى سرادق السائح وايقظته طالباً منه ان يكون على استعداد وحذر فنهض وتقلد بندقيته

ثم سرنا باجمعنا غرباً وكنا متأهبين لكل طارىء · وما اصبحنا على مسافة خمسين متراً من مضاربنا حتى شاهدنا مجرى مياه شتوية فمكثنا هنالك

ومر على ذلك نحو نصف ساعة فابصرنا على مقربة منا خيالا بشرياً ، فصحت قائلا:
قف مكانك يا هذا والا اطلقنا عليك النار فقال :
لا تخافوا فما انا الا بصديق لكم قلت :
ومن يكون هذا الصديق ونحن لا نعلم ان لنا في هذه البقعة صديقاً ، انطق بالصدق والا قتلت

قال : لا تطلقوا النار ايها الناس فلست بوحدي ، انما نحن خمسون فارساً ، فاذا قتلتموني كان ذلك وبالاً عليكم



البدوي ضيف لليل

لا تخافوا وهيا نتفاهم ولكم من مروءة العرب اعظم ضامن لسلامتكم، قال هذا ونزل عن جواده ودنا منا وحيانا بهذه الكلمة:

«السلام عليكم ! »

قلنا : وعليك الف سلام ، وما خبرك ؟ وما قصدك ؟

فعاد وقال : السلام على الضيوف قلت : والسلام على ضيوف اتوا الينا في مثل هذه الساعة

قال : رأينا الخيام منصوبة فقصدنا اليها على ان المسافة بعيدة فاضطررنا الى المسير ليلنا كله ولم نستطع الوصول اليكم قبل هذه الساعة ولا يخفى عليكم ان تقدير المسافات صعب في المفاوز والسهول

ثم اتينا به الى الخيام وقدمنا له القهوة وكانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل فسألناه ماذا تطلب منا فقال :

بلغنا ان معكم عرباناً من اصدقائنا فجئنا نسلم عليهم قلت :

ومن اعلمكم بذلك ؟ قال :

علمنا انكم كنتم بضيافة الشيخ محمد الملحم وانه رافقكم الى هنا وان بمعيته احد ابناء عمه .

قلت : نعم كنا في ضيافته وقد ابدى لنا من كرم الاخلاق ما لا يسعنا ان ننساه على انه لم يصحبنا الى هنا ولا ابن عمه ايضاً . وقد اخطأ من نقل اليكم خبر مجيئه الى هذه البقعة .

قال : أني اقرأ على جبينكم علائم التجار الكريم ، فبحقكم قولوا لي اذا كان الشيخ محمد الملحم عندكم

قلت لو كان الشيخ محمد معنا لما انكرنا عليكم امره · وما زال هذا الشيخ صديقاً لكم ماذا يمنعكم من التصريح بما تطلبونه منه ، ارى في المسألة سراً

قال : بما ان الشيخ غير مقيم بينكم لا حاجة الى البحث بامره

قال هذا وسار الى مربط الخيل فابصر الجواد الذي قدمه لنا الشيخ محمد · وعندها عاد فقال : انني لاعجب من قولكم ان الشيخ محمد الملحم ليس معكم وقد شاهدت بام عيني جواده مربوطاً بين جيادكم

قلت لقد قدم لي الشيخ محمد هذا الجواد فاصبح ملكي الخاص · وقد اوشك الفجر ان ينبثق فيمكنك اذ ذاك ان تتفقد الخيام وتتحقق ما اذا كان الشيخ معنا ام لا

ثم دعوته ليجلس الى جانبنا ففعل ، وكانت الرياح قد سكنت · فسألته · وماذا دعاكم الى معاناة المشاق في هذه الليلة الباردة ؟ لا بد ان في المسألة سراً فهل لك ان تطلعنا على ذلك ؟

قال : سأطلعكم على السر عند الصباح بشرط ان لا يكون الشيخ عندكم

وعندها انتقلنا الى التحدث عن احوال القبائل العربية المجاورة لتدمر وكنت اترجم لرفيقي ما دار بيننا من الكلام · وما زلنا نتحدث الى الساعة الخامسة وقد طلع النهار

فاقتاد رجالنا البدوي الى الخيام يتفقدها واحدة واحدة ثم عاد الينا وقال : انتم بالحقيقة اناس صادقون · لقد احسن الينا الشيخ محمد الملحم صنيعاً فجئنا نسلم عليه ونشكر لافضاله

ولربما ازعجناكم فاعذرونا · وارجوكم اذا قابلتم الشيخ فيما بعد ان تقولوا له اننا قصدنا ان نبدي له عواطف امتناننا لفضله ومعروفه قلت :

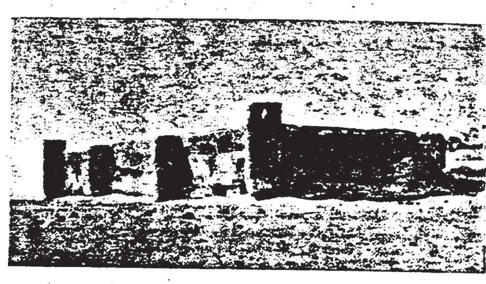
وهل لك ان تقول لنا من انت وما اسمك ؟ قال :

لست اعطيك اسمي ولكن الشيخ يعرف اصدقائه واعدائه حسبكم ما نظرتم

وفي غضون ذلك قبل فارس من رفقاء ذلك البدوي وهمس في اذنه كلاماً لم نطلع عليه ثم عاد ادراجه · اما البدوي فظل عندنا الى ساعة رحيلنا ، وعندها ودعنا وانصرف

٢ نيسان

كنا في حيرة من امر ذلك البدوي ولم يسعنا ان نجزم ما اذا كان يقصد السلام على



القلعة البيضاء

الشيخ محمد الملحم ام اذيته وتركنا الموضع عند الساعة السادسة صباحاً قاصدين الى «القلعة البيضاء» فانتهينا اليها عند الساعة العاشرة وجلسنا هنالك نأخذ قسطاً من الراحة

ودعيت البيضاء نسبة الى جدرانها المجللة باللون الابيض ٠ وهي نقطة عسكرية ومحطة للقوافل التي تتعاطى المبادلات التجارية مع القبائل العربية ومع دمشق وحمص وحماة وغيرها من مدائن الداخلية ، وفي القلعة البيضاء بئر ماء سهل لنا ان نسقي دوابنا وعند الساعة الحادية عشرة غادرنا القلعة البيضاء قاصدين الى تدمر فانتهينا اليها حوالي الساعة السادسة مساء ٠ ونصبنا الخيام بين الاثار على كتف ينبوعها المعدني وكان التعب والسهر في الليل الغابر قد اخذا منا كل مأخذ فتناولنا الطعام ٠ رقدنا رقاداً عميقاً

٣ نيسان —

نهضنا من نومنا حوالي الساعة السادسة صباحاً وقد استعدنا قوانا ونشاطنا ، ساعدنا على ذلك الهواء النقي والمناخ الجيد فذهبنا نتفقد الاثار ٠ بنايات المدينة وقبورها ومعابدها وحصونها وقلعتها فاذهلنا ما شاهدنا هنالك من الاثار الدالة على عظمة الاقدمين وعلى المال الكثير الذي انفقوه في سبيل تلك البنايات المدهشة

— نظرة في تاريخ تدمر —

هي مدينة قديمة العهد كانت من اعظم المدائن الشرقية ومن ارفعها شأناً واكثرها عمراناً واوسعها تجارة ٠ وموقعها في الصحراء بين الفرات والعاصي على مسافة تناهز المائة



قوس النصر في تدمر

ميلا من حمص شرقاً والمائة والخمسين من دمشق الشام شمالا

قيل ان بانيها سليمان الحكيم . وقد بلغت ذروة مجدها في زمن الرومانيين وخاصة في عهد الملكة زينب .

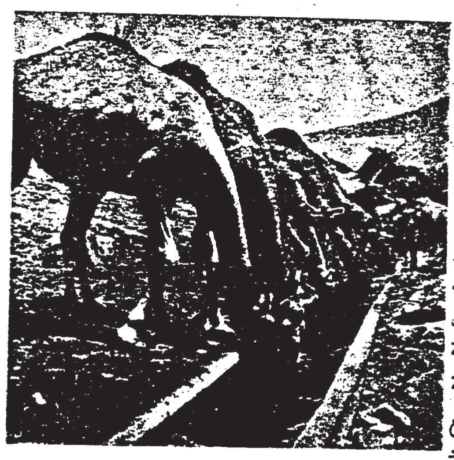
لم يبق من عظمة تدمر في ايامنا هذه سوى اثار هيكل واطلال قصور واعمدة وقناطر وبنايات فخمة تفوق الوصف . وهي قبلة السياح وعلماء الاثار والتاريخ

مدخلها حصين جداً وهو واقع بين جبلين طبيعيين ، تزيدها مناعة القلع والمعاقل القائمة فيها ضف الى ذلك السور الذي يحيط بالمدينة ولم يبق منه الى الان سوى قطع ضخمة دلالة على اهمية السور الاصلية

على الجبل العالي القائم في غربيها قلعة عظيمة تشرف على المدينة . وعلى ما فيها من جليل الاثار وجميل المناظر

اذا دنوت من احد قبورها وجدت النقش على حجارته يضاهي المرمر والرخام واندهلت من اشكال تلك الحجارة الوردية اللون وكانت الحجارة هذه باعثاً على تسمية المدينة بمدينة الورد .

لا نستطيع ان نشاهد من الهيكل الا قسمه الصغير لان المساكن قد قامت في قسمه الاكبر



جمال العربان تشرب من نبع تدمر

اما الماء الجاري من ينبوعها المعدني فهو حار وكثيراً ما يستجلب ليلا ليستعمل في اليوم التالي . وطعمه غير لذيذ انما الاستحمام فيه جزيل المنفعة

في عهد مجد تدمر وعظمة الملكة زينب كان الشعب يستقي من المياه التي جلبتها الملكة من عين الفيجه القريبة من دمشق ومن نبع اللبوة الواقع في بلاد بعلبك وقد جرت الملكة نفسها مياه هذين النبعين الى تدمر مصطنعة لمياه الفيجة واللبوة اقنية تجربة ما زالت اثارها ظاهرة الى يومنا هذا

وموقع تدمر الطبيعي جميل جداً فقد قامت هذه المدينة في وسط اراض فسيحة واسعة ذات تربة جيدة وافرة الكلاء والخضرة وكانت تلك الاراضي تعطي فيما مضى الغلال العظيمة الكافية لاعاشة المملكة برمتها

وكانت تدمر في غابر الايام احدى محطات القوافل العظيمة ، ومركزاً تجارياً للحرير ولكثير من غلال شرقي اسيا والهند التي كانت تستوردها بلاد الغرب

في سنة ٣٤ مسيحية هاجمها مرقص انطونيوس فرحل عنها سكانها بكنوزهم واموالهم المنقولة ولاذوا بحمى جيرانهم سكان الجزيرة مما يلي الفرات

وفي القرن الثالث بعد المسيح اصبحت تدمر جمهورية تحت حماية رومة وكانت اذ

ذاك وافرة الثروة

وا كبر ملوك تدمر هو اذينة ابن السميدع وقد نادى بنفسه ملكا وقدم للدولة الرومانية خدمات جلي في حربها ضد سابور ملك للفرس • ثم نادى بذاته امبراطوراً فلم يلبث ان لقي حتفه علي اثر تلك المناداة تاركا الملك لزوجته زينب التى اشتهرت بذكائها وحبها للحروب وبذوقها الجميل

وفي عهدها بلغت تدمر اعلى درجات المجد والرخاء فاتقنت فيها الزراعة وجلبت اليها الينابيع التي ذكرناها وحسنت ادارة الري ، وكان شعب تدمر لا يزال يتكلم اللغة الارامية كما تبين من الاثار الخطية التي وجدت فيها، اما الطبقة العالية من الشعب فكانت تجيد اللغتين اللاتينية واليونانية

وقد توفقت زينب الى توسيع مملكتها فبسطت سلطتها علَى سوريا وما بين النهرين وعلى شطر كبير من الاراضي المصرية

غير ان مطامعها كانت سبباً لسقوطها فزحف عليها الامبراطور الروماني اورليانوس قيصر ونكل بجيشها على مقربة من مدينة حمص وحاصر عاصمتها ففرت هاربة من امامه غير انها ما لبثت ان أُسرت وسيقت الى رومه وهناك طوفوها في الشوارع يوم احتفال الامبراطور بانتصاره عليها وكان ذلك سنة ٢٧٢ مسيحية ••• وعلى اثر ذلك اقامت الدولة الرومانية حاميتها في تدمر • غير انه لم يطل الامر حتى ثار الشعب على الرومانيين فامر الامبراطور اورليانوس قيصر بهدم تدمر وهكذا تلاشى مجد تلك المدينة وسقطت عظمتها • وفي عهد يوستينيانوس قيصر اعيد بناء الاسوار والهيكل وتحصنت المدينة فتمتعت بالرخاء وازدهرت وبقيت على هذه الحال حتى دخول الاسلام اليها

وفي سنة ٧٤٥مسيحية قاست تدمر الاهوال الشديدةوالتحقتبها الاضرار الجسيمة من جراء التنازع بين الامويين والعباسيين وقد ادى بهم تنازعهم الى حروب طاحنة طويلة العهد

وفي سنة ١٠٨٩ مسيحية هدم الزلزال اكثر بنايات تدمر ويظهر ان جماعة اليهود احتلوهافي القرن الثاني عشر فاصبحت حينئذ اثراً بعد عين

الفصل الثاني

من تدمر الى دير الزور بطريق الشولة الشامية

٤ الى ١١ نيسان ١٩١٤

صيد الطيور في ارك والخلاف على اجرة الارض — تحصيل ثمن الفصيل عنوة . التعدي علينا من رجال قبيلة مكسورة مقابلة الامير سلطان — حضور موقعة بين قبيلتين كبيرتين الخوف من قافلة كبيرة — مقابلة متصرف دير الزور — الاستعداد لعبور الجزيرة — التعرف على محمد شيوخ ومساعدته لنا

٤ نيسان

تركنا تدمر عند الساعة الثامنة صباحاً وكنا في « ارك » حوالي الساعة الاولى بعد منتصف النهار وارك هذه قرية صغيرة قليلة الخضرة والكلاء وفيها ينبوع ماء بارد لذيذ تحوم حوله طيور متنوعة بديعة المناظر والاشكال وقد تسنى لنا ان نصطاد منها قسماً فوجدنا لحمها طيباً شهياً . وكان الطقس يومئذ جميلا فبتنا ليلتنا هناك لا يزعجنا مزعج ولا يكدرنا مكدر

٥ نيسان

نهضنا باكراً نتأهب للسفر . واننا لكذلك اذ اقبل علينا رجل دلت ملابسه على انه



احد فلاحي تلك القرية · دنا منا وحيانا فرددنا عليه التحية ثم افتتح كلامه قائلا :

« انطونا » اي (اعطونا) اجرة الارض وثمن الكلا الذي اكلته دوابكم اجبته قائلا :

ان بيدنا اوامر حكومية تجيز لنا نصب خيامنا في اي موضع شئنا بدون ثما بدل على الاطلاق · وليس ما يمنعنا من تأدية ثمن الكلاء قل لنا كم يبلغ · قال :

اريد اجرة الارض قبل ثمن الكلاء فليس للحكومة من شأن في اراضينا لانها تاخذ اعشارها ·

قلت لا بأس فكم هو مطلوبك ؟

قال · لو انكم استأذنتموني قبل نصب الخيام وتسريح دوابكم في المرعى لتقاضيتكم مبلغاً يسيراً اما الان فاني اطالب بكمية كبيرة

الفلاح مالك الارض والقصيل في ارك

وحسبته يريد ان يتقاضانا مالا باهظاً فاذا به بعد الاخذ والرد وطول المجادلة يطلب ربع مجيدي قبضه وانصرف عنا شاكراً داعياً لنا بسفر ميمون

وما كاد ذلك لرجل يتوارى عن ابصارنا حتى جاءنا فارس على جواده الاحمر · وبعد التحية طلب منا بكل قحة ان نعطيه ثمن الطيور التي اصطدناها في تلك البقعة ولكننا ارجعناه على اعقابه خاسراً

سرنا وحملتنا ومن بعثت بهم الحكومة لحراستنا وما مر نصف ساعة على مسيرنا حتى التقينا بخمسة فرسان مدججين باسلحتهم وقد نزلوا عن ظهور جيادهم حين بصروا بالقافلة واخذوا الدابة التي كانت تتقدمنا (الباشنك) فاسرعت اليهم بجوادي وسألتهم ماذا يريدون · فقالوا : نريد ثمن الطيور التي قنصتموها عند النبع · فادركت اذ ذاك ان القوم لصوص نهابون فوجهت انظار الجنود حراسنا الى هـذا الامر · وكان اولئك الجنود شجعاناً بواسل فجردوا اللصوص من اسلحتهم وحجزوا على جيادهم واستاقوهم معنا



الاشقياء

فواصلنا السير الى ان انتهينا الى « السخنه » وكان ذلك عند الساعة الرابعة مساء فنصبنا خيامنا في ساحة واقعة عند مدخل تلك القرية حيث الينبوع التي تتدفق منه المياه الساخنة وكان الحر شديداً وقد انضمت اليه جحافل البرغش والحشرات والهوام فلم نذق طعم الرقاد في تلك الليلة المشئومة

٦ نيسان

نهضنا كعادتنا واهتممنا بمشترى ما يكفينا يومين وليلتين فقد كان لا بد لنا من الاستراحة في محطتين هما بير الجديد وكباكب وليس هنالك من زاد او من شيء آخر يسد حاجتنا

ثم توكلنا على الله ومشينا . وكنا علمنا ان الاخطار محدقة بنا في تلك المفاوز لان بعض القبائل كانت آنذاك في غزوة قوية . ولم يكن بوسعنا ان نؤجل سفرنا وكانت نقطتنا في السخنه عاطلة ولم نوفق الى ايجاد نقطة انسب منها في تلك البقعة

وما انتصف النهار حتى اشتدت وطأة الحر فاثرت على امزجتنا تاثيراً شديداً وكنا سير الهوينا حملنا على ذلك سير الدواب الى جانبنا . فاوعزنا الى رجالنا ان يتقدمونا

قليلاً ليفتشوا لنا عن مكان يأوينا من حرارة الشمس فعثرنا على صخرة كبيرة لجأنا الى ظلها وما هو غير القليل حتى مر بنا فرسان ثلاثة وكانوا من العربان وقد تقلدوا باسلحتهم فدنوا منا والقوا علينا سلامهم فرددنا التحية والسلام ودعوناهم للجلوس · ثم ابتدرنا احدهم وقال :

هل لقيتم في طريقكم اميراً عربياً يحيط به رجاله ؟ قلنا

لم نشاهد احداً منذ خرجنا من السخنة · ومن هو هذا الامير الذي تسألون عنه ؟

قال : هو الامير سلطان قلت ·

أأنتم من رجاله ام من خصومه ؟

قال : لا استطيع ان انبئك بشيء من هذا لان قوانين الغزو تحظر علينا هذا الامر

فقدمت لهم لفافة تبغ فتناولوها واشعلوها · وسألني احدهم قائلاً اين ذاهبون وما معنى سفركم في هذه المفاوز الخطرة ؟

قلت : لا اظن ان علينا خطراً · فقد سبق لنا ان وجدنا بين جماعة من العرب فاكرم اميرها وفادتنا واحسن ضيافتنا وغمرنا بجميله وكرم اخلاقه · ونحن الان في بلاد عربية ولغتي هي العربية فلست بحاجة الى ترجمان للتفاهم مع العرب · واني اعلم حق العلم ان العربي كريم الاخلاق بفطرته ابي النفس عزيزها ومتى كانت هذه شيمته فلا خوف منه ولا خطر

قال مبتسما : يظهر انك تعيش منذ الكثير بين القبائل لانك تعرف حق المعرفة كيف تسير في البادية وكيف يخاطبون العربان

ثم سألني قائلا : اتحملون فطيما ؟ « ويعنون بالفطيم السكر يطعمونه الاطفال »

قلت : نعم

قال : انطيني « يعني اعطني »

ومثله قال الثاني فالثالث

فاوعزت الى العشي ان يقدم لهم مطلوبهم من السكر ففعل

ثم سألني احدهم قائلا : وايش تصرفون وبايش تشترون « اشلشم » اكلكم ؟ وهل معكم مجيديات ؟

قلت : معنا اوراق مالية على المصارف نستخدمها في المدن التي نمر بها ونشتري ما

يلزمنا وننقــله معنا ولسنا نحمل مجيديات اذ لا فائدة منها فضلا عن انها ثقيلة الحمل ومزعجة غير اننا لا نخلو احياناً من كمية قليلة منها

قلت هذا وناولت كلا منهم مجيدياً واحداً وقد شعرت انهم كانوا من الانذال ــــ ومن ذوي الغايات السافلة

ثم التفت الي احدهم وقال :

هذا لا يكفي، انطينا شتير مجيديات (يعني اعطنا كتير مجيديات)

قلت : لا نحمل غير ما اعطيناكم

قال : هذا الكافر (يعني السائح) معهشتير

قلت : كلامك يا هذا يعني انكم تريدون ان تسلبونا



الاشقياء

اجاب : لازم مجيديات انطينا انطينا

وكان هؤلاء الثلاثة جالسين الى جانبنا في ظلال الصخرة وقد وضعوا بنادقهم على الارض فاوعزت الى رجالنا باعتقال الاشقياء

فلم يكن من رئيس المكارين المرافقين لنا واسمه خليل شاوول — الا انه هجم على البنادق واستولى عليها وناولها لرفيقه رشيد غندور ابي عاصي وكان الاثنان من الابطال الشجعان ولا يخشيان مهابة ملاك الموت

ثم التفت خليل شاوول الى اولئك العربان وخاطبهم بلهجة قاسية قائلا : حسبكم غلاظة تحولوا من هنا والا لومكم على انفسكم

وعندها سأل احدهم ما اذا كان عندنا زاد فاوعزت الى احد الخدم ان يعطيهم شيئاً ليأكلوا اعتقاداً انهم يأكلون ثم يعودون من حيث اتوا • على ان احدهم عاد فالح علي بطلب المجيديات • فقال له خليل شاوول • اذهب يا هــذا وفتش عن مرتزق في مكان ابعد من هنا • فهجم البدوي على خليل شاوول يريد صفعه • ولكن خليلا لم يكن

جباناً فانقض على البدوي وجندله . وقام البدوي يطلب بندقيته فلم يحظ بها وللحال تكاتف رجالنا وقبضوا على اولئك الاسافل واشبعوهم ضرباً ولطماً ثم جردوهم من كل وسائل الدفاع واستعادوا منهم المجيديات واوثقوهم بالحال



خيام القبائل في الشولة الشامية

فلما رأى اولئك العربان انهم مغلوبون على امرهم طلبوا منا ان نعفو عنهم وان نطلق سبيلهم مظهرين الندم على ما فعلوا . ولكننا لم نأمن شرهم فلم يسعنا ان نخلي سبيلهم وقد اصطحبناهم معنا في طريقنا

وما اجتزنا بعض المسافة حتى اخذ احدهم يتوسل الي قائلا . بحقك ياراجل ارحمنا واتركنا لاننا سنمر بسلطان ولا شك انه سيقطع رؤوسنا اذا ما وقعت عينه علينا

قلت : يستحيل علينا ان نطلق سراحكم ، وسنسلمكم الى اول امير عربي نلتقي به في مسيرنا

قال : بحق المروءة ارحمونا واتركونا والا فنحن لا محالة هالكون لان سلطان سيقطع رؤوسنا

قلت : ولماذا يقتلكم سلطان ؟

قال : لانه غزا قبيلتنا وكسرها ، وقد فررنا من وجهه

قلت : لومكم على انفسكم ، فاذا التقينا بسلطان في طريقنا سلمناكم اليه والا سلمناكم الى رجال الدرك في بئر الجديد

ولا يسعنا ان نعاملكم معاملة غير هذه لاننا اكرمناكم واطعمناكم فظننتم اننا نخشى بأسكم فرفعتم علينا عقبكم فستنالون جزاءكم

ومر علىَّ مسيرنا نحو من ساعتين فانتهينا الى مفازة فسيحة تحيط بها الجبال من جهاتها الاربع نصبت فيها الخيام الكثيرة الاهلة بالقبائل العربية

وما طال بنا الامر حتى كنا امام كوكبة من الفرسان



الامير سلطان ورجاله

يتقدمهم شاب في مقتبل العمر جميل الطلعة شريف الملامح تدل ملابسه على انه رئيس تلك الكوكبة

فابتدرته بالتحية والسلام ، فرد التحية باشاً ثم قال :

من القوم ؟

قلنا : سياح

قال : الى اين ذاهبون ؟

قلنا : اننا قاصدون الي قبائل العرب للاطلاع على عاداتها ودرس اخلاقها فلطالما سمعنا ان العرب مفطورون على الشهامة وعزة النفس و كرم الاخلاق وسائر المحاسن

قال : قابلتم احداً قبل اليوم من امراء العرب ؟

قلنا : لقد كنا في ضيافة امير قبيلة الحسنى الشيخ محمد الملحم وقد غمرنا بجميله واهدى الي هذا الجواد الذي اركبه

قال : وهل قابلتم غيره من العرب ؟ .

قلنا : اننا التقينا بهؤلاء الثلاثة الذين يسيرون موثقين وراء رجالنا

فلما بصر بهم سألني قائلا :

ما الذي حملكم على معاملتهم هكذا ؟



حول بير الجديد

فاخبرته بكل ما كان من امرهم فدنا منهم وخاطب احدهم قائلا :

انت بطل الرواية يا محمود يا شلب العرب « يا كلب العرب» لقد فررت من امام وجهي لكي تعيث في الارض فساداً وتقطع الطرق وتسلب المارة وتصم العربي بالعار والذل والخساسة والله لاذيقنك ورفقاءك الامرين يا مشلبه « يا مكلبة »

قال هذا والتفت الي سائلا :

اتريد ان تسلم هؤلاء الى سلطان بن ربيعة كي يجازيهم على قبحهم ؟

قلت : افعل بهم ما تشاء بشرط ان تقينا شرهم

قال : لا تخف سلمهم الينا

فاوعزت اذ ذاك الى رجالنا بتسليم اولئك العربان الى ذلك الشاب · ففعلوا وطلب الشاب جيادهم فاستلمها ثم طلب اسلحتهم فرجوته ان يبقيها لنا لاننا نحتاج اليها في سفرنا وسألت عن ثمنها لادفعه · فقال (ما يخالف) ابق لك الاسلحة ولسنا نريد منك ثمناً

فشكرنا لعمله وودعناه فواصلنا السير الى ان انتهينا الى بئر الجديد وكان قد مر على سفرنا ما يناهز عشر ساعات · دخلنا القلعة وهناك نصبنا سرادقنا وخيام رجالنا

— بئر الجديد —

قلعة ونقطة عسكرية لها بئر ماء يقيم فيها جاويش وستة من رجال الدرك · وهي

ذات باب واحد قوي متين يقفلونه ليلاً • وفيها اربعة مدافع صغيرة نقالة يظن ان الدولة العثمانية ابقتها هنالك بعد موقعتها مع العرب

نصبنا الخيام في فناء القلعة وكان الدركيون يجاملوننا ويعاملوننا بالحسنى • ولكن ما اكثر العقارب والحشرات والبعوض في ذلك المكان ولا سيما في ابان ذلك الحر الشديد فلم يغمض لاحدنا جفن ليلتنا كلها

ونحو الساعة الاولى بعد منتصف الليل احسست ان الدركيين كانوا مضطربين قلقي البال وكنت اشاهدهم يطلعون على السطوح ثم ينزلون مكررين عملهم هذا مرتين في الساعة فعند الساعة الثالثة ذهبت الى الجاويش وسألته عن الاسباب التي تدعوهم الى تلك الحركة في ذلك الليل • فاجابني لقد بلغنا ان قبيلتين سوف تلتحمان التحاماً وخيم المغبة على الفريقين فان نيران العداء والبغضاء والضغينة تتأجج في صدور جميعهم منذ عهد طويل ورجال القبيلتين اشداء البأس متصلبون برأيهم لا يحكم بينهم سوى السيف والقوة • وما ازفت الساعة الرابعة صباحاً حتى دوى البارود في تلك النواحي فصعدنا مع الدركيين على السطوح نستطلع الخبر • وما هو غير القليل حتى رأينا على مسافة قريبة عدداً كبيراً من الفرسان وكلهم من جماعة العربان وكانوا ينشدون الاناشيد الحماسية • ثم ما لبثنا ان شاهدنا فرساناً آخرين قادمين من الجهة المعاكسة • وحوالي الساعة السادسة تبادل الفريقان اطلاق البنادق ثم ترجل جميعهم والتحموا واعملوا بالرقاب سيوفهم ورماحهم وعند الساعة الثامنة صباحاً اوقف القوم عراكهم

الغزو في بير الجديد

٧٠ نيسان



البدويات يسألن عن القتلى والجرحى

نزلنا عن السطوح واوعزنا الى رجالنا ان يعدوا العدة للرحيل · غير ان رفيقي السائح احب ان يزور ساحة القتال قبل سفرنا فسألت الجاويش ما اذا كان من ضرر من زيارتنا هذه · فاجابني : لا ضرر بكم ولا ويل عليكم من زيارتكم . اذا شئتم فاني أصحبكم الى هنالك · قال هذا ودعا اربعة من رجاله وسرنا جميعاً الى ساحة القتال وكنا تركنا رجال حماتنا يعدون عدتهم للسفر حالما نعود من زيارتنا

ووقعت اعيننا على كثيرين من القتلى والجرحى · وكان رجال كل قبيلة يجمعون جرحاهم لنقلهم الى مضاربهم وفهمنا حينذاك انهم لا يدفنون الموتى وهي عادة العرب منذ نشأتهم

فسألت احدهم ما اذا كان يوجد هناك زعيم من زعماء تينك القبيلتين المتحاربتين فاجابني قائلاً : ان هنا الامير ربيعة بن حسان وهو لا يدع الساحة قبل ان يجمع الجرحى من قبيلته ويبعث بهم الى مضاربها حيث يضمدون جراحاتهم ويعالجونهم · فقلنا وهل يتسنى لنا ان نقابله ؟ قال · نعم واشار لنا الى محل اقامته فذهبنا اليه فاستقبلنا بكل بشاشة · ولما استقر بنا المقام سألت الامير عن اسباب هذه المعركة

قال : ان اسبابها عديدة واهمها الضغائن الموروثة عن ابائنا واجدادنا وتتجدد هذه الضغائن كلما تقابلنا وتقاتلنا وكثيراً ما نتقابل في هذه البقعة

قلت وما يحملكم على القتال في هذه البقعة ؟

قال : تحوجنا الضرورة الى ذلك اذ اننا في مثل هذه الايام نتأهب لارتياد الارضي

الكثيرة الكلاء نمر بهذه البقعة . وفي بعض الاعوام يتفق ان تتقدمنا هذه القبيلة او تتأخر عنا فلا نتحارب . على انه اذا اتفق مرورنا في آن واحد حدث الحادث الذي شاهدتم .

قلت : ولماذا لا تغيرون موعد مروركم او تجتازون طريقاً آخر ؟

قال : لا يغير احدنا الطريق او موعد المرور لئلا ينسب اليه الجبن والخوف

قلت : ومن فاز في هذه المعركة ؟

قال : لم يفز احدنا على الاخر فان الامير زيداً بن طحان دخل بين الفريقين واوقف القتال عارضاً علينا المصالحة وبعد يومين نعقد عنده اجتماعاً ربما كان منه مصلحة القبيلتين

قلت : وهل وقفتم على عدد القتلى ؟

قال : كلا لكني لا احسبه يتجاوز المائة من الفريقين

قلت : وهل تجمعون الادوات بعد نهاية المعركة ؟

قال : نجمع منها ما هو ضروري لنا كالاسلحة وخرطوشها فان ذلك عزيز نادر في البادية . اما بقية الادوات كالسروج والملابس فان عائلات القتلى تجمعها وليس من يعارضها في هذا الامر

قلت : واي الفريقين اشد في القتال ؟

قال : لم يبق في هذه الايام من سبيل الى الفروسية والقوة البدنية فالفائز والاقوى والاشد من احسن الرماية فان صعلوك تعود الرماية يقتل بطلاً لا يحسن ادارة بندقيته . وكانت السيوف والرماح تميز فيما عبر بين الشجاع والجبان وبين القوي والضعيف . واننا نرى ان قتالنا في هذه الاونة مضر بمصلحة الجميع ولذا نتحاشى كثيراً العراك ولا نخوضه الا مجبرين

وودعنا الامير وعدنا الى القلعة فوجدنا كل شيء معداً للسفر فتوكلنا على الله وقمنا نقطع الفيافي والاراضي الجافة اليابسة وكان ذلك عند الساعة العاشرة صباحاً . وما زلنا في مسيرنا الى ان انتهينا الى كباكب وكانت الساعة السادسة مساء فنصبنا الخيام في فناء القلعة .



ينقلون الجرحى

– كباكب –

هي قلعة شبيهة ببئر الجديد ونقطة عسكرية يقيم فيها جاويش وثمانية دركيين وفيها بئر نتن الرائحة لا يصلح للشرب وعلى مسافة قريبة من القلعة ماء عذب يستقي منه الانسان والحيوان . وقد قيل لنا ان هناك ايضاً حفرة صغيرة لجمع زيت الحجري (كاز) فارسلنا من املالنا زجاجة لنجرب ذلك السائل وبالحقيقة كان زيتاً حجرياً لكنه وسخ جداً نصف كميته تقريباً من المواد الغريبة

وبعد ان تعشينا جاءنا الجاويش المكلف بحراسة القلعة ونصحنا بالسفر ليلا لان القبائل العربية الهمجية كانت في تلك الاونة منتشرة في تلك الفيافي بين كباكب ودير الزور وقد افادنا انها من القبائل الرديئة السافلة النهاية ، فسألته :

ما الفرق بين سفرنا ليلا او نهاراً ؟

فاجابني : ان اولئك العربان لا يتعمدون عن مضاربهم في الليالي ، فشكرنا لهصنيعه وصممنا على الرحيل بعد انتصاف الليل . ثم رقدنا باكراً كي نصحو باكراً ونكون على اهبة السفر .

٨ نيسان

وعند الساعة الاولى بعد منتصف الليل غادرنا كبا كب عملا بمشورة الجاويش فداهمنا الطريق حوالى الساعة السابعة صباحاً ورأينا على مسافة قريبة قافلة حسبناها قادمة الينا فخشينا العاقبة واستعددنا لمجابهة القوم بالشجاعة والبطولة واوعزنا الى رجالنا ان يكونوا متأهبين للقتال اذا دعت الحال الى ذلك

وما زلنا سائرين حتى اشتبكنا باولئك القادمين وكانوا يقودون عدداً عظيما من الجمال ، فلم نر منهم ما يدل على العداء والتعدي ، فسألناهم من هم ؟ فقالوا : تجار سمن من اهالي دير الزور

وكانوا ينقلون السمن الى حلب على ظهور تلك الجمال

قلت : الا تخشون تعديات العربان المقيمين في هذه الاراضي ؟ فقد علمنا انهم ينهبون المارة ويسلبونهم اموالهم واشياءهم . اجابوا : صحيح ما سمعتموه عنهم ولكنهم يعاملون بالحسنى جميع اهالي دير الزور لانهم يبيعون كل غلالهم عندنا ويبتاعون من بلدنا سائر حاجاتهم ونحن وهم على احسن وئام . ومرت تلك القافلة فعدنا نواصل مسيرنا وقد اشتدت وطأة الحر فنهكت قوانا وكنا بحاجة الى الراحة لاننا لم نذق لذة النوم في الليل السابق . غير اننا اجهدنا النفس وتابعنا المسير الى ان انتهينا الى دير الزور وكان ذلك حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر . فنصبنا الخيام علَى ضفة الفرات في ظلال الصفصاف على مقربة من شارع السراي وتناولنا الطعام ثم ارتمينا علَى اسرتنا وقد اخذ منا التعب والنعاس كل مأخذ

— دير الزور —

كانت دير الزور في تلك الاونة متصرفية مربوطة رأساً بالاستانة فلم تكن تابعة لاحدي الولايات . وكانت محطة للعربان يبيعون صوفهم وسمنهم وغنمهم في اسواقها ويستلفون من تجارها المال على الحاصلات

٩ نيسان

استيقظت ورفيقي السائح حوالي الساعة الثالثة صباحاً فجلسنا بثياب النوم على ضفة



الفرات تمتع الانظار بمياهه وتناولنا القهوة هنالك وكان الطقس جميلاً والهواء منعشاً وكنا نفكر في امر مصيرنا في الجزيرة وكنا قد ازمعنا السفر اليها فاخذنا نضرب اخماساً باسداس معلقين رجاءنا على الخالق عز وجل

خيمة المطبخ في دير الزور

وطلع ذلك النهار فتناولنا طعام الصباح وارتدينا ملابسنا وذهبنا عند الساعة الثامنة الى السراي نريد مقابلة المتصرف وكان شاباً في مقتبل العمر فرحب بنا كثيراً واستقبلنا بكل بشاشة . وعندما اثبتنا له اننا نبغي السفر الى الجزيرة ورجونا منه ان يقدم لنا المساعدة اللازمة وكنت اعتقد اننا نكتفي بعشرين فارساً مسلحاً فطلبت اليه هذا العدد فابتسم وقال : اذا كنتم ترومون اجتياز الجزيرة فيلزمكم على الاقل خمسمائة فارس باسلحتهم الكاملة ولا سبيل الى امدادكم بهذا العدد . واني انصح لكم بالعدول عن هذه السفرة فانها محفوفة بالاخطار

قلت : سنذهب الى الجزيرة وليس ما يثبط عزيمتنا

قال بعثت الدولة بخمسماية فارس يجمعون الاعشار فسطا عليهم العربان وقتلوا منهم وجرحوا ففر البقية ناجين بانفسهم

ووصلوا الينا مذعورين يقصون علينا ما كان من امرهم في تلك الجزيرة فنقلت الخبر الى اولياء الامر في الاستانة . وتجهز الدولة الان حملة قوية لتطويع اولئك القوم ومجازاة الذين ثاروا على الفرسان وفتكوا بهم

قلت : ولكن ذلك لا يمنعنا من القيام برحلتنا

قال : انك لفي خطأ ياصاح وحرام عليك ان تخاطر بحياتك وحياة الذين سيرافقونك على انه اذا كان لا بد من سفركم الى الجزيرة فاني اطلب منكم قبل ذلك ان توقعوا وثيقة مآلها انكم مسافرون على مسؤوليتكم الخاصة .

قلت : اكتب ما تشاء فيوقعها رفيقي بخطه

عندها نادى احد كتابه وامره بانشاء الوثيقة فكتبها الكاتب باللغة الافرنسية واخذتها الى رفيقي ليوقعها فوقعها بعد ان دار بيني وبينه جدال طويل بشأن الاخطار المزمعين عليها في تلك الجزيرة وهذه ترجمة تلك الوثيقة :

انا الموقع ادناه باسيليوس كورباه من التابعية الروسية اصرح بانني مسافر الى الجزيرة على عهدتي الخاصة وقد اقدمت على هذا السفر على الرغم من نصائح متصرف دير الزور الذي انبأني بكثرة الاخطار المحدقة بي في تلك الجزيرة واشعاراً بالواقع كتبت بيدي هذه الوثيقة في اليوم التاسع من شهر نيسان من سنة ١٩١٤

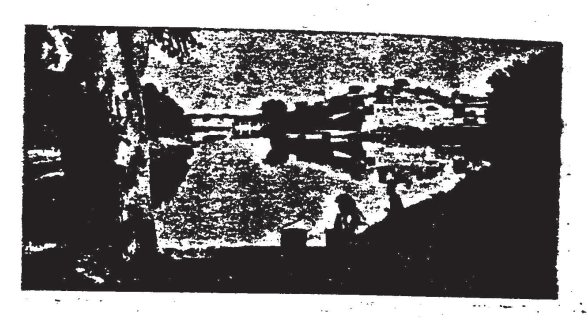
الامضاء : باسيليوس كورباه

ثم طلبت من المتصرف ان يتكرم علينا بدركيين يرشدانا الى الطرقات فوعدني انه يسعى لاجابة مطلبي وقال لي ان اعود اليه في صباح اليوم التالي . ودعت المتصرف وعدت الى مركز خيامنا لاشرع باعداد عدتنا للسفر الى الجزيرة فوجدت قومنا نائحين باكين وكانوا قد فهموا اننا مزمعون التوغل في الجزيرة مهما كلفنا الامر فوضعوا نصب اعينهم الموت وحسبوا انهم لا محالة هالكون ، فاخذت اشجعهم واهدىء روعهم بشتى الطرق ، على انني لا انكر اننا كنا انا ورفيقي السائح خائفين خوف رجالنا نظراً لشدة الاخطار والاهوال التي كنا مزمعين ان نتعرض لها

١٠ نيسان

عدت باكراً الى المتصرف لاعرف ما اذا كان اعد لنا الدركيين فقال لي انه لم يتوفق الا الى دركي واحد وكان ذاك الدركي واقفاً على مدخل السراي وناداه المتصرف وكان اسمه احمد الغزاوي . فسألته ما اذا كان يريد الذهاب بمعيتنا فاجاب بالايجاب ثم سألته ما اذا كان يسعه ان يستصحب رفيقاً ثانياً فقال :

ان لي صديقاً عزيزاً ساقنعه بمرافقتي قلت على كل حال نحن ننتظرك في خيامنا هذا المساء



دير الزور

لاننا عزمنا على السفر في صباح الغد • وودعت المتصرف شاكراً بعد ان سلمته الوثيقة وكان لا يزال يلح علي بالعدول عن رحلتنا هذه

عدت الى الخيام وباشرت اعداد العدة للسفر مجتزئاً بما نحتاج اليه شد الحاجة تاركا جانباً كل ما كان بوسعنا ان نستغني عنه واضعاً جميع ذلك في صناديق سلمتها الى تاجر من دير الزور وقد طلبت اليه ان يرسلها الى عميله في حلب نستلمها منه بوصولنا اليها • واذ كنت بعد ظهر ذلك اليوم افكر في امر مسيرنا وقد اسودت السماء في وجهي اذا برجل جليل يدخل علي وكانت ملامحه تدل على انه شيخ احدى القبائل العربية فرحبت به ودعوته للجلوس فجلس وقال : انا محمد شيوخ شيخ قبيلة شمر ، وقد بلغني انكم ذاهبون الى الموصل سالكين طريق الجزيرة قلت : نعم ، وكيف عرفت ذلك ؟

قال : خبزكم قد شاع في كل المدينة

قلت : وما رأي الشيخ في هذه الرحلة

قال : رأيي ان تعدلوا عنها لان في الجزيرة اهوالا تفوق الوصف وقبائل رديئة للغاية تلحق الاذى باي من وقع بين ايديها

قلت : وهل لكم ان تساعدونا للنجاة من شر تلك القبائل ؟

قال : اذا خلصتكم من ايدي العربان كيف تنجون من ايدي اليزيدية ؟

فان جمال باشا والي الموصل اضطر ان يدفع (الخوة) مالاً وافراً لقاء مروره في ارض اولئك الجماعة وهو يمثل الدولة في تلك البلاد ، وهم خاضعون لسيطرته • وحين اجتاز تلك الاراضي كان يقوم بحراسته مائتا فارس من اشجع الناس وابسلهم واشدهم بأساً • ووادي سنجار واد مخيف يقطنه عبدة الشياطين اليزيدية

قلت : كلما قيل لنا ان سفرنا محفوف بالاخطار تشتد رغبتنا في السفر ولذة اجتياز الجزيرة في اخطارها وغايتنا ان نرى بام العين ما هو جار في تلك البقاع فلقد سمعنا عنها اشياء كثيرة ومتنوعة ولربما لم تكن كلها حقيقية

قال : يظهر لي انك شجاع وانك تحمل الغير على الشجاعة فدعوت هذا السائح الى تفقد الجزيرة مبعداً عن مخيلته كل ما يشتم منه رائحة خوف

قلت : لست باشجع من هذا السائح فهو الذي يتوق الى هذه الرحلة لانه لا يبالي بالموت فهو يعتقد ان المرء مائت عاجلاً او آجلاً

قال : وهل انتم مسافرون غداً ؟

قلت : نعم باذن الله • واراد الشيخ ان يودعنا وينصرف فالححت عليه ليتناول العشاء معنا فقبل دعوتنا وقد استفدنا منه في السهرة اشياء مهمة تتعلق باحوال الجزيرة • وشاء ان يساعدنا فبعث معنا بعلامة الى شيخ قبيلة الجبور وهي القبيلة الكبيرة الاولى التي كنا مزمعين على المرور بها بعد اجتيازنا نهر الخابور (الذي هو فرع من الفرات)

ثم سألته اين هي قبيلتكم ؟

قال : حوالي الموصل في ارض الجزيرة

قلت : وهل نلتقي في الطريق ؟

قال : لا يسعني ان افيدك لان امرنا منوط بالحل والترحال فاذا كانت القبيلة لا تزال هنالك التقينا والا فاجتماعنا في الموصل • اما العلامة التي كانت بمثابة توصية بنا والتي بعث بها الى شيخ قبيلة الجبور فهي مع ملاحظة انه يجب علينا عند وصولنا الى حدود القبيلة ان نتوقف ونرسل فارساً رافعاً علماً ابيض (علامة الصداقة) الى قبيلة الجبور ويقابل الشيخ حمود شيخ القبيلة ويقول له هذه العبارة : ان محمد شيوخ عرب شمر لا يستطيع المرور هناك في اثناء رجوعه لانه مسافر بطريق البديع وابوحامضه وهو يقول ان الاسعار لا توافق الان : انتظروا شهراً آخر • وكان الشيخ حمود قد كلف الشيخ محمد شيوخ

يستفهم له عن اسعار السمن والصوف في اثناء مروره

حوالي الساعة الحادية عشرة مساء طلعنا خارج الخيمة فوجدنا جمع غفير من اهالي دير الزور حول الخيام يتفرسون في الحملة ويتعجبون من رحلتنا في الجزيرة ثم ودعنا الشيخ وانصرف ·

الفصل الثالث

في الجزيرة بين دجلة والفرات بطريق جبل سنجار

١١ — ٢٥ نيسان ١٩١٤

اختيار الطريق الوعرة — اللصوص في مرقده — عبور نهر الخابور — الجراد في الجزيرة — ثلاثة ايام عند عرب الجبور — الغزو على عرب الجبور — السبي والعرس في عرب الجبور — امير اليزيدية والخوة — وردية — عين الغزال والجيش العثماني فيها عرب الجعافرة — التعدي علينا من قاطعي الطرق المضيق المخيف — استقبال محمد شيوخ — الاقامة ثلاثة ايام عند عرب شمر — الوصول الى الموصل

١١ نيسان

تحركنا حوالي الساعة الثامنة صباحاً يتقدمنا الدركي الدليل فقرعت الاجراس والقلادات ورفعت الاعلام فوق الاحمال وكان دوي الاجراس مسموعاً على مسافة بعيدة وكان جميع اهالي دير الزور على منافذ مساكنهم وابوابهم وامام المخازن ينظرون الينا ٠ اما ترتيب الحملة فكان التالي :

دركي دليل الطريق ثم بغل (الباشنك) وعليه العلم الرومي تتبعه جميع البغال

الحملة ورجالها والخدم واخيراً السائح وانا بعده ودركي معي • وكانت الحملة مؤلفة من ستة خيام كبار اثنان للنوم وواحدة للطعام وواحدة للمطبخ وواحدة للغداء وواحدة العمال • اما الخيام الصغيرة فاثنتان واحدة حمام وواحدة للهندام ويتبع الخيام الكبيرة اسرتها وناموسياتها وطاولاتها وكراسيها ومراياها وسجادها • وخيمة السفره مع جميع ادوات الاكل من فضة وصيني الخ • خيمة المطبخ مع عدة المطبخ كاملة وفرن للخبز ووجاق للنار وغيره مما يلزم المطابخ الضرورية • الامتعة الخارجية هي فانارات للنور وعصي لتعليق الفنارات كرامي طويلة من القماش الخ •

ونقلت امتعة الحملة على ١٩ بغلا وخمسة حمير واربع رؤوس خيل للركوب والحصان المتقدم من الشيخ محمد الملحم

رجال الحملة : السائح : كاتب هذه الرحلة ، العشي ، السفرجي ، وشيخ المكاريه ومكاريته وعددهم ستة ، وسياس اثنين ، رجال الدرك اثنان فيكون مجموع رجال الحملة خمسة عشر رجلا يقصدون اجتياز الجزيرة منذ اليوم والمرور بالقبائل ، وقلة عددنا وضعف تسلحنا برهان على اننا متوكلون على الله وعلى قوة العقل لا على القوة البدنية • وبينما نحن سائرون في شارع دير الزور كنت اسمع باذني مثل هذه الكلمات بفوه بها كثير الناس نساء ورجالا : (الله يساعد اهلهم الله يخلصهم) • وما زلنا سائرين برباطة جاش حتى انتهينا الى جسر الفرات الذي نعبره الى الجزيرة • وهناك دفعنا الرسم المفروض من الحكومة ، اعني بشلك عن كل جواد ، نصف بشلك عن كل بغل ، اربعة متليكات عن كل حمار ومتليكين عن كل رجل • والرسم هذا مفروض على مرور الجسر ليس الا

عبرنا ذلك الجسر فبلغنا ارض الجزيرة وواصلنا السير الى الساعة الخامسة مساء في اراض خضراء زراعية آهلة بالعربان سكان بيوت الشعر • وكان اولئك العربان في الحضر يخضعون للدولة ويستقرون في املاكهم لا يرحلون عنها ولا ينقلون • وما زلنا سائرين الى ان ادى بنا المسير الى نهر الخابور فنصبنا الخيام على ضفته في وسط باحة فسيحة تمتد الى جانب قلعة رومانية كبيرة وقد قام في جدار تلك القلعة حانوت صغير فيه بعض ما تحتاج اليه العربان المجاورون • والمحل الذي نزلنا فيه يعرف « بالسور » وهو مركز مديرية ونقطة عسكرية

اما صاحب الخانوت فبادر الى ذبح عجل صغير لما احس باننا مقيمون في تلك البقعة فاشترينا حاجتنا من اللحم لعشائنا في تلك الليلة . وكان الطقس جميلا والهواء بليلا وقد ازداد طراوة بامتزاجه بماء الخابور . وكان مدير الناحية قد علم بنزولنا هناك فجاءنا يصرف السهرة معنا وكان شاباً تركياً يجيد اللغة العربية فحدثناه طويلاً طالبين منه بعض الافادات عن احوال الطرق فاستدعى لنا بدوياً حضرياً وقفاً على اسرار الجزيرة باسرها فسألت البدوي عن طريق الموصل وعن احوال القبائل العربية التي تقيم في الجزيرة فقال من هنا الى الموصل طريقان : طريق شرقي على ضفة الخابور الشرقية وطريق غربي على ضفته الغربية والطريق الغربي مطروق وهو صالح لسير المركبات التي تمر بمحلين هما البديع وابو حامضه . وقلما مر اسبوع خال من تعد على المسافرين ولكن المعتدين يكتفون بسلب المارة اشياءهم وامتعتهم ويندر جداً ان يتعدوا على الارواح . والاعراب قليلون على تلك الضفة

اما الطريق الشرقي فلا يصلح لسير المركبات وهو وعر جداً ومن يسلكه يخاطر في حياته . ومن شدادي الى الموصل كل المصاعب والاهوال : فمن تعديات عرب الجبور الى تعديات عرب الجعافرة فشمر فعنزه وكل واحدة من هذه القبائل اسوء خلقاً من الاخرى والشر كل الشر من جماعة اليزيديين المقيمين حالياً في وادي سنجار فانهم قوم كفرة يعبدون الشيطان لا رحمة في قلوبهم ولا شفقة ولا ذمة ولا وجدان ولا شرف يغدرون ويسلبون ويفتكون بالارواح ويقترفون كل منكر . بناء عليه انصح لكم الا تسلكوا الطريق الشرقي

ترجمت لرفيقي كل ما قاله ذلك البدوي فاجابني : وما الفائدة من رحلتنا اذا كنا لا نرى داخلية الجزيرة وما فيها من همجية وتوحش وعيشة طبيعية خالية من التصنع

١٢ نيسان

نهضنا من رقادنا باكراً فاوعزت لرجالنا ان يتأهبوا للرحيل ودخلت القلعة مع رفيقي السائح فوجدناها قد تهدمت فامست لا تستحق الذكر وقيل لنا آنذاك ان الالمانيين مزمعون على مباشرة الحفر فيها وفي الآثار الموجودة على ضفاف الخابور . وتركنا السور الساعة الثامنة صباحاً وسرنا على الشاطيء الغربي نحواً من خمس ساعات ، وكان مسيرنا

بين مضـارب العرب الحضر بين وهم من الفلاحين المهتمين بحراثة الاراضي على الرغم من جهلهم لاحوال الزراعة واصولها

وكنا الساعة الواحدة بعد الظهر في نقطة تعرف « بالمرقده » حيث نصبنـا الخيام على شاطىء الخابور · فالتف حولنا الاهالي يلاطفوننا ويطلبون منا ان نبتاع شيئاً من حاصلاتهم فاشترينا حاجتنا

«مرقده » اسم بلا مسمى فيها بيوت من شعر لجماعة العربان المقيمين فيها وليس لهؤلاء القوم سوى علف الدواب والحليب واللحم · وحين كنا في «البسور» حذرونا من اهالي « مرقده » قائلين لنا انهم يغتنمون الفرص السانحة لسرقة الاغراب



بيوت العربان المستحضرة في مرقده

فاحتطنا للامر في تلك الليلة واقمنا من رجالنا حراساً يتناوبون الوظيفة · وفي اول الليل كان الطقس جميلا والجو صافياً والقمر منيراً ، على انه ما ازفت الساعة العـاشرة حتى تلبدت السماء بالغيوم ثم امطرتنا مدراراً فاضطررنا الى سهر الليل خشية من السرقة

وحوالي الساعة الثانية صباحاً خرجت من خيمتي تنقد حالة الحراس فابصرت على الباب شبحاً ولشدة الظلام لم يسعني ان اعرف ما اذا كان شبح احد رجالنا ام شبحاً غريباً · فناديته بصوت عالـ قائلا من انت ؟ فسمع احد حراسنا صوتي واسرع الي حاملا مصباحاً · واذا بنا امام بدوي طويل القامة بيده الواحدة رسن دابـة وبالاخرى سكين صغير ·

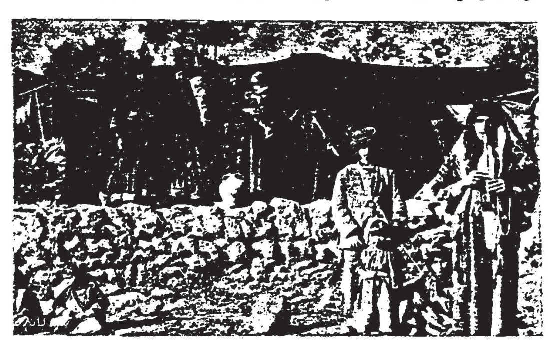
قلت له : ارم السكين من يدك · فرماها واوعزت الى الحارس ان يصفر ففعـل وما هي الا هنيهة حتى كان جميع رجالنا حول ذلك البـدوي فاشرت اليهم ان يفتشوه ففعلوا ولم يجدوا معه سوى جراب صغير ضمنه كمية جزئية من التبغ الناعم · فاوثقنـاه

وادخلناه الخيمة · وطلبت الى الحراس ان يظلوا على حذر خشية ان يكون وراء البدوي رفاق · وبعد استنطاقه عرفنا منه ان معه ثلاث رفاق وغلام كانوا قد تفرقوا حول حملتنا ليراقبوا الحراس ويتمكنوا من سرقة بغل او جواد وقد استحضر رسناً يجمله برأس الجواد وسكيناً يقطع به رسنه

وهنا اخذ البدوي يستعطف ويرجوني اكي احل وثاقه مبيناً انه لم يقدم على السرقة الا بدافع الحاجة وانه لولا ظلم الحكومة التي تعلمهم بعسفها وجورها على السرقة لما اقدم عليها

٣ : نيسان

حوالي الساعة السادسة صباحاً شرعنا نعد عدتنا للسفر وكان الطقس لا يزال رديئاً · وعند الساعة الثامنة غادرنا محلنا بعد ما اطلقنا مراح البدوي · وما زلنا سائرين تارة تحت المطر وطوراً في الصحو الى ان بلغنا « شدادي » و « شدادي » نقطة عسكرية ومركز مديرية تابعة لمتصرفية « دير الزور » وكان فيها يومذاك مدير تركي



بيوت المتحضرين في شدادي

وفي « شدادي » آثار قلعة رومانية وحولها حوانيت صغيرة فيها بعض العاديات الرومانية واكثرها نقود يعثرون عليها في الخرائب · وكان الطقس قد مال الى التحسن فنصبنا الخيام على مقربة من مركز المدير وبتنا ليلتنا متحفظين للطوارىء

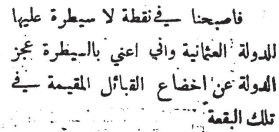
١٤ نيسان

تركنا « شدادي » واجتزنا نهر الخابور الى الضفة الشرقية . ويعبرون النهر من ضفة الى ضفة على زورق صغير الحجم لا يسع اكثر من حصان او بغل فصرفنا في عبوره ما يربي على ثلاث ساعات

ونهر الخابور مخطر لانه ضيق وعميق جداً وتياره قوي وشديد لانه منحدر ومحصور ضمن ضفتين قريبتين الواحدة من الاخرى فالحكمة قضت ان نعبره كما يعبره الغير تلافياً للحوادث .

وما زلنا سائرين حتى انتهينا الى « فوزية » وكانت الساعة الواحدة بعد الظهر

فاصبحنا في نقطة لا سيطرة عليها



الدولة العثمانية واني اعني بالسيطرة عجز الدولة عن اخضاع القبائل المقيمة في تلك البقعة

وقيل لنا ان الجراد ينتاب هاتيك الاصقاع منذ ثلاثين سنة فاكثر ولا يهتم العربان بمكافحته على الاطلاق



فوزية المخيفة

الذباب الازرق : هذا النوع من الذباب يعيش بالمحلات التي تطول فيها اقامة الجراد فاستعدينا له فلبسنا قفازات ونظارات وعملنا كل الطرق حتى ما عاد يمكن الذباب الازرق ان يلمس محلاً من اجسامنا لان الذباب الازرق مخيف اذا لسع قتل وكنت ترى رؤوس الدواب التي لسعها الذباب تنضخم بنوع هائل من الورم وتحمر عيناها فتصبح كالسكارى . وعن لنا ان نغير طريقنا تملصاً من الجراد والذباب الازرق وكان هذان الصنفان يملآن الجو في تلك الوادي ، فسلكنا طريقاً جديداً كنا نجهل اوله وآخره . وانا لكذلك اذ

شاهدنا على قمة جبل خياماً عديدة تحولنا بسيرنا اليها · وما كدنا ندنو من تلك الخيام حتى ادركنا ان هنالك قبيلة كبيرة وما كنا نتوقع لمرور بقبيلة كهذه قبل وصولنا الى عرب الجبور

وحين انتهينا الى حدود تلك القبيلة توقفنا عن متابعة السير وارسلنا دركياً حاملا عصا في اعلاه منديل كبير (علم) ابيض اللون وقد كتبنا له العلامة التي اعطانيها محمد شيوخ ومع هذه العلامة بعثت بعباءة حريريـة هدية لشيخ القبيلة (الخوة) · ومرت ساعة على انتظارنا وما سيكون من امر رسولنا مع الشيخ واذا بالرسول عائد الينـا مع ابن الشيخ يواكبهما خمسون فارساً بعث بهم لاستقبالنا ومرافقتنا الى مضارب قبيلته ·

ولدى وصولهم الينا دنا مني ابن الشيخ — وكان شاباً في مقتبل العمر — وقال :

يامرحبا بالضيوف يامرحبا بالكرام لقد امرني والدي باستقبالكم ومرافقتكم الى منزله · فعندها قدمت الشاب للسائح مترجماً له مقاله فشكره ووالده على عطفهما هذا

واطمأنت ضمائرنا بعد شديـد اضطرابها وسرنا وابن الشيخ وفرسانه الى ان انتهينا الى مضارب القبيلة ولم يتجاوز سيرنا نصف الساعة حتى ادخلونا سرادق الضيوف « بيت الاستقبال » حيث ننتظرنا هنيهة · ثم اقبل علينا

الامير الصغير علي

الشيخ حمود سلطان امير القبيلة وبش لنا وهش وحيانا مرحبا بنا آمراً لنا بالجلوس فبالقهوة فدقت اجران البن على عادة اولئك العربان بانغامها اللذيذة ثم قدمت لنا القهوة ثلاثاً . وما استقر بنا المقام حتى رجوت من الامير ان يعد لنا مكاناً لحلتنا فامر رجاله بالعمل وما هو غير القليل حتى كانت خيامنا منصوبة ثم سألت الامير قائلا :

ومن اين لكم بالماء الكافي لقبيلتكم ومواشيكم ؟

فقال : ان لنا ماء غزيراً على مقربة منا وسأذهب بكم الى محله . واخذنا قسطنا من



الوصول الى قبيلة الجبور

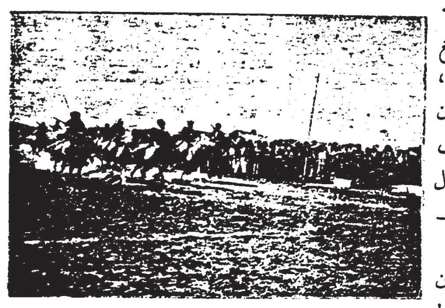
الراحة بعد ان شربنا القهوة فنهض بنا الامير وسرنا جميعاً الى مكان الماء وكان على مسافة قريبة من مضربه . فاذا بنا امام صخر طويل عريض حفره الاقدمون وجعلوا منه بحيرة تجتمع فيها مياه الامطار في كل عام

وعدنا الى القبيلة فاعلمنا الامير بحفلة زواج احد فرسانه ذلك المساء ودعانا الى حضورها فقبلنا الدعوة شاكرين . وفي الاجل المضروب لتلك الحفلة ذهبنا بمعية الامير الى باحة فسيحة كانت في وسط المضارب وقد نصبوا هنالك خيمة صغيرة معدة لاقامة العروس

قبل الزفاف • ثم ما لبثنا ان عرفنا ان احد فرسان الجبور سبا ابنة من احدى القبائل المجاورة • وهو العريس وهي العروس • وما طال الامر حتى جاء شيخ الدين وكتب كتاب الزوجين • ثم اخرجوهما الى الساحة حيث كانوا اعدوا عدة الالعاب الرياضية التي يقوم بها العربان في الحفلات الزواجية بعد ان وضعوا العروسين في خيمة نظموها كما يلي :

اوقفوا اربعة من الرماح ولفوا من حول هذه الرماح بلاس اسود من شعر الماعز فاصبحت بقياس نحو ثلاثة امتار مربعة • وانجزوا في بادىء الامر سباقاً مصحوباً بلعب الرمح والسيف وعقب ذلك غناء النساء والبنات (العماريات) ثم جاء دور لعب الجريد فاطلاق الرصاص

وبعد انتهاء ما تقدم رأينا الامير يضع في الساحة ثلاث قطع خشبية مختلفة الحجم ثم افرز قطعة منها ونادى قومه قائلا : من استطاع ان يقطع هذه الخشبة بضربة سيفه كافأته بخمس نعجات • وكان طول الخشبة يبلغ نحواً من اربعة امتار ، فتقدم عشرة من العربان لاجراء العمل فتساوى ستة منهم بالاجادة وفشل اربعة • وعندها قال الامير للستة الفائزين : اجمعوا معاً قطعتين من الخشبة واربطوها بخيط من الشعر ثم حكموا فيها



العرس والالعاب في قبيلة الجبور

سيوفكم - ففعلوا • غير ان واحداً منهم تمكن من قطعها بضربة واحدة فأخذ النعجات الخمس ومضى • ثم جاء الامير بخشبة ثانية وكانت جائزتها اربعة خرفان ونادى قومه قائلا : هاتوا سيوفكم وحكموها في هذه الخشبة ، فتقدم ستة من العربان وانجزوا العمل فلم يفز منهم غير اثنين، وعندها امر الامير بجمع قطعتين من تلك الخشبة داعياً ذينك

الرابحين الى العمل فتساويا بالاجادة ونال كل منهما خروفين ٠ثم جاء الامير بالخشبة الثالثة وكانت جائزتها جملاً صغيراً (حلال صغير) ودعا قومه كما مر فلم يتقدم منهم سوى فارسين حكما فيها سيوفهما وقطعاها بضربة واحدة ٠ ثم فعل الامير فعله بالخشبتين السابقتين ففاز واحد منهما بالجائزة

وانتهت الالعاب الرياضية فدعانا الامير لتناول العشاء في مضربه فسرنا في خدمته وما كدنا ندخل الخيمة حتى وقع نظرنا على رسول يحمل كتاباً الى الامير فقرأه ثم كتب الجواب وصرف الرسول ٠ وسألت الامير ما مضمون ذلك الكتاب فقال :

ان قبيلة تطلب محاربتنا غداً صباحاً في وادي العدس ٠

قلت : وما سبب ذلك ؟



قال : الابنة التي احتفلنا الان بزفافها وقدسباها الفارس الذي اقترن بها

قلت : أليس السبي مألوفاً عند العرب ؟

قال : بلى ولكن يحق للقبيلة المعتدى عليها ان تنتقم اذاشاءت ويظهر ان القبيلة التي تطلب الحرب غير راضية عن عمل فارسنا ٠ لان الابنة التي سباها كانت مزمعة ان تتزوج فارساً من مشاهير فرسان قبيلتهاومن اهمهم واقربهم من الامير

قلت : وما كان جوابكم ؟

قال : اننا مستعدون للموقعة في وادي العدس صباح غد ان شاء الله ٠ وتناولنا عشاءنا على مائدة الشيخ حمود وكان صورة طبق الاصل للطعام الذي تناولناه على مائدة الشيخ محمد الملحم انما الطاولة وطريقة

الجلوس تختلف حيث جمعوا خرجة الجمال بعلو تسعين سنتيمتراً تقريباً ونظموها بشكل طاولة ووضعوا حولها سجادة من الجنس الجيد جميلة النقش فاصبحت الطاولة كانها سجادة مدورة وضعت عليها صدور الاكل ، وكان حول الطاولة مقعد مدور على هيئة الطاولة مفروش من سجاد ووضعت الواحدة منها فوق الثانية حتى بلغ المقعد العلو المطلوب كانك جالس على كرسي الى طاولة ولا طاولة ولا كرسي . وقد لاطفنا الامير كل الملاطفة وما كدنا ننتهي من الاكل حتى ناول عبد الامير كتاباً جاء فيه ما يلي :

علمنا من رسولنا ان عندكم اليوم ضيوفاً واكراماً لهؤلاء الضيوف اجلنا الحرب الى ما بعد سفرهم لاننا رأينا العيب والعار ان نهاجمكم وانتم منهمكون باكرام ضيوفكم ، ثم نعتبر ان هؤلاء الضيوف هم ضيوف الجزيرة فهم ضيوفنا كما هم ضيوفكم

وكانت الكتابة هذه واردة اليه من امير القبيلة التي كانت تطلبه للنزال في صباح اليوم التالي فاجاب الامير على الكتابة شاكراً :

وعندها سالت الامير ما اذا كانت الموقعة على طريقنا وما اذا كان يلحقنا منها الاذى .

فاجابني قائلا ، ستكون الموقعة على طريقكم وتكون حينئذ حالة القبيلة حالة فوضى فلا يسع اميرها منع الاعتداآت والردع عن النهب والسلب والتنظيم فيحتمل ان اولئك العربان يلتقونكم في طريقكم ويحصل ما لا تحمد عقباه لان بين العرب اسافل

وارذال نظير غيرهم من الامم والشعوب • الافضل ان تسلكوا طريق الوعر والجبال ولا اضن عليكم بدليل من قبيلتنا يرافقكم حتى الطريق السلطاني وهو على مسافة اربع ساعات من وادي العدس • وهناك تصبحون بمأمن من كل خطر

قلنا : شكراً لكم يا مولاي وامتناناً على عطفكم وحسن التفاتكم فيمكن اذاً ان نسافر غداً

قال : لا اسمح لكم بمغادرتنا غداً فانكم ستبقون في ضيافتنا يوماً آخر واذا شئتم السفر بعد غد فلا بأس بذلك

واراد الامير ان يتفقد احوال القبيلة فدعانا الى مرافقته • وجدنا منازل الشيخ قائمة خارجاً عن منازل القبيلة وعددها عشرة ولكل منزل منها بابان احدهما شرقي والثاني غربي وهي تمتد بالصف الاول من مضارب القبيلة وتنتهي في آخر صف منها • اما صفوف مضارب القبيلة ممتدة من الشمال الى القبلة ، فاذا شئت ان تخرج من القبيلة في اي صف كان تجد بيتاً من بيوت الشيخ بوجهك ، تلك هي وضعية القبيلة ، موقعها على القمة وتشرف على الوادي والى ورائها من الجهة الشرقية يقوم جبل وعر المسالك

جاء بنا الامير في بادىء الامر الى مضرب من مضارب اغنياء القبيلة دخلنا فرحب بنا صاحبه واجلسنا على مقعد من السجاد وما هو غير القليل حتى اقبلت ربة المنزل والجواهر والحلى على معصميها وفي اذنيها وحول عنقها وفي شعرها ، فابتدرت قائلة للامير امرك مولاي ؟ اجابها الامير : لا شيء انما نحن مارون من هنا كي نري ضيوفنا بيوتكم التفت الى الشيخ سائلاً وماذا تعني الامرأة بكلامها وزوجها واقف بجانبها ؟

قال : العادة عندنا انه لما يدخل امير القبيلة بيتاً من بيوتها يصبح رب البيت تابعاً لا متبوعاً ويطلب الامير ما يشاء لان العرب يعتبرون اميرهم رب سائر البيوت • وقد ارادت الامرأة ان تستفهم مني ما اذا كنا نرغب ان نشرب القهوة ام ان نتناول عندها شيئاً آخر (كالشنينة او حليب النوق) وكان ذلك المضرب مظلماً لا نور فيه فسألت الامير قائلاً الا تستخدمون المصابيح في منازلكم ؟

قال : لا تستخدم القبائل المصابيح والانوار فهي تصرف الليالي في الظلام او على ضو القمر • على ان الامراء والمشايخ يستخدمون الانوار عند استقبال ضيوفهم

سألت كيف يعيش بيت كهذا ؟

قال : هذا بيت غني له ثروته من حلال، غنم وخيل . وهنا سألت رب البيت قائلا كم عندك من الجمال والنوق ؟

قال : اربعون جملاً وخمسون ناقة ، وقد انتجت النوق في هذا العام اربعة واربعين ذكوراً واناثاً .

قلت : وهل من تفاوت في النوق والجمال ام كلها متساوية !

قال : النوق والجمال مثل الخيل ، منها ما هو اصله كريم ومنها ما هو عادي

قلت : ما فائدة الناقة الكريمة الاصل ؟



بيوت الماشية في عرب الجبور

قال : يباع نتاجها بثمن اغلى من عادية الاصل فتكون ثمرتها والحالة هذه اكثر . غير انه لا يسعنا ان نتوصل دائماً الى النوق الكريمة الاصل فنضطر الى ابتياعها من مختلف الاجناس .

قلت : وكم عندك من الخيل ؟

قال : عندي انثى واحدة وجوادان منها وكلها من الرسن المنتقي المعروف بجودته

قلت : وكم عندك من الغنم ؟

قال : عندي الف نعجة حلوب وضعت كلها في هذا العام وموسم السمن في هذه السنة مقبل خيراً عندي ، اما الكبوش فاننا نبيعها ولا نحتفظ منها بسوى اجودها وهو ما يصلح للنزو ، بناء عليه لا يوجد عندي سوى مائة كبش

قلت : وما هي غلة النعجة على وجه التقريب ؟

قال : لا اعلم . فاننا سائرون على بركة الله ، لا كيل لنا ولا ميزان ، وعندها قال الامير : تتراوح غلة النعجة في العام بين الخمسين والستين من الغروش التركية الذهبية . واني اعني الغلة بالسمن والصوف . وهنا عدت فسألت الشيخ ما هو مأكول هذه الطبقة ؟

قال : يأكلون اللبن ويشربون الشنينة (اي ما تبقى من اللبن بعد خضه ورفع السمن منه) ويأكلون الارز والبرغل واللحوم من وقت الى آخر ولكن اكلهم اليومي اللبن والسمن والخبز ، هذا مأكول الطبقة الغنية اما الطبقات الاخرى فتختلف كثيراً

وجاء بنا الامير الى بيت قتل صاحبه تاركاً ارملة وفتاتين وكان من البيوت المتوسطة الحال . وما كدنا ندخل حتى انتصبت بدوية في عقدها الرابع ورحبت بنا كل الترحيب .

فقلت لها : لا شك انك في ضنك من العيش لانه لا رجل لك يعينك على متاعب الحياة . قالت : ان البدوية التي تفقد زوجها وقد اعدمها الله من الذكور تمسي حزينة منغصة العيش وتضطر ان تهتم بذاتها لامر معيشتها ومعيشة بناتها

قلت : أليس لزوجك من اخوة يهتمون بامرك ؟

قالت : اميرنا هو ابونا واخونا وعضدنا ومقيلنا من كل عثرة . وما زال الامير بخير فنحن بخير .

قلت : وهل لك من الماشية ما يقوم باودك واود ابنتيك ؟

قالت : عندنا من النوق والجمال عدد لا يستهان به عشرون ناقة وخمسة جمال وعندنا ثلثمائة نعجة حلوب وخمسون كبشاً للغزو .

قلت : وهل عندكن خيل ؟

قالت : كلا من يركب الخيل عندنا ؟

وكانت ملابس المرأة وابنتيها من الخريز الناعم الثمين وكانت الحلى والجواهر تزين معاصمهن وآذانهن واعناقهن وشعرهن وكانت تبدو عليهن علائم النعمة والعيش البذخ . وقبل مغادرتنا الخيمة رغبت



البدوية تحمل ابنتها اليتيمة

في الاستعلام عن مقتل البدوي زوج تلك المرأة فقيل لي انه قتل دفاعاً عن شرف ابنته الكبرى فقد كان سباها مرغمة احد رجال قبيلة مجاورة فلحق به والدها وخلصها فكمن له الرجل وقتله على مقربة من المضارب

ثم ذهب بنا الامير الى بيت من بيوت فقراء القبيلة فاستقبلنا رجل في العقد الخامس واجلسنا على مقعد من الشعر وكان للرجل امرأة واولاد اربعة : فافهمني الامير ان الجماعة هذه من افقر القبيلة

سألت البدوي : هل عندكم شيء من الحلال ؟

قال : عندنا من كرم الباري عشر نوق وجملان

قلت : وهل عندكم شيء من الغنم ؟

قال : عندنا خمسون نعجة وعشرة خرفان

قلت : وهل يقوم ذلك باودكم ؟

قال : نعم وما زال اميرنا بخير فنحن بخير . واذ كنا سائرين دارت بيني وبين الشيخ المحاورة الآتية :

قلت كيف تتألف القبيلة ؟

قال : تتألف القبيلة عندنا من اقسام اربعة :

١ العائلة والعبيد

٢ حرس العاريات

٣ الجيش المسؤول عن حماية القبيلة جمعاء (الفرسان)

٤ الرعاة وهم المكلفون برعاية الحلال (المواشي)

قلت : وهل يريد سيدي الشيخ ان يتكرم علينا بزيادة الايضاح ؟

قال : القسم الاول يعني العائلة والعبيد . فالعائلة هي البيت الذي يخول حق السيادة على القبيلة وللعائلة نظام خاص تسير بموجبه . ومن دأب هذا النظام ان يخولها حقوقاً يعترف بها الجميع . وتؤخذ نفقاتها من واردات القبيلة وتجبى مع سائر الضرائب اما حصص افرادها فتوزع عليهم بنسبة درجات قرابتهم من الشخص المسؤول وهو شيخ القبيلة او اميرها . فحصة اولاد عمي فوق حصة ابناء خالي وحصة اولادي فوق حصة ابناء عمي

قلت : وهل لابناء خالك حصة ، وهل تعتبرونهم من العائلة بمجرد انتسابهم اليكم او ماذا ؟ قال : ان ابناء خالي من العائلة لان والدتي من عصبنا ومن دمنا ومن عائلتنا . على انها لو كانت غريبة لما حق لاخيها وابنائه شيء عندنا اذ ان المال خاص بالعائلة دون سواها .

قلت : وهل لسيدي الشيخ ان يفهمنا عن مقدار ما يتقاضاه كل من افراد العائله ؟

قال يسعني ان اوقفكم على القاعدة التي نتخذها اساساً للتعديل في جمع المال وتوزيعه على الافراد . وهي القاعدة المعمول بها عند سائر القبائل وقد بنيت على اساس ثابت


من فرسان الجبور

مقرر لا يقبل التغيير والتحوير في بادىء الامر كانت كل قبيلة تقدر بمائة بيت وكان المال يوزع على هذه البيوت بنسبة الواردات فان ازدادت البيوت ازدادت معها الواردات وكبرت الحصص بالنسبة اليها واذا نقصت البيوت نقصت معها الواردات بالنسبة الى ذلك النقص .

قلت : لم افهم قولكم فاذا شئتم تفضلوا بزيادة الايضاح

قال : من العادة ان يكون لكل بيت عشرة جمال على الاقل وعشرون نعجة حلوب فيتمكن بذلك من العيش في البادية ويفرض على كل بدوي من اصحاب البيوت ان يدفع للادارة مبلغاً معيناً عن كل جمل ومثله عن كل نعجة وتعرف هذه الضريبة بضريبة الحماية ، وخلا ما تقدم فان على كل بدوي صاحب بيت فرضاً على الغلال وعلى نتاج الحيوانات وعلى واردات الصوف والسمن وما شاكل ذلك فعلى هذا التعديل يدفع البدوي ثلاثين بالمائة من وارداته . ثم يدفع عن كل فرد مبلغ معين بدلا من حماية الارواح وتعديل هذا كله ثلاثون بالمائة من الدخل . وبعد ما تقدم لا عهدة اصلا على البدوي المذكور قلت . ما معنى هذه العهدة ؟

قال معناها اننا نحن المسؤولون عن حمايته وحماية عرضه وحلاله بسيوفنا ورماحنا وفرساننا وقوتنا المادية والمعنوية . فيعود الينا البدوي في اموره كلها

قلت: فليتكرم علي سيدي الشيخ بشرح حال العبيد

قال : ان اهمية العبيد في القبيلة قدر اهمية العائلة . والعبيد الذين رأيتموهم هم ابناء العبيد الذين خدموا ابائنا واجدادنا . وسيخدم ابناؤهم ابنائنا

قلت : وهل لهؤلاء العبيد من حقوق محفوظة ؟

قال : على سيد كل قبيلة ان يصون العبيد وعائلاتهم محافظاً على كيانهم كل المحافظة ٠ واذا اتفق ان عبداً خان سيده وتآمر على قتله جاء الامير خليفة سالفه وقتل العبد وقضى على ذريته عن بكرة ابيها ٠ وقد كان التوفيق اليفنا وحليفنا فيما يتعلق بالعبيد فقد كانوا ابداً ودائماً مخلصين ٠ ويعيش نساؤهم مع حرمنا كما ان رجالهم يعيشون بين رجالنا ٠ نحبهم حباً عظيماً وليس في القبيلة من له منزلتهم من الدالة على العائلة فهم مختلطون بنا ليل نهار وهم الكل في الكل

قلت : وهل للعبد من معاش ؟

قال : كلا ٠ وليس للعبد ان يملك حلالا انما ملك مولاه ملكه على انه اذا رام سيد العبد ان يطرده من خدمته حق لذاك شيء كما هو معروف في انظمة القبائل ٠

قلت : وهل للقبائل بهذا المعنى انظمة مكتوبة تتمشى بموجبها ؟

قال : ليس للقبائل انظمة مكتوبة



بيوت العبيد في قبيلة الجبور

ولكن المتقدمين سناً مطلعون عليها فنستشيرهم بامرها

قلت : وهل تفرض هذه الانظمة معاشاً للعبد اذا طرده سيده من خدمته ؟

قال : لا بد حينئذ من فرض معاش للعبد يختلف باختلاف افراد عائلته حتى يتمكن من الحياة ٠ وكثيراً ما يفضون المشكل هذا بالحسنى فيأخذ العبد عدداً من الحلال متخلياً عن كل معاش في المستقبل هذا اذا كان العبد قد طرد من الخدمة بدون ما ذنب جدير بالذكر ٠ اما اذا كان طرده مولاه لجريمة اقترفها فلا يحق له شيء ولا

يعطى شيئاً .

قلت : واي ذنب يستوجب طرد العبد وعائلته مجرداً من كل تعويض يكفل معاشه وهو لا يملك شيئاً ؟

قال الخيانة . ولكنها تتنوع . اذ ليست على اطلاقها مما يستوجب اعدام العبد وابادة ذريته .

قلت : والى من يعود جواد العبد ؟

قال : الى سيده اذ ان العبد فرد من العائلة يعيش في مطبخها ويرتدي من ملابسها ويدخن من تبغها . وليس سوى المقام ما يفرق بين الامير وعبده

قلت : وما هي طريقة معيشة العبيد والجواري الفردية بالعائلية

قال : افهمتك سابقاً انهم يعيشون مع العائلة بلا قيد ولا شرط

قلت : احب ان اعرف طريقة زواجهم وتربية اولادهم ومعيشتهم العائلية حال كونهم مقيدون بالخدمة ؟

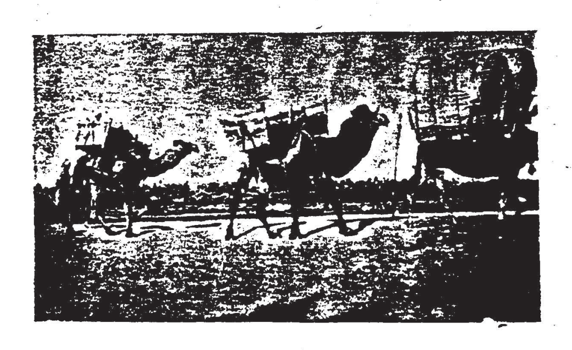
قال : ان العبيد على ثلاثة اقسام ، فالقسم الاول مخصص لحراسة كبير العائلة او امير القبيلة ، والثاني مخصص بخدمة المنزل ، والثالث لسياسة الخيل الخصوصية .

كذلك الجواري على ثلاثة اقسام . الاول لخدمة الحرم الخدمة الخصوصية ولمرافقتهن في الحل والترحال . الثاني لاعداد طعام العائلة وما يختص بانواع الاكل . الثالث لغسل ملابس العائلة وتنظيفها وترتيبها . واعلم ان لكل عبد ساعات معينة في اليوم يصرفها في منزله الخاص .

قلت : وهل للعبيد منازل خاصة بهم ؟

قال : افدتك ان العبد لا يملك شيئا لنفسه . غير انه متى اصبح العبد رب عائلة تقدم له منزلا لايوائه ونوثثه له الاثاث اللازم فيجتمع فيه الى امرأته واولاده حين فراغه من الخدمة . قلت : واذا ولدت الجارية ؟

قال : متى حملت الجارية نوقفها عن الخدمة الى ان تلد ويكبر ولدها ويصبح في وسعها ان تتركه بدون ما انزعاج . وفي تلك الاثناء تأكل وتشرب كعادتها وهي في بيتها لا يكرهها احد على المجيء الينا .



الهوادج او ركايب العماريات في القبائل

قلت : وقد يحبلن معاً فمن يخدم العائلة اذ ذاك ضحك وقال ٠ زواجهم منوط بنا والذي يتزوج منهم قليل فاننا لا نريد ان نجعل قبيلة من عبيد وجوار فيلزمهم اذ ذاك نفقات كثيرة ٠ في القبيلة كلها الان يوجد اثنتان متزوجات وما بقي من الجواري كبرن فلا يصلحن للزواج ٠ وكذلك الرجال ، والحالة هذه لا يوجد عندنا الاجارية واحدة معطلة عن الشغل ٠

وشعرت بانني ربما ازعجت الامير بكثرة الاسئلة فلزمت الصمت هنيهة ٠ غير انه عاد فقال : لا تظنن انك ازعجتني ٠ كلا فسل ما تشاء ٠

قلت : وهل كل ما في القبيلة من حلال ملك العائلة ؟

قال : كلا ٠ بل لكل بيت حلاله وللعائلة حلالها الخاص ٠

قلت : وكيف يملك البدوي حلاله؟

قال : ان اهل البادية باجمعهم يملكون في الاصل حلالا ٠ ومتى غزت قبيلة غيرها وتغلبت عليها تقسمت الغنيمة نسبيا بين الغزاة ٠

قلت : اذا شاء سيدي فليزدني ايضاحا بشأن تقسيم الغنائم ٠

قال : تقسم الغنيمة هكذا :

يخصص منها خمسون بالمائة للادارة وتوزع الخمسون الاخرى بنسبة الدرجات

قلت : ما معنى هذه الدرجات ؟

قال ٠ سبقت فقلت لك ان القبيلة اقسام ٠ فعلى هذه الاقسام توزع الغنيمة ٠٠٠ يأخذ حرس العماريات ثلاثة وعشرين من الخمسين التي تفضل عن الادارة ويأخذ الفرسان سبعة عشر والرعاة عشرة ٠ ويتفق احيانا ان يخصص امير القبيلة شيئا ببعض الرؤساء وذلك تابع لظروف الزمان والمكان فليس هذا شيء محدود ٠

وحرس العماريات اقوى وافضل فرسان القبيلة ٠ فقد مرت عليهم غزوات وحروب عديدة فهم والحالة هذه اشد فرسان القبيلة بأسا ٠ ولا يخفى عليك ان حماية العرض اهم شيء في نظرنا لا سيما وقد تفشت تلك العادة القبيحة الذميمة عادة السبي قلت ٠ ارجو من سيدي ان يزيدني شرحا عن حرس العماريات وغيرهم من القبيلة ٠

قال ٠ ان لهؤلاء الابطال دائرة خصوصية ولهم رئيسهم او مديرهم ٠ وهو يراقب حالة المجاورين متبعا لظروف الزمان والمكان ٠ وهو المسؤول عن حماية العرض بمعاونة ابطاله ٠ ومن هؤلاء الابطال نختار قواد الفرق التي نسميها الفرسان ٠ والفرسان او الجيش المسؤول عن حماية القبيلة منظمون فرقا ولكل فرقة رئيسها او مديرها ولهم جيادهم وسلاحهم على حساب ادارة القبيلة ٠

اما قسم الرعاة فهم الذين يخدمون الماشية مهتمين بنتاجها وسائر ما يتعلق بها من جز صوفها واعداد سمنها وما شاكل ٠



فارس جبوري وعائلته

قلت: وكيف يكون هذا البدوي فارساً واخرراعيا واخرمحترفاً حرفةاخرى اذلك عائد الى مجرد ارادتكم ام ماذا ؟

قال: لا ارادة لي بهذا الامر ، انما هي ارادة البدوي مجردة من كل ضغط وقسر . والبدوي راع في الاصل غير ان يسعه ان يتقدم باجتهاده وشجاعته . والعدل عندنا موجود .

عندمايبلغ البدوي الرابعة عشرة من عمره يذهب الى الرمايةامابرفقتي او برفقة من اعينه ويقضي كل يوم ثلاث ساعات يتمرن فيها على الرماية ويدوم التمرين هذا تسعة اشهر وهي المدة التي نصرفها مقيمين في المحلات . وتصرف الاشهر الباقية في الحل والترحال وهي زمن العطلة والفراغ . فاذا انقضت الاشهر التسعة واصبح البدوي يحسن الرماية فيصيب الهدف ثمانين مرة من كل مائة رمية جعلناه فارسا والا يبقى راعياً . ثم متى بلغ سن العشرين يعاد تمرينه على الرماية شهرا واحداً . فاذا نجح ترقى الى رتبة فارس . والا بقي راعياً . وفي الخامسة والعشرين يمرن ثالثة شهرا واحدا وهو اخر تمرين فاذا نجح صار فارساً والا فانه يصرف حياته راعيا .

قلت : وهل هو نظامكم منذ الاصل ام كان لكم نظام قبله ؟

قال : كانوا قديما يمرنون البدوي على ضرب السيف فيفرضون عليه ان يقطع بجده وبضربة واحدة اشياء اعدوها لهذه الغاية ثم جاءت الرماية فحلت محل ضرب السيف .

قلت : وكيف يترقى الفارس الى درجة حرس الحريم ؟

قال : نختار الفرسان الذين ابلوا في المواقع وتغلبوا على الخصوم وكانوا من العاملين

في سبيل صالح القبيلة ونرقيهم الى الدرجة التي اشرت اليها اذ على الحارس ان يبرهن على مقدرته التامة من سائر الوجوه وان يكون بالتالي « خوش راجل » اعني رجلا بكل معنى الكلمة ٠

قلت : وما هي واجبات البدوي للعائلة سيدة القبيلة ؟

قال : على كل بدوي يلجأ الينا أن يدفع مبلغا معينا في السنة ونعتبر هذا المبلغ فريضة على الحماية ٠ وتختلف هذه الفريضة باختلاف السنين ٠

قلت : وماذا يدفع في هذه السنة ؟

قال : ريالا مجيدياً ومثله امرأته و كل من ابنائه ٠

قلت : وهل يلتزم بدفع الفريضة عن ابنائه وهم اطفال ؟

قال : نعم يلتزم بذلك منذ ولادتهم ٠

قلت : وماذا يدفع البدوي خلا ما ذكر ؟

قال : يدفع كما افدتم سابقاً ثلاثين بالمئة من غلة الصوف والسمن والجلد ونتاج الحلال ٠ جبايتنا على العدد اعني كذا عن زق السمن وكذا عن حمل الصوف الخ فيقدر المبلغ الذي يدفعه البدوي ثلاثين بالمائة من وارداته السنوية ٠

قلت : الا ترون ذلك باهظا ؟

قال : كلا ٠ اذ لو كان البدوي يشتري من جيبه الخاص جواده وخرطوشه وبندقيته ليتعلم الرماية لفاقت النفقة الفريضة المذكورة ٠ فهو لا يدفع شيئا ما تقدم ٠ والنفقات هذه برمتها ندفعها من مال (الصر) الخزينة ٠

قلت : وكيف يمكنكم احصاء هذه الغلات ؟

قال : ذلك امر هين ٠ تجمع الادارة الغلال المراد بيعها ثم تعقد اتفاقاً مع التجار الذين يقدمون على مشتراها ٠ وتباع الغلال صفقة واحدة وتقبض الادارة المال وتدفع لكل بيت ما يصيبه منه بعد حسمها حصتها ٠

قلت : وما هي اهم المواسم التي تعتمدون عليها ؟

قال : السمن والصوف ، يجيء بعدهما الجلد والفائض من نتاج الحيوانات ٠

قلت : وكيف تديرون هذه الاعمال ؟ هل تستخدمون الكتابة ؟

قال : ان لهذه الاعمال سجلات مختلفة ودوائر ومجالس

قلت : وما هي دوائركم ؟

قال : لنا دائرة المحاكم الشرعية . ومن اختصاصها الزواج والوفاة وحصر الارث والمواليد والطلاق وجميع الامور الشرعية والدينية .

ولنا دائرة المحاكم المدنية ومن اختصاصها اجراء العدلة بين المتنازعين والمتخاصمين

ولنا دائرة المالية . ومن اختصاصها جباية الضرائب وتقسيم الغنائم وبيع الغلال وتوزيع واردتها واستبدال البعض منها .

قلت : وماذا تعنون باستبدال البعض منها ؟

قال : يقوم الاستبدال بان باخذ كل بيت حاجته من الحنطة والذرة التي تزرعها القبيلة في املاكها الخاصة لاجل مؤونتها . وبدلا من ذلك يقدم للادارة من غلاله ما يعادل قيمة ما اخذه .

قلت : وماذا تعملون بالضرائب التي تجبونها ؟

قال : ان للامير حقا بان يتصرف بها كيف شاء ولكنه يأبى الا انفاقها في سبيل خير القبيلة فسن لها نظاماً يسير بموجبه كل من يخلفه ويلخص هذا النظام بما يلي . اولا ينفق الامير على العائلة انفاقا لائقا بها معززاً شأنها من شتى الوجوه .

ثانيا : ينفق من هذه الضرائب في سبيل مشترى الجياد اللازمة للقبيلة ومشترى سائر حاجيات هذه الجياد .

ثالثا : ينفق منها في سبيل مشترى سائر الاسلحة اللازمة لكيان القبيلة وصيانتها .

رابعا : ينفق منها في سبيل مشترى ادوات وقرطاسية دوائر القبيلة

خامسا : وتدفع منها جوائز الرجال الذين احسنوا الى القبيلة باعمالهم الجيدة ٠
سادسا : بالمال الذي يفضل عما تقدم يشتري لامير املاكاً ثابتة يخصها بصالح القبيلة جمعاء ٠

واذ كنا سائرين والشيخ يقص علينا الاخبار انتهينا الى خيمة جعلوهـا دائرة للمحاكم الشرعية ٠ دخلنا فوجدنا هنالك بدويا جالسا على الارض والى جانبه كمية من الدفاتر والاقلام الرصاصية المتعددة الالوان ٠

سألت : ولماذا هذه الاقلام الرصاصية الملونة فاجبت انهـا لتمييز القيود الواحد من الاخر وهذه طريقة تسهل الاعمال وتسرع بانجازها ٠ فالزواج مثلا يقيد باللون الاحمر ٠ فلو جاء احدهم وطلب الاستفادة عن يوم زواجه فتش المسجل عن ذلك في اللون الاحمر ٠ والقيود عندنا متتابعة فانك ترى في الصفحة الواحدة الوانا مختلفة دلالة على اختلاف القيود ٠ وقد اصطلحنا على تخصيص اللون الاحمر بالزواج ، والاسود بالموت والاخضر بالولادة وهلم جرا

بدوية من غرب الجبور

سألت : واين يتعلم البدوي القراءة والكتابة فقيل لي : هنا في القبيلة ٠

قلت : وهل في القبيلة مدرسة ؟

قال : ان في قبيلتنا « مدرسة خوش مدرسة » اعني مدرسة عظيمة ٠

قلت : وهل يستقل هذا البدوي بقيد ما يلزم في هذه الدفاتر ؟

قال : كلا . فان شيخ القبيلة يؤلف مجلساً منه ومن معاونين اثنين فيقيد هذا البدوي كل ما يقره اعضاء المجلس . على ان المسائل المنوطة بالزواج والطلاق فينجزها شرعياً احد مشايخ الدين .

قلت : ومن اين لكم شيوخ الدين وانتم في البادية ؟

قال : هم دائماً معنا واليهم نسلم تعليم الاولاد القراءة والكتابة والصلاة في القرآن الشريف .

قلت : اهي خطة جديدة سلكتم بموجبها ام ذلك قديم العهد عندكم ؟

قال : هي خطتنا منذ نشأتنا وقد ورثناها عن ابائنا واجدادنا ولا جديد عندنا سوى استبدال الجلود بلورق واستبدال حبر الحشائش بالحبر الجديد والقلم الرصاص والمواضي بالمعدل وكان ايضاً في زاوية من الخيمة بدوي ثان والى جانبه دفاتره واقلامه الرصاصية وهو الموكل بتدوين الاعمال المختصة بالمحاكم المدنية . وتؤلف دائرة هذه المحاكم من رئيس وعضوين يختارهم الامير من اعيان القبيلة . وليس للمحاكم المدنية من نظام يتمشى عليه العربان انما لهم عادات يتمسكون بها منذ الاجيال القديمة وليس بينهم من يجهلها . والاحكام عند العرب عرفية على نوع ما غير ان العدل موجود فيما بينهم فلا حيف هنالك ولا ظالم .

وجاء بنا الشيخ الى خيمة اخرى فوجدنا هنالك رجالاً ثلاثة والى جوانبهم الدفاتر العديدة وكانت هذه الخيمة دائرة «الصر» او خزينة القبيلة او محل الضرائب والجباية حسب اصطلاحهم وقد نظموا اعمالها على النمط الاتي :

اولاً — دفتر لقيد اسماء افراد القبيلة . فجعلوا لكل بيت صفحتين يقيدون في احديها اسماء الافراد الاحياء مضيفين اليها اسم كل مولود جديد في خلال السنة ويقيدون في الصفحة الثانية اسماء الذين يموتون من ابناء ذلك البيت وهكذا يحصون افراد القبيلة .

ثانياً — دفتر لقيد المواشي وفيه لكل بيت صفحتان يقيد في احديها عدد ماشيته وحلاله ومواليدها ويقيد في الصفحة الثانية عدد المفقود منها والمباع ويجمع في آخر السنة صافي تلك الحيوانات فتؤدي الضريبة المفروضة عليه

ثالثاً — دفتر للغلال التي تستلمها الادارة من كل بيت يقيدون فيه الكمية المسامة



صاحب الرحلة في الجزيرة

واسعار بيعها مضيفين الى ذلك كل ما يتعلق بالاستبدال والمواسم وما شا كلها

رابعاً — دفتر التسليف فلومات حلال البدوي ولم يكن عنده من المال ما يكفيه لشراء حلال جديد اعطته الخزينة ما يشتري به الحلال اذ لا يسع البدوي ان يعيش بدون حلال · ثم تستوفي الخزينة ما لها من ذاك البدوي في خلال اعوام معلومة تعين تبعاً للظروف · ووجدت في تلك الدائرة دفاتر خصصت بالغزوات تقيد فيها الارباح والخسائر وتقسم علىّ مختلف الدرجات البدوية · وقد جعلوا ايضاً في تلك الدائرة اربعة دفاتر مخصصة كما يلي :

احدها لقيد كل ما يدخل على الامير من مال ومتاع

ثانيها لقيد سائر نفقات الامير

ثالثها لقيد واردات القبيلة وهو مجموع ما يدخل عليها من سائر الغلال والمواسم والنتاج وهلم جراً ·

رابعها لقيد نفقات القبيلة في سبيل ابتياع الاسلحة والجياد والذخيرة وهلم جرا

ودخلنا خيمة اخرى وقد خصت بالذخيرة · يقوم بحراستها اربعة رجال باسلحتهم · وقد وضعوا في تلك الخيمة الصناديق العديدة وكلها ملأى بانواع الاسلحة ·

دنوت من مدير تلك الخيمة وسألته · كم عندك من الدفاتر ؟

قال : اثنان فقط ، احدهما للوارد والثاني للصادر ·

قلت : وماذا تعني بذلك ؟



الشيخ حمود شيخ قبيلة الجبور في مجلسه اليومي

قال : نقيد الوارد هكذا . ورد الينا في يوم كذا بواسطة فلان بندقية عدد كذا خرطوش عدد كذا وهلم جرا . وتقيد الصادر هكذا . بتاريخ كذا سلمنا بامر مولانا فلاناً بندقية نمرتها كذا وخرطوشاً عدد كذا . والمقصود من ذلك ان يستطيع الامير معرفة ما عنده في البيت من سلاح وذخيرة بدون ما عناء ولا تعب .

قلت : وهل لك ان تفيدني عما عندكم من البنادق في الاونة الحاضرة ؟

توقف عن الجواب ناظراً الى الشيخ كأنه يستأذنه ، فاوعز اليه الشيخ ان يجيب على اسئلتنا ، فكشف دفتره واجابني فوراً . تسعماية في المخزن .

قلت وكم هي سيوفكم ؟

قال : ثلثماية

قلت : ومسدساتكم ؟

قال : اربعمائة

قلت : وهل تتجرون بالاسلحة ؟

قال : ان الجواب على هذا السؤال منوط بمولاي الامير . وعندها قال الشيخ لسنا نتجر بالاسلحة على الاطلاق ولكننا نتأهب للطوارئ والمفاجئات . اذ يتفق اننا نغزو

فنخسر سلاحنا ولا سبيل لنا اذ ذاك الى استجلاب ما يغطي خسارتنا قبل مرور اشهر ستة • وهذا علىَ اقل تعديل وهيهات ان تسلم من مصادرة الدولة (يعني الدولة العثمانية وكانت حينذاك سلطانة تلك الفيافي) بناء عليه يجب ان يكون في حوزتنا وبصورة دائمة ثلاث بدَلات لثلاثمائة رجل ولذلك نرى عندنا الان تسعمائة بندقية • وهي افضل وسيلة لنعيش بأمن من كل خطر •

قلت للشيخ : لماذا لاتسمحون اذا بالدخول الى بيت الذخيرة لنرى ما فيه ؟

وقف الشيخ حمود هنيهة ثم قال : (ما يخالف) تفضلوا

فقلنا اذا كان ثمة مانع يمنع دخولنا الى البيت فنحن نمتنع عن ذلك لاننا لا نريد خرق انظمتكم •

فضحك ثم قال : القبائل لا تفضح اسرار سلاحها وذخيرتها! ولكن انتم كرام وسوف لا تقولون شيئاً مما ترون •

فقلت له : كن على يقين اننا لا نتلفظ بكلمة واحدة يمكنها ان تضر بكم فدخلنا البيت ووجدنا صناديق على الجانبين منضدة بعضها فوق بعض حتى سقف المضرب وفي وسطه بيوت جديدة من الجلد لاجل نقل الخرطوش وبندقيات من الطراز الجديد ومسدسات وسيوف وقرب للمياه ورماح

وادى بنا المسير الى المدرسة فاذا هي خيمة طويلة عريضة فيها الاستاذ وثلاثون طالباً وقد جلس جميعهم على الحضيض وما ان دخلنا حتى وقفوا على اقدامهم منادين بالصوت لواحد « ليعش مولانا وحامي حمانا »

وكانَ الاستاذ بدوياً من افراد القبيلة وقد اقتبس علمه في دمشق ومنها اخذ لقب « شيخ علم » • سألت الاستاذ قائلاً :

ماذا تعلم هؤلاء الاحداث ؟

قال : القراءة العربية وكتابتها وصلاة القرآن الشريف • وكان في الخيمة لوح اسود لتعليم الكتابة وهو شبيه بالالواح السوداء التي نستخدمها في معاهدنا

تركنا المدرسة عائدين الى مركز رجال حملتنا وفي اثناء مسيرنا مررنا بخيمة خصت بالحرم وقد فرشت بالسجاد العجمي الفاخر ووضعوا في كل زاوية منها فراش من صوف الماعز الناعم • فلم نشأ ان نتعرض كثيراً لامر النساء لاعتقادنا ان العرب يستهجنون

البحث عن ذلك فواصلنا لمسير الى خيامنا

۱٥ نيسان

نهضنا من رقادنا حوالي الساعة الخامسة صباحاً . وكنا نتناول القهوة حين دخل علينا الشيخ حمود يدعونا لحضور الاستعراض وكان الطقس جميلا للغاية

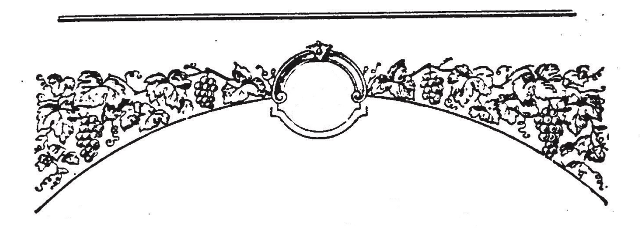
فسألته : وماذا تعني بالاستعراض ؟

اجاب : استعراض الفرسان الذين نعدهم للمنازلة لان الحرب واقعة بيننا وبين القبيلة المعهودة بعد مغادرتكم اراضينا

قلت : عفواً مولاي اعطنا بضعة دقائق فرصة لنجهز آلة التصوير

قال : ارجوكم ان لا تصوروا الاستعراض ، رغماً عن كل ثقتنا بكم لا يمكننا السماح لكم بذلك .

وحوالي الساعة الثامنة كنا والشيخ خارج المضارب وقد صحب الشيخ عشرة من



اركان قبيلته ونصف القوة الموجودة في القبيلة .

قلت اهؤلاء كل رجالك ؟

قال : لا يسعنا ان نجرد القبيلة من كل قوة . فاننا نأخذ النصف ونترك النصف الآخر لحين الحاجة .

قلت : وكم هو عدد النصف ؟

قال : مائتان وخمسة وسبعون فارساً . فاننا سنمرن هؤلاء قبل الظهر لنمرن النصف الباقي بعد الظهر . مشينا مسافة نصف ساعة فانتهينا الى ساحة فسيحة وكان الشيخ راكباً جواده . فاستل سيفه وشرع ينادي فرقه هكذا :

١ً فرقة المواضي . وهي الفرقة المخصصة بضرب السيف وكان عددها خمسين فارساً واخذ الامير يمتحنها بالهجوم والدفاع وبضرب السيف والرمح ثم امتحن الجياد واطاعتها للحركات وما شاكل .

٢ً فرقة الفرسان . وهي فرقة الفرسان المسلحين وكان عددهـا خمسين فارساً .

٣ً فرقة الحرس : وهي فرقة السواري لحرس العائلة وكان عددها خمسين فارساً .

٤ً فرقة الابطال . اي نخبة القبيلة وعدد رجالها خمسون فارساً .

٥ً فرقة المواصلات . اي الفرقة المحافظة على خط الاتصال بين القبيلة وساحة القتال . وعدد رجالها خمسون فارساً .

٦ً رجال الشيخ اي الفرقة التي يبقى رجالهـا حول الشيخ بصورة دائمة تنفيذاً لاوامره وابلاغها الى الفرق الاخرى . وعدد رجال هذه الفرقة خمسة وعشرون فارساً . وقد سر الامير لدن شاهد قومه على اتم الاستعداد للنزال ، وعند الساعة الواحدة بعد الظهر عدنا جميعاً الى المضارب وكان العربان ينشدون الاغـاني الحماسية اكراماً لاميرهم . وما زلت اذكر منها ما يلي .

يا شيخنا يا شيخ حمود رجالش (رجالك) شلها (كلها) اسود
بالحرب لا نخشى الوعود ولضيوفكم نحفظ عهود

. . . .

بوادي العدس باشر (باكر) تشوف خيولنـا صفوف صفوف
ورماحنا مع السيوف ورصاصنا باشر تشوف


قسم من الحملة في الوعر

وكنا دعونا الامير لتناول طعام الظهر على مائدتنا فقبل الدعوة شاكراً . وبعد الغداء ذهبنا معه لاستعراض البقية من فرسانه وكانوا موزعين نظير الذين تقدموهم .

وانتهى الاستعراض عند الساعة السادسة مساء فرجعنا جميعاً الى المضارب . وعندها دعانا الشيخ الى العشا وما دقت الساعة الثامنة مساء حتى دخلنا بيت الاكل فاذا هو خيمة منارة ، مع ان العرب لا يستعملون النور فاردنا ان نعرف ما هو شكل النور المستعمل في تلك الخيمة فلم نرَ شيئاً من ادوات النور ظاهرة للعيان سألت الشيخ : ما هذا النور فادخلنا وراء الستار وجدنا مصابيح معلقة ومن حولها العبيد تراقبها خوفاً من الحريق . تناولنا العشاء على مائدة شيخ القبيلة (وكان عشانا حلالـــ صغير لذيذ جداً) وقد نصح لنا ان نسافر ليلا ملافاة للطوارئ .

ورقدنا في تلك الليلة نحواً من ساعتين نهضنا بعدها نعد عدتنا للرحيل . وعند الساعة الواحدة صباحاً اقبل الشيخ حمود لوداعنا وقد تلطف فقدم لنا اربعة من رجاله البواسل يرشدوننا الى الطريق السلطاني . فساروا على طريق خاص وعر وكان الجو صافياً والقمر منيراً فساعدنا ذلك على المسير مسراعاً ، وكانت السكينة سائدة لا نسمع سوى وقع حوافر الدواب لاننا كنا نزعنا الاجراس والقلائد من رقاب البغال ومنعنا المكاربة من الغناء .

١٦ : نيسان

ما دقت الساعة السابعة صباحاً حتى كنا قطعنا الجبال وانحدرنا الى الوادي حيث سلكنا الطريق السلطاني . وواصلنا المسير نحواً من اربع ساعات فانتهينا الى «ام الديبان» فوقفنا هنالك نأخذ قسطنا من الراحة .

وام الديبان هذه قلعة من القلاع الكبيرة في الجزيرة وهي بوابة جبل سنجار وبلاد

اليزيدية . فيها خمسون دركياً سوارياً ويوزباشي وجاويشان وثلاثة من صغار الضباط .
وهي نظيفة البناء ، نظيفة الغرف وقد فرشت على الطريقة البدوية . تناولنا الغداء في
احدى غرفها وكان معنا على المائدة احد الجاويشين وبعد شرب القهوة سألنا الجاويش
عن حالة الطريق السائرين عليه فقال . طريقكم عاطل جداً ويعرف هذا الوادي بوادي
اليزيدية وهم قوم كفرة تجسم اللؤم فيهم ، لا ذمة لهم ولا وجدان دأبهم السلب والنهب
والتفظيع والتقتيل لا يخشون سطوة الحكومة ولا تردعهم هيبتها عن اقتراف الجرائم
وقد اعتدوا مؤخراً على جمال باشا اثناء ذهابه الى الموصل .

قلت : وكيف كان اعتداؤهم هذا ؟ اليس للحكومة قوة كافية لكبح جماحهم
والضرب على ايديهم ؟

قال : ان للدولة كل القوة على ذلك غير انه لا يسعها ان تبقي هنالك رجالها يحاربون
اليزيدية . وقد اضطرت الى اعطائهم نوعاً من الحرية والاستقلال الاداري معينة لهم
حاكماً منهم معترفة لهم بحقوق خاصة يتمتعون بها . ولم يكن تصرف الدولة هذا مع
شعب آخر من شعوب الجزيرة .... وعين جمال باشا والياً على الموصل . ولما كانت
هذه البقعة داخلة في ولايته شاء ان يتفقدها ويدرس احوالها وقد استصحب خمسين
فارساً مع ضباطهم ارتاحوا هنيهة في هذه القلعة ثم مشوا عند الساعة الثالثة صباحاً . ولما
انتهوا الى قلب القبيلة اليزيدية اوقفهم اميرها ولا شك انه سيوقفكم .

قلت : وهل كنت مع جمال باشا ؟

قال : نعم وقد رافقته حتى « عين الغزال »

قلت : ارجوك ان تزيدني ايضاحاً .

قال : ما كدنا نصل الى وسط القبيلة حتى رأينا اميرها راكباً جواده يحيط به عدد كبير من رجاله . فدنوت منه وقلت . ايها الامير ان القادم اليكم هو جمال باشا والي الموصل الجديد .

قال : يمكنه ان يؤدي لنا مبلغاً وافراً من مال الخزينة .

قلت : ذلك مما يصعب عليكم . واذا ما تصلبتم برأيكم حسبت الدولة عملكم هذا عصياناً عليها وتمرداً .

قال : ولماذا تعتبرون ذلك عصياناً ؟ اليست الارض ارضنا ؟ اما نحن احرار فيها نسمح بمرورها لمن نشاء ونمنع من ذلك من نشاء ؟

وعبثاً حاولت اقناعه بالعدول عن مطلبه قبل ان يدرك الوالي الامر . فاضطررت ان اعلم الباشا بما كان بيني وبين ذلك الامير . حينئذ دنا منه جمال باشا وقال . ماذا تطلب ايها الامير ؟

قال : الخوة (رسم المرور)

قال الباشا : اليست هذه البلاد خاضعة للدولة العلية ؟

اجاب الامير : بلى ، ولكن خضوعنا هذا لا يحول دون طلبنا رسماً على مرور اراضينا .

وعندها اخذ الباشا يلاطفه ويقنعه بالعدول عن مطلبه مبيناً له ان عمله هذا يجر الويل عليه وعلى قبيلته . ثم قال له . اننا لا نحمل دراهم ولكننا سنرسل اليكم الرسم بعد رجوعنا الى الموصل . فاطلق الامير سبيلنا وتابعنا المسير الى عين الغزال ورجعت الى القلعة في اليوم التالي .

قلت : وماذا جرى بعد هذا الحادث ؟ هل صرفت الدولة نظرها عن هذا الاعتداء ؟

قال : كلا . فان جمالا كتب الى الاستانة يخبر اولياء الامر بما وقع فجردت الدولة حملة بعثت بها الى اليزيدية . وقد مضى على وصول الحملة نحو من ثمانية اشهر . وما زال رجال الدولة في حرب مع اليزيدية لم يتمكنوا من تدويخهم واخضاعهم لانهم عصابات وجبالهم تساعدهم على المقاومة . ثم اردف الجاويش قائلا .

ـ جبال سنجار وعرة للغاية وهي ملأى بالقلع الطبيعية وما زالت الدولة تحارب

اليزيدية . وقد فهمنا انهم اوقفوا القتال منذ عشرين يوماً فان الدولة الروسية تدخلت تروم وضع حد لهذه الحالة . وسبب ذلك ان لليزيديين جماعة عديدة منهم يعيشون بين الروسيين على حدود روسيا .

وقد طلب اليزيديون ان يؤدوا للدولة التركية فريضة معينة في كل سنة بشرط ان يكونوا احراراً في بلادهم يسنون لانفسهم الانظمة والقوانين . وما زالت المفاوضات بين اليزيديين والحكومة كما ان عساكر الدولة ما زالت مخيمة في عين الغزال ولسوف تشاهدونها هناك

قلت : ان رفيقي سائح رومي ، فيحتمل والحالة هذه ان يراعي اليزيديون حرمته

قال : على كل حال ينبغي لكم ان تتصرفوا بكل حكمة مع هؤلاء الجماعة واياكم والعنف والكلام الجارح

قلت : على الله الاتكال

تركنا القلعة وسرنا ، وبعد ساعتين او اقل كنا في مدخل الوادي فشاهدنا على مقربة منا خياماً سوداء قامت على شكل هندسي يخالف جداً تنظيم مضارب العربان فسألنا لمن هذه الخيام ؟ فقيل لنا : هي خيام اليزيدية الذين يقطنون السهل في ايام المواسم ثم يعودون في الصيف الى جبالهم « سنجار » وكانت لا تقل الخيام عن الالفين عداً وقد قسمت الى اثنين احدهما عن يمين الطريق والثاني عن شماله ، فكان لا بد لنا والحالة هذه من المرور في الوسط . مررنا واذا بنا امام وجوه وهيئات تختلف جداً عن كل ما رأينا في الجزيرة ، الجمال باد على جميعهم رجالا ونساء لون وجوههم ابيض مائل الى الاحمر البنية

عندهم قوية حسنة

عدد اليزيدية في جبل سنجار نحو ستين الف نسمة ما عدا المشتتين في الجوار وعلى الحدود الروسية

وما مشينا بين تلك الخيام ما يناهز نصف الساعة حتى التقينا جماً من الفرسان يتقدمهم شاب جميل الطلعة على قبعته ريشة بديعة الشكل



امير اليزيدية وفرسانه

فما كان من ذاك الشاب الا انه استهل كلامه قائلا :

انا امير اليزيدية وصاحب هذه البلاد وسيدها وليس لاحد ان يمر من هنا قبل ان يؤدي رسم المرور (الخوة)

امير اليزيدية : يطلق اليزيديون هذا الاسم على زعيمهم باعتبار انهم قبيلة ولها امير اسوة بالقبائل العربية ولكنهم ليسوا من البدو فهم سكان قرى ولهم املاكهم في السهول المجاورة للقبائل العربية وقد حذوا حذو البدو عندما يكونون في تلك السهول فيتخذون لهم اميراً وفرسانا وحراساً الخ

قلنا : ان الامير ابتدرنا بطلب (الخوة) رسم المرور فاجبته :

نحن مستعدون يا مولاي للاطاعة فما هو هذا الرسم ؟

قال : لسنا نعين على الكريم مبلغاً

حسن ولكن اليست لكم عادات تتمشون عليها ؟

قال : بلى ، ولكننا نتوقع منكم رسماً يناسب سامي مقامكم

قلت : اننا ندفع رسماً معيناً عن كل رجل وعن كل دابة اذا شئتم او افيدونا ما هي

الطريقة المتبعة لدفع الخوة ؟

قال : عليكم ان تدفعوا مائتي ليرة عثمانية

قلت : سمعاً وطاعة ٠ غير اننا بعثنا بالمال الذي كنا نحمله الى وردية عن طريق الوعر لان العرب اظهروكم لنا بصورة تخشى صولتها فاضطررنا الى تهريب المال ٠ ولو كنا حسبناكم هكذا لبني الجانب لما فعلنا ذلك ٠ فيسعك الان ان تختار رجلا يصحبنا في سفرنا فنؤدي له المبلغ تماماً وكمالا

قال : وهل يسوءكم ان اصحبكم بذاتي ؟

قلت : يسرنا جداً ان نتشرف بمواكبتك وهذا مما يزيدنا تشجيعاً على اجتياز هذه الاراضي مطمئنين البال بعيدين عن المخاطر والمتاعب واذا سنحت الفرصة زرناكم يا مولاي في جبلكم ٠ قال على الرحب والسعة ٠ وسرنا والامير في مقدمتنا راكب جواداً من اكرم الخيل وقد وضع الى جانبه الايمن بندقيةمن الطراز الحديث والى الجانب الايسر سيفاً جميلا وفوق كتفيه عباءة عربية ظريفةمفتوحة على صدره يظهر في شقها على الشمال زوج مسدسات ، والخرطوش على صدره بشكل صليب ، من حوله خمسون فارساً سيوفهم مسلطةمستكملي السلاح والذخيرة ، جيادهم من اكرم الخيل ومروجها جميلة المنظر ونظيفة وعلى رؤوسها الرشمات والاعنة الملونة وكان جواد الامير يحمل حول رأسه وفوق انفه رشمة من الفضة العربية الصنع وعلى صدره كميات من الفضة المشغولة باتقان

وسارت الفرسان حتى نهاية القبيلة وبعدها صرفهم اميرهم فعادوا وبقي هو وحده معنا وما هو غير القليل علىَ مسيرنا حتى عدت فسألت الامير قائلا : كيف تعدلون الخوة هل ان لكم قاعدة تسيرون عليها فتعينون مبلغاً على الرجل وآخر على الدابة ؟

قال : لاقاعدة لنا ولا خطة ، انما ذلك عائد الى الظروف ٠ فنفرض رسوماً تختلف باختلاف المقدرة المالية

ثم سألني الامير قائلا

من هذا السائح وما هي امته ؟

قلت : انه كبير من كبار الامة الروسية وقد جاء الى هذه البلاد متنكراً وهو يبغي ان يدرس حالة اليزيدية ليتمكن من العمل في سبيل مصالحتهم مع الدولة العثمانية

قال اصحيح ما تقول ؟



عائلة يزيدية

قلت : نعم مولاي وقد احببت ان ابوح لك بهذا السر كي تحسن معاملته فيحفظ جميلك ويحمل الدولة على ان تعقد معكم صلحاً يناسبكم ، وقد قيل له انكم تعتدون على المارة وتتقاضونهم رسوماً باهظة

قال : ارغب في البحث معه بشؤوننا فترجم له قولي، فاوقفت رفيقي على عزم الامير فطاب نفساً ، ثم افتتح الامير الكلام فقال :

بلغني يا سيدي انك من الامة الروسية ، فهل اتيت الى هنا للتنزه والسياحة ام لغرض آخر ؟

اجاب السائح : اتيت سائحاً ومتنزهاً وقاصداً اموراً لها علاقتها بدولتي

قال الامير : وهل يعنينا شيء من ذلك ؟

قال السائح : نعم سيدي ، فقد عُهد الي ان اقف على ما هو جار عندكم لان الدولة العثمانية تتهمكم بتعكير صفو الامن العام في هذه الربوع وبالاعتداء على المارة الذين تتقاضونهم رسوماً باهظة غير مراعين في هذا الامر رجالها الاخصاء الموجبين ادارة احكامها ، ولم نكن لنصدق ذلك لو لم نتحققه بذاتنا وها انك ترافقنا الان لتقبض هذا الرسم .

قال الامير : عذراً يا سيدي وعفواً فاني قد تخليت لكم عن الرسم وارجو منكم ان

تعتبروني رفيق سفر يصحبكم حتى « وردية » فلربما احوج الامر الى خدمتكم او مساعدتكم • وخدمتكم واجبة فان دولتكم المحبوبة ما فتئت تحافظ علينا منتصرة لنا في سائر مشاكلنا مع الدولة العثمانية

قال السائح : ولماذا تتقاضون المارة رسماً ؟

قال الامير : اننا نتقاضاهم رسماً اسوة بالقبائل المجاورة التي تتقاضى المارة رسوما مختلفة وكلما مر احدنا باراضيها دفع لها الخوة نظير كل غريب

قال السائح • علمنا انكم منذ بضعة اشهر وقفتم في وجه والي الموصل اثناء مروره باراضيكم وطلبتم منه رسماً باهظاً فاثار عملكم هذا سخط الدولة التي بعثت برجالها لمحاربتكم فلماذا سلكتم هكذا مع ذلك الوالي ؟

قال الامير : يا مولاي كانت الدولة العثمانية قد فرضت علينا ضريبة فاحشة ولم نكن ندفع شيئاً من مثلها فيما مضى فكان قصدنا من سلوكنا المعهود مع والي الموصل ان نفوز بالرسم فندفع الضريبة الجديدة • على ان ذلك الوالي كان كذاباً مكاراً

وهنا انقطع الحديث بين السائح والامير

والتفت الي رفيقي وهو يبتسم ابتسامة تعني اننا اصبحنا بأمن من ذلك القوم

وعندها خاطبني الامير قائلا

بم يا ترى نجعل هذا السائح يشهد فينا شهادة حسنة عند رجوعه الى بلاده فتظل الدولة الروسية تنتصر لنا وتحمينا من شر بني عثمان ؟

قلت : عليكم يا مولاي بملاطفته ومجاملته • وليس ما يمنع من اهدائكم اليه ما تستحسنون فاننا ما كثون في الموصل زمناً غير يسير • وفور وصوله الى ورديه يقدم لك الرسم الذي تريد

وما كدت اذكر لفظة رسم حتى صاح بي ذاك الامير قائلا :

حاشاي ان آخذ فلساً واحداً وساهتم في ارضائه بهدية ثمينة فما رأيك في امر هذه الهدية ؟

قلت : يمكنكم يا مولاي ان تقدموا له ذكراً او انثى من الخيل الكريمة الاصل ، او سيفاً قديماً من السيوف المرصعة

وعدت فقلت : وان شاء الله سنزور الشيخ عدي مرجعكم الديني بعد مدة

وندرس مدققاً حالة شعبكم فذلك مما يهم السائح في الدرجة الاولى لانه جاء الى هنا لاجلكم خصيصاً

قال : انت مؤكد بانكم ستزوروا الشيخ عدي ؟

قلت : نعم هذه الزيارة من ضمن البرنامج

فكان سروره عظيما عندما تاكد من زيارتنا للشيخ عدي

ومازلنا نتحدث الى ان انتهينا الى وردية وكانت الساعة السابعة مساء فذهبنا تواً الى منزل شيخ البلد وكان يدعى الشيخ محمود وحين وصولنا الى المدخل طلبنا مقابلة الشيخ فاسرع الى استقبالنا لحييته مسلما ثم قلت :

نحن سياح ومعنا سائر ما يلزمنا فهل ترشدونا الى محل امين ننصب فيه خيامنا ونكون هناك تحت حمايتكم ؟

اجاب : لا امان الا داخل الدار . واني اكون مسروراً جداً بتشريفكم . قال هذا ودعانا الى الدخول فدخلنا الى باحة فسيحة ودخل معنا رجالنا ودوابنا باحمالها والامير اليزيديين ، وكان الحر شديداً فصعدنا على السطوح حيث تناولنا العشاء

وما كدنا نشرب القهوة حتى اقبل الشيخ محمود شيخ وردية وزعيمها وكبير قومه وكان من جماعة المسلمين . وشرع يرحب بنا ويتأهل ملاطفاً ومجاملا ثم سألني قائلا ؟

لماذا استصحبتم هذا اليزيدي ؟

قلت : انه قابلنا في وسط الوادي ومعه قوة مسلحة لا يستهان بها وقد طلب منا رسم المرور في اراضيه (الخوة) فوعدناه بدفع ذلك في ورديه اذ لم يكن معنا مال في تلك الاراضي . فاحب ان يصحبنا كي يقبض الرسم

وقد سمعنا بكم قبل وصولنا الى هذه البقعة فان الكثيرين يثنون على مروئتكم وشهامتكم وكرم اخلاقكم ومما قالوه لنا : اذا وقع خلاف بينكم وبين اليزيديين اخبروا الشيخ محمود بالامر فيوفق بينكم ويساعدكم كل المساعدة

فاستناداً الى ذلك جئناكم الان ومعنا هذا الامير

قال الشيخ : وهل انتم عائدون على هذا الطريق ؟

قلت : كلا لاننا قادمون على فصل الصيف فلا يسعنا احتمال الحر في الجزيرة فنفضل ان نسلك طريقاً آخر

قال الشيخ : اذا كان الامر هكذا اوعزوا الى هذا اليزيدي بالرجوع ولا تقدموا له شيئاً . وليس بامكاني ان ابقيه في ضيافتي خوفاً من ابناء جنسي فان اليزيديين الد اعدائنا . وكان الواجب عليه ان يعاملكم في بلاده معاملة ضيوف كرام ولكنه امرؤ لئيم . واعلم ان اليزيديين اغنى شعوب الجزيرة وهم يملكون اراضي جبل سنجار برمتها ولا يسع احداً غيرهم ان يملك هنالك شبراً من الارض والسهول التي مررتم بها خصبة للغاية تنتج الغلال العظيمة . ولليزيديين مواشي مختلفة وكلها من احسن الاجناس . والضرائب المفروضة عليهم من الدولة العثمانية لا تكاد تذكر وما ذلك الا لان الدولة تخشى شرورهم لانهم قوم عصاة متمردون وكفرة يعبدون الشيطان . وقد ادت بهم القحة الى طلب رسم المرور (الخوة) من جمال باشا والي الموصل فاثار عملهم هذا غضب الدولة التي بعثت بعساكرها لمعاقبتهم فكان ذلك باعثاً على الاضرار بنا لان اراضينا امست ساحة قتال فتعطلت مواسمنا ووضعت العساكر يدها على دوابنا فاستخدمتها في سبيل مصلحتها

قلت : وهل انتهت الحرب ؟

قال : كلا ، انما تهادن الفريقان منذ شهر لان الدولة الروسية قد تدخلت في الامر علها توفق بينهما

قلت : وهل ادى جمال باشا الخوة ؟

قال : لا استطيع الجزم في هذا الامر

قلت : اليوزباشي المعين في ام الديبان يقول ان جمالا لم يدفع شيئاً فقد اكتفى بان يعد اليزيديين بدفع الخوة فور وصوله الى الموصل

قال : عرفت ان الصر كان قد أرسل من حلب بطريق دير الزور ، ولما درى مأمورو المالية بان جمالا يسلك طريق الجزيرة رأوا من المناسب استرجاع الصر وارساله برفقته فيكون المال والحالة هذه بمأمن من كل خطر وكانت القيمة خمسة آلاف ليرة عثمانية وقد استولى عليها اليزيديون ، ولكنهم ينكرون الان ذلك ويقولون ان جمالا اخذ ذلك المبلغ واتهم اليزيديين بالاستيلاء عليه كي تنتقم الدولة له من اعتدائهم عليه في اراضيهم ، وقد حاربتهم الدولة من اجل هذه المسألة ثمانية اشهر فقتلت منهم عدداً وسجنت جملة اشخاص وقتل من رجال الدولة اضعاف الاضعاف واخيراً توسطت دولة

روسيا بالامر فاوقف القتال ولم تزل المخابرات جارية حتى الان

قلت : وهل تعرفون ماذا تشترط الدولة على اليزيديين ؟

اجاب : يقال ان الدولة تطلب تشييد سراي كبير في الوادي الذي مررتم به وتضع فيه قوة عظيمة وتكون اكلاف السراي من مال اليزيديين وتطلب الدولة تجريد اليزيديين من كل سلاح واخضاعهم لسائر انظمتها وقوانينها اسوة باهالي ولاية الموصل

قلت : وماذا يطلب اليزيديون ؟

قال : لا يرفض اليزيديون شيئاً من مطالب الدولة ، ولكنهم يشترطون ان يكون حاكم منطقتهم يزيدياً وان تتألف حكومتهم من رجالهم دون غيرهم وان يكون لهم في بلادهم شرائع خاصة بهم وان يكونوا مستقلين عن الدولة يتمشون على عاداتهم القديمة ويؤدون للدولة ضريبة سنوية يجبونها من بلادهم بدون تدخل اجنبي ويمشون بها الى الحكومة العثمانية

قلت : وهل اليزيديون متفقون باجمعهم على ذلك

قال : نعم

قلت : وهل من يزيديين في منطقة غير هذه ؟

قال : ان اليزيديين كثير عددهم في شرقي دجلة ولهم رئيس ديني في « الشيخ عدي »

قلت : وهل لهذا الرئيس علاقة بثورتهم ؟

قال : كلا ، ليس له ادنى علاقة بثورة قومه فهو لا يتدخل بالاشياء الزمنية ، والدولة تحترمه وتحبه لانها متحققة من تحايده التام ، واذا ذهبتم الى « الشيخ عدي » قابلوا الامير فتجدوني صادقاً بكلامي

قلت : وما رأيك الان بهذا اليزيدي ؟

قال : اصرفه ولا تكترث له اصلا فلقد خرجتم من منطقته ولا يسعه ان يلحق بكم ادنى اذى

وعندها ناديت امير اليزيديين وقلت له . ان رفيقي الرومي مستعد لتأدية الخوة فمر لنا باشعار باستلامك المبلغ وضع الى جانب توقيعك توقيع شاهدين

قال : اما قلت لك يا سيدي انني لا اريد شيئاً انما اطلب منك ان تقنع رفيقك

ليساعدنا لدى ارباب دولته لاننا مظلومون كل الظلم من قبل الدولة التركية التي تكرهنا لاننا لا ندين بالاسلام وجميع القبائل في هذه البلاد من الاسلام

قلت : الا يوجد مسيحيون في هذه الامصار ؟

قال : ان عددهم قليل جداً وهم مظلومون نظيرنا بل اكثر ونحن على نوع من الانواع ندافع عن كرامتنا اما المسيحيون فهم عبيد ارقاء للاكراد والمسلمين وستتحققون ذلك في الموصل حيث المسيحي مستعبد ايضاً

قلت : سابذل جهدي لاقناع رفيقي على مساعدتكم . وعلى الله الاتكال . وكان الشيخ حمود يسمع الحديث فالتفت الى امير اليزيديين وقال :

يا هذا انت تتهم الدولة بالتعصب الديني ولكنها لا تظلمكم بشيء انما هي تريد صيانة الامن العام وانتم تعكرون صفوه ومتى استتبت السكينة في بلادكم عاملتكم الدولة بالحسنى ثم انك تقول ان المسيحيين عبيد ارقاء في هذه الربوع فقولك هذا في غير محله . وعلى فرض انه كان صحيحاً لا يليق بك ان تصرح بذلك على مسمع من هؤلاء الضيوف وهم من جماعة المسيحيين .. ارغب منك يا صاح ان ترجع الى بلادك

فنهض اليزيدي لوداعنا وقد سألني آنذاك اين يستطيع ان يقابلنا في الموصل فاجبته انه يتمكن من معرفة مقرنا بواسطة قنصلية دولة روسيا فودعنا وانصرف

١٧ نيسان

نهضنا باكراً جداً حوالي الساعة الخامسة صباحاً وشكرنا الشيخ محمود على ضيافته وودعناه وسرنا قاصدين الى عين الغزال فكنا هناك عند الظهر

وعين الغزال نقطة عسكرية كبيرة الى جانب قرية صغيرة فيها خان على ضفة جدول يسمونه عين الغزال وهو عذب الماء

وكان آنذاك في القرية عدد من العساكر العثمانية المعدة لتدويخ اليزيديين

نصبنا الخيام داخل الخان وبتنا هناك ليلتنا . الطريق بين وردية وعين الغزال تختلف عن جميع الطرقات التي سلكناها في اراضي الجزيرة فهي مأهولة بالسكان على جانبي الطريق حيث يهتمون بالزراعة ، الماشية عديدة وسمينة

١٨ نيسان

حوالي الساعة السادسة صباحاً جاءنا دركي وطلب مني ان اذهب بمعيته لمقابلة قائد الجند العثماني فبادرت الى تلبية الطلب ، وكان القائد بكباشياً لطيفاً مهذباً وقد دعاني للجلوس الى جانبه وقدم لي لفافة تبغ وفنجاناً من القهوة الفاخرة ، ثم سألني قائلا :

بمن التقيتم في مسيركم في وادي سنجار ؟

قلت : التقينا اناساً عديدين ولكن اهمهم كان امير اليزيديين

قال : ابو ريشه ؟ وماذا كان من امركم معه ؟

قلت : انه طلب منا (الخوة) رسم المرور في اراضيه فاجبناه اننا لا نحمل مالا فان شئت اصحبنا الى وردية فنعطيك مطلوبك . غير اننا تملصنا منه بحيلة لطيفة

قال : لا حق له بذلك والدولة ناقمة عليه وعلى شعبه بسبب اعتداآتهم على المارة واعاد البكباشي ما كان من امر اليزيديين مع الدولة اذ قال . ان دولة روسيا تداخلت بالامر واوقف القتال قبل ان يلقي القبض على « ابو ريشه »

قلت : الحمد لله كان مرورنا بوادي سنجار سليم لانه لو شاء « ابو ريشه » ضررنا كان يمكنه بكل سهولة حيث لديه قوة مسلحة كبيرة ونحن عددنا قليل بالنسبة . ياحبذا لو تضع الدولة قوة في وسط الوادي ليثما تنتهي المخابرات ولو الشجأت لايوائها في الخيام فتتحسن الحالة لان وسط الوادي خطر ولا قوة للدولة فيه وبين ام الديبان وعين الغزال حيث توجد القوات الان عشر ساعات مهما جرى في الوادي يبقى مجهولا

قال : رفعت تقريراً بهذا الخصوص على اثر توقيف القتال وحتى الان لم يرد علي الجواب .

ثم قال : اين ذاهبون اليوم ؟

اجبت : الى (تلعفر) لاننا متوجهون الى الموصل

قال : كونوا على حذر من القبائل . وكان ذلك البكباشي يجيد اللغة العربية التي خاطبني بها . فشكرت له عطفه وودعته عائداً الى مركز الحلة . وكان رجالنا مستعدين للسفر فمشينا عند الساعة الثامنة صباحاً . وحوالى الساعة الاولى بعد الظهر انتهينا الى سهل فسيح قاحل لا عشب فيه ولا خضرة هب فيه اعصار قوي حار كاد يرفعنا عن ظهور

جيادنا . ثم ما لبثنا ان شاهدنا على بعض المسافة عدداً وفيراً من الخيام السوداء . سألت الدركي حارسنا : ما هذا ؟ فاجابني : هذه خيام الجعافرة وهم قبيلة كبيرة سيئة الاخلاق .

وانا كذلك اذ اقبل علينا فارس في مقتبل العمر تبدو على وجهه مخايل الشهامة والبأس وكان وراءه جمهور من الفرسان

ولما صار على مقربة منا بادرنا بالتحية والسلام والانس يتدفق من محياه ، رددنا عليه سلامه وتحيته

سألنا : من انتم واين وجهتكم ؟

قلنا : نحن سياح غرباء ذاهبون الى الموصل

قال : كيف اجتزتم الجزيرة ؟

قلنا بالهدوء والسكينة لم يزعج سفرنا شيء

قال : وكيف عاملكم اليزيديون ؟

قلنا : بكل مجاملة

قال : وماذا تقاضوكم رسما على مروركم بارضهم ؟ (الخوة)

قلنا : ما تقاضونا شيئاً ، بل ان اميرهم عنوان اللطف وكرم الاخلاق وقد رافقنا حتى « وردية »

فتعجب الفارس وقال : هي المرة الاولى التي نسمع فيها ان اليزيديين كرماء الاخلاق فقد اشتهروا باللؤم والنذالة واعمال اللصوصية وقلما راعوا ضيفاً او ماراً بارضهم

ثم التفت الي الفارس وقال : وهل تعلمون اين انتم الان ؟

قلت : نحن الان على حدود الجعافرة

قال : وهل انتم عازمون على المرور في وسط القبيلة ؟

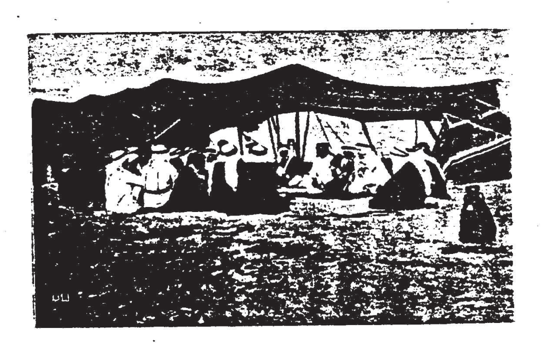
قلت : سنؤدي الواجب علينا فان سمحوا لنا بذلك فعلنا والا فلا

قال . وماذا تعني بالواجب ؟

قلت . حين ننتهي الى مدخل القبيلة نبعث الى اميرها برسول يستأذنه بدخولنا ونقف منتظرين جوابه

قال . واني اسير معكم الى مدخل القبيلة

قلت . الف شكر لك يا سيدي



شيخ الجعافرة واركان قبيلته

وسرنا جميعاً الى ان انتهينا الى مدخل القبيلة وهناك اوقفنا المسير وبعثنا الى الامير برسالة مع فارس يستأذنه بمرورنا في ارض القبيلة ومكثنا ننتظر جواب الامير وحملنا الرسول عباءة ثمينة من الحرير هدية للامير . وما مرت ساعة من الانتظار حتى عاد رسولنا بجمهور من الفرسان يتقدمهم شاب امرد ربعة القامة

وحين انتهوا الينا ترجلوا جميعاً ودنا منا الشاب الامرد ورحب بنا باشاً وقال :

· بعث بي والدي استقبلكم هنا واكون بخدمتكم حتى منزله هلموا بنا

سرنا جميعاً بين الخيام التي لا تحصى فكنا نشاهد قطعان المواشي المتنوعة مالئة تلك المروج والوديان

ولما بلغنا سرادق الشيخ والد ذلك الشاب الامرد استقبلنا على الباب رجل في عقده الرابع على وجهه علائم الهيبة والوقار وكرم الاصل وكان الى جانبيه كثير من الحشم والعبيد ، فابتدر كلامه قائلا : مرحباً بالضيوف الكرام ! مرحباً ! تفضلوا وادخلوا

واجلسنا الشيخ على مقعد من السجاد العجمي الفاخر . وكان الشيخ هذا يدعى الشيخ قدري وهو امير تلك القبيلة

والتفت الي الامير وقال : أملنا انكم تبيتون عندنا ليلتكم هذه

قلت : لا يسعنا ان نبيت ليلتنا هنا لاننا عازمون على متابعة السفر الى تلعفر .

قال: انها قرية يقطنها جماعة من مهاجري الاتراك واظنكم لا تستحسنون معشرهم. خير لكم ان تظلوا الليلة في ضيافتنا ونكون لكم من الشاكرين

قلت : وقتنا قصير لا يمكننا من تلبية طلبكم يا سيدي الامير وعلى كل حال نحن شاكرون لالطافكم وكرم اخلاقكم

ونهضنا نودع الامير فارسل بمعيتنا بعضاً من رجاله وقد رافقونا الى الطريق السلطاني حيث كنا تركنا الحملة تسير امامنا الى تلعفر فانتهينا اليها حوالي الساعة السادسة مساء ونصبنا الخيام في مركز ملائم . وما كدنا نأخذ بعض الراحة حتى جاءنا مدير الناحية وكان شابا تركيا لطيفاً . فقال لنا : انا مدير الناحية واني سعيد لتأدية كل ما يؤول الى راحتكم . شكرناه على عاطفته وبتنا ليلتنا بهناء

١٩ نيسان

خرجنا من تلعفر الساعة السادسة صباحاً وجهتنا « طيشه » وحوالي الساعة الحادية

عشرة كنا على مدخل واد مخيف تحيط به الجبال العالية وكان الحر شديداً جداً ولا ماء لنا هناك . وكنا قد تعبنا من السفر تحت شمس محرقة فمكثنا نستظل بصخرة كأنها مغارة . وجددنا مسيرنا فكنا بعد مسافة صغيرة امام منعطف من الطريق حيث شاهدنا رجالا ثلاثة باسلحتهم فابتدرنا احدهم بالتحية والسلام فرددنا عليه تحيته وسلامه ثم سألنا : اين ذاهبون ؟

قلت : الى « طيشه »

— ومن اين آتون ؟

— من عند الجمافرة ومن تلعفر

— اي متى كنتم عند الجعافرة ؟

— امس مساء غير اننا رقدنا الليلة الماضية في تلعفر

— وهل معكم المال الكافي لرحلة كهذه ؟

— لا نحمل نقوداً رنانة بل حوالات مالية على المصارف نقبضها في المدن ونشتري ما يلزمنا

— اذاً لا تحملون مجيديات ؟

— معنا منها شيء قليل نضطر اليه في بعض الاحيان

— وما شقد (كم) معكم ؟

— نحو عشرين مجيدياً

— اتريدون ان تساعدونا ببعضها ؟

— وهل انتم فقراء ؟

— نعم

— عجباً ! لقد اجتزنا الجزيرة من اولها الى آخرها ولم نشتم فيها رائحة الفقر بل رأينا الرخاء ضارباً اطنابه من اقصاها الى اقصاها الى اي قبيلة تنتسبون ؟

— لسنا من القبائل

— وهل في الجزيرة قوم لا ينتسبون الى قبيلة ؟

— لسنا من البدو وبلدنا « طيشه »

— وماذا يدعوكم الى الاقامة في هذه النقطة الا تؤثرون العمل في قريتكم على

طلب الصدقة من المارة وليس المارة هنا بالكثيرين فيما اظن (لم يخف علي ان اولئك الرجال كانوا من قطاع الطريق على الرغم من تظاهرهم باللين فانهم يبدأون هكذا وينتهون بالعنف)

قال احدهم : يا هذا ليس ما يدعو الى اطالة هذا الكلام · نحن هنا نطلب المساعدة من جميع المارة فاذا ساعدونا مختارين شكرنا لهم معروفهم واطلقنا سبيلهم والا اضطررنا الى الضغط والقوة

وبينما كنت اجادلهم كان خليل الشاوول يتفقد المكان ليرى ما اذا كان اولئك الرجال قد استصحبوا غيرهم من الاشقياء ولما تحقق تجردهم من كل عضد عاد مطمئناً والتفت الى ذاك الذي كان يخاطبني وقال :

اذا رفضنا مساعدتكم فماذا يكون ؟

قال الرجل · نجبركم على دفع المال بقوة السيف ·

قال شاوول : نحن مصممون على عدم مساعدتكم فافعل ما تشاء ·

وعندها بادر الرجل الى سيفه يريد اخراجه من غمده فما كان من خليل الا انه انقض عليه كالبرق وطرحه على الارض بعد ان جرده من سيفه وبندقيته · وكان سائر رجالنا قد استعدوا للنزال · ثم التفت خليل شاوول الى رفقاء الرجل وقال · وانتم ماذا تريدون ؟ احرباً ام ماذا ؟ فلما شاهد هؤلاء ما حل برفيقهم ارتخت عزيمتهم وطلبوا النجاة بنفوسهم · واشرت الى خليل شاوول ان يعيد الى الرجل بندقيته وسيفه ففعل · ثم عدنا الى متابعة السير فانتهينا الى طيشه حوالي الساعة الرابعة مساء فنزلنا على مقربة من بحيرة كبيرة تتجمع مياهها من الامطار

طيشه قرية صغيرة من املاك غني من اغنياء الموصل · فيها ينبوع ماء صغير وماؤه عذب لذيذ · لا سوق في القرية ولا حوانيت تستحق الذكر وغلتها قليل من الحنطة والشعير ·والحر هنالك شديد جداً وقد عرفت طيشه بكثرة العرانق في اراضيها وينتفع الاهالي من بيض هذا الطائر وهو افضل مواسمهم

هذا هو الطائر الذي قيل عنه (ضرره على مصر وخيره للعراق) يسافر هذا الطير كل سنة الى القطر المصري في ايام المواسم ثم يعود الى بلاده يبيض فيها

٢٠ نيسان

غادرنا طيثه الساعة السادسة صباحاً وكان الدركي دليلنا يتقدم الحملة · ومر على مسيرنا وقت يناهز ساعات اربعاً فاذا بنا عند مدخل ممر ضيق لا يكاد يعبر فالتفت الي الدركي وقال : هذا مضيق خطر للغاية يحيط به قطاع الطرق من قبيلة عرب شمر فلا جرأة لي على اجتيازه في مقدمتكم لاني اخشى الغدر ولذلك اود ان اكون الاخير في عبوره ·

قلت : ان كان الامر هكذا دعني اعبره قبل الجميع · ففعلت وتبعني رفيقي السائح ثم رجالنا الواحد تلو الاخر ثم الدركيين ولم تقع اعيننا على احد من قطاع الطرق · وبعد مسير نصف الساعة انتهينا الى موقع عريض نوعاً ما في وسط الممر ذي كهفين احدهما عن اليمين والثاني عن الشمال · وبغتة ظهر امامنا فارس مقبل من الجهة الشمالية وكان متوسط القامة تنم ملابسه عن اصل كريم ولم يكن يحمل من الاسلحة سوى السيف فدنا مني وقال : مرحباً يا ولد

قلت : ولماذا تدعوني ولداً وانا في عنفوان الشباب ؟

قال ضاحكاً : لفظة ولد تعني عند العرب (خوش راجل) ثم عاد فقال :

لا تخف فاني صديق جئت ارافقكم الى حيث تقصدون ، واذ كنا سائرين معاً سألني قائلا : ألم يعلمكم احد بمخاطر المضيق الذي عبرتموه منذ نصف ساعة ؟

قلت : بلى لقد اخبرونا انه ملجأ للصوص وقطاع الطرق ولكننا تعودنا الاخطار فلم نعد نبالي بها ··· وما مرنا مسافة قصيرة حتى خرجنا من المضيق وانتهينا الى سهل فسيح ظهر امامنا فيه نحواً من خمسماية فارس اصطفوا على الجانبين · وكان ذلك الفارس يسير

في مقدمة حملتنا . فما كاد يؤدي به المسير الى اولئك القوم حتى نادوا بالصوت الواحد عاش مولانا الامير ، واقترب من الامير عبدان حملاه ثم وضعاه على ظهر فرس من اجود الكحايل العربية واجملها . سرجها متقن مزركش بالقصب اللامع والشراريب الحريرية على رأسها رشمة فضية متقنة الصنع على صدرها سابند من الفضة مشغول على طريقة الرشمة ولما التف الفرسان حول الامير ادهشنا هذا الموكب الفخم وبينما نحن نفكر ما تراه يكون سبب اجتماع هؤلاء الفرسان في تلك البقعة ، التفت الي الفارس وقال . نحن هنا لاجل حمايتكم وقد مر على وجودنا في هذه البقعة اربعة ايام بلياليها فان اخي محمد شيوخ امير قبيلتنا الذي احسنتم ضيافته في دير الزور كان يتوقع وصولكم الى المضيق في السادس عشر من الشهر الحالي . فامرنا بحراستكم لانه يعلم ان هنالك قوماً اسافل يعتدون على المارة وينهبونهم وكثيراً ما ينكلون بهم

قلت : بارك الله فيك وفي اخيك وفي سائر قومه . لقد غمرنا بجميله ثم سرنا يحرسنا اولئك الفرسان . وبعد هنيهة انتهينا الى مفرق مسالك عديدة يؤدي احدها الى مضارب قبيلة محمد شيوخ . وكان هذا الامير ينتظرنا عند ذلك المفرق . فلما رآنا ترجل وصاح باعلى صوته : مرحباً بالكرام ! مرحباً ! اهلا ومهلا

وترجلنا جميعاً ودنوت ورفيقي السائح من الامير نمد ايدينا للتحية فابتدرنا الامير قائلا . كيف عبرتم الجزيرة ؟

قلت : بحوله تعالى وانظاركم عبرناها بدون ما كدر وقد لقينا هنالك كل اكرام وحفاوة .

قال : كيف استقبلكم عرب الجبور ؟

قلت : ان اميرهم صديقك الشيخ حمود احسن ضيافتنا وغمرنا باحسانه وعمل كل ما بوسعه في سبيل راحتنا وبعث بمن ارشدنا الى الطريق الامين

قال : وانتم الان قادمون على قبيلة شمر ، وهذه اكبر واقوى قبيلة في الجزيرة ، وسترون هنالك اموراً ما رأيتموها عند بقية القبائل

قلت : لنا اعظم فخر واكبر شرف بزيارتكم يا سيدي الامير . وسرنا والامير الى القبيلة وكانت مضاربها منصوبة في وسط سهل فسيح تجمله الخضرة وقد امتلأت ارضه بقطعان المواشي المتنوعة



الوصول الى شمر

وكان بيت الامير قائماً على ستة اعمدة في اعلى كل منها رمانـة من النحاس الاصفر وقد علق على تلك الرمانات عدد من السيوف العربية المرصعة بالحجارة الكريمة

واجلسنا الامير في خيمته وامر لنا بالقهوة ثم طفق يتكلم والبشر يتدفق من وجهه اللطيف

ومما قال : كنت خائفاً جداً على حياتكم واموالكم ٠ ولذا بعثت الى ذاك المضيق الخطر باخي وبفرساني يحرسونكم ويحمونكم من قطاع الطرق

فقلت شاكراً : لا يسعنا يا مولاي ان نعبر لكم عما في قلبنا من شواعر الامتنان لعطفكم علينا ولكرم اخلاقكم كما وانه لا يسعنا ان نكافئكم على جميلكم هذا ٠ الله وحده قدير على ذلك

وكانت الساعة الواحدة بعد الظهر فاستأذنت الامير بالخروج لتناول الطعام فأبى علي ذلك وقال : انكم تأكلون عندي ما زلتم في ارض قبيلتي ولا اسمح لكم قط بان تأكلوا على مائدتكم ٠ فلم يسعنا الا الطاعة

وطلبت من الامير ان يأمر لنا باعداد مكان ننصب فيه خيامنا فاجابني : كن مطمئن البال ، لقد اعددنا كل شيء وكان ذلك الامير الكريم الاصل قد امر بنصب



بيت الاستقبال في شمر

خيامنا على مقربة من بيته

دخلنا «بيت الاكل» خيمة كبيرة قائمة على ستة اعمـدة مفروشة بالسجاد الفاخر المعمول منه كراسي فردية يجلس واحد على كل منها ، والمائدة معمولة من مرح الجمال الخشبية يضعونها بعضها فوق بعض وفوقها سجاد وخرجـة على الجانبين و كان منظرهـا جميلا للغاية

و كان على المائدة امير القبيلة واربعة من اركانها وبعض شيوخها و نا ورفيقي السائح و كنت قد اعددت لذاك الامير هدية تليق به فقدمتها له على مرأى من الجمهور و كانت مؤلفة كما يلي :

١) سيف عربي جميل

٢) عباءة حريرية مطرزة تطريزاً بديعاً

٣) حزام حريري فاخر

٤) كمية كبيرة من لفافات التبغ اللبناني من معملنا في بيت شباب · فقبلها الامير مسروراً شاكراً

وبعد شرب القهوة التفت الي الامير وقال :

ماذا رأيتم في الجزيرة ؟

قلت : اشياء كثيرة

قال : وهل اسمعوكم انغام الربابة والقصب ؟

قلت : كلا

قال : اذن اكراماً لكم ستكون ليلتنا الاتية ليلة طرب نسمعكم فيها الانغام الشجية

قلت : شكراً لكم يا سيدي الامير

ثم خرجنا من عند الامير نبغي الاستراحة في خيامنا .

وعند الاصيل دعونا الامير واخاه لتناول الشاي فقبلا دعوتنا مرتاحين شاكرين ٠ ولما جاء وقت العشاء دعوناهما للعشاء عندنا فرفضا وقال محمد شيوخ عندنا هذا امر مفروض وكل شيء جاهز واول عشاء تأكلونه في الجزيرة من نوعه

قلت ٠ ما هو ؟

قال : جذاء الواحد عمره شهر واحد لا يزال على الحليب ذبحنا عشرة لكل واحد جذي يبيثونه على الطريقة العربية اعني انهم يقونه كاملا بدون تقطيع اظن انكم تحبون هذه الاكلة لانها لذيذة جداً فرضينا ٠ ولما جاء وقت العشاء جئنا الى بيت الامير فسار بنا الى الخيمة المعدة للاكل (بيت الاكل) فقدموا لنا الجذاء مرتبة بعضها فوق بعض وكان امام كل مدعو صدر صغير لا شيء عليه فاخذ احد الحاضرين يوزع الجذاء على الصدر فكانت اكلة لذيذة حقيقة

قلت : كيف يطبخون هذا الجذاء ؟

قال : على بعر الجمال بنار خفيفة وبطيئة حتى يستوي على مهل ويحفظ الادام حوله كما ترونها وبعد العشاء سرنا جميعاً الى خيمة الطرب حيث اجلسونا على مقاعد من انخر السجاد العجمي ٠ وشرع المغنون يطربون الاذان بمختلف اناشيدهم وطقاطيقهم الموقعة على اصوات الربابة



عشي الامير يسلخ الجذاء



رقص الدبكة في شمر

والقصب و كان العازفون على الربابة خمسة ومثلهم العازفون على القصب وقد انهوا تلك الليلة برقص الدبكة و كانوا بين الساعة والاخرى يقدمون لنا القهوة ٠ ودامت تلك السهرة الى ما بعد نصف الليل ٠ وفي آخر الامر استأذنا الامير وعدنا الى خيامنا نرتاح بقية ليلتنا ٠

٢١ نيسان

نهضنا من رقادنا متأخرين فجاءنا احد رجالنا ينبئنا بقدوم امير القبيلة الينا وكانت الساعة التاسعة صباحاً فاسرعت الى استقباله طالباً منه ان يشرب القهوة عندنا فاستجابني بكل لطف ودعة ثم قال ٠ لقد جئتكم باكراً لاذهب بكم الى التنزه قبل طعام الظهر فتفضل واعلم رفيقك بالامر كي يتهيأ للخروج فقلت للسائح مقالة الامير فارتدى الاثواب اللائقة وسرنا والامير الى الجهة الشمالية ٠ وما كدنا نجتاز المضارب حتى كنا على ارض مشققة ترتفع من شقوقها السنة الحيات والافاعي الحمراء فهالنا منظرها فقلت للامير :

اما تخافون شر هذه الافاعي ؟ اما تلحق الاذى بمواشيكم ؟

قال : عندما نؤم هذه البقعة نوزع اجربة فيها مجبنة فتشم الافاعي رائحة المجبنة فتنفر

هاربة وننصب اذ ذاك الخيام

قلت : وكيف تحمون الماشية من اذاها ؟

قال : عندما نسرح الماشية للمرعى نسير قدامها الجمال وعليها الجابن فتهرب الافاعي والحيات . وهذه الطريقة تدفع عن الماشية اضرارها ولدغاتها . على انه لا بد من بعض الحوادث في السنة ونستعمل النار لمداواة اللسع فاننا نجرح المكان الملسوع ونكويه بالنار فيبرأ للحال

وتابعنا المسير فانتهينا الى مهل فسيح جملته الطبيعة بخضرتها واذا بنا امام عشرين بدويا يروضون مائة مهرة تتراوح اعمارها بين السنة والخمسة عشر شهراً . وكان بيد كل من المروضين مرزبة طويلة من جلد وشعر . سألت الامير ما هذا ؟ فاجابني :

اظنكم ما رأيتم شيئاً من مثل هذا في بقية القبائل فقبيلتنا هي الوحيدة التي تعتمد قبل كل امر على ترويض الخيل وتعليمها فنمرنها صغيرة على اللعب مجردة من اللجام والمقود

قلت : لا شك ان المروضين يتعبون كثيراً

قال : ولكنهم يربحون كثيراً

قلت : وكيف يربحون ؟

قال يأخذون فرساً مكافأة على ترويض عشرين . نعطيهم مائة وخمسة رؤوس فيرجعون لنا مائة

قلت : ومن يختار الفرس ؟

قال : هم يختارون الفرس الذي يريدون ، ولا فرق عندنا بذلك لان خيلنا كلهـا من اصل كريم مشهور

وصرفنا الوقت هنالك ثم عدنا عند الظهر الى المضارب وعندها دعانا الامير للغداء عنده قائلا : اليوم غداء كم عندي شيء جديد لم تأكلوه بعد

قلت : ما هو هذا الغداء الجديد ؟

قال : خروف صغير

فاجبته ضاحكا : لم نأكل غير هذه الاكلة كل مدة وجودنا في الجزيرة

قال : لم تأكلوا مثلها ابداً هذا يسمونه (خروف بحيره) يسمونه الشوام (قوزه)

قلت : كيف تهيئونه ؟



بيت السهرة في شمر

اجاب: نلف الخروف بجلده دون تقطيع ونطبخه تحت التراب على نار خفيفة تحيط به وبعد الغداء اخبروني ما اذا كان اكلتم مثلها قبل الان

تناولنا الطعام على مائدة الامير وكان الاكل لذيذاً للغاية وعند الساعة الرابعة جاءنا الامير يشرب معنا الشاي ومكث عندنا الى الساعة الثامنة مساء ثم سرنا برفقته الى خيمة الطعام وتعشينا على مائدته واحيا لنا ليلة طرب ثانية

٢٢ نيسان

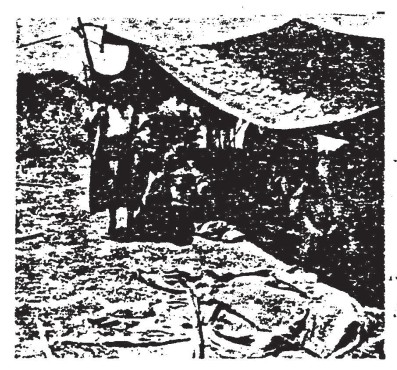
كنا عازمين على الرحيل في صباح ذلك اليوم ولكن الامير حال دون سفرنا مدعياً ان عادة الضيافة عندهم ثلاثة ايام كاملة

وكان الامير عندنا حوالي الساعة التاسعة صباحاً فشربنا القهوة معاً . وحوالي الساعة العاشرة اقبل عبدان يقود كل منهما جوادين ، فقال الامير :

اركبوا جيادكم وهلموا بنا ، ففعلنا وركب الامير جواده وسرنا واياه والعبدين وكانت وجهتنا الناحية الغربية من القبيلة

وانتهينا الى محل فسيح فشاهدنا جمهوراً من الناس يحيطون بعدد عظيم من الفرسان، وكان ذلك المكان ميداناً للسباق وقد اعدته القبيلة لترويض جيادها

وعندها التفت الي الامير وقال : اننا نحذو حذو جماعة الحضر فيما يختص بسباق الخيل ولذا تراننا جهزنا هذه الساحة على الطراز الحديث المعمول به في المدن العامرة



ينشفون الجبن فوق بيت الشعر

وجميع هذه الجياد التي
ترونها في هذا الميدان تباع
في الهند لجماعة الانكليز

قلت : وهل تذهبون
الى الهند تبيعونها ؟

قال : كلا ، ولكن
قوما متعهدين بشتراهـا
ياخذونها منا ويحفظونها في
الموصل فيأتي اناس من الهند
يبتاعونها . وحين وصولكم
الى الموصل تشاهدوا
الاخورات الكبيرة وفيها سائر اجناس الخيل .

وشهدنا السباق فاذا هو صورة طبق الاصل للسباق في الاسكندرية او في القاهرة وعدنا من الميدان الى المضارب و كان الظهر قد فات فقال الشيخ اني محضر لكم غذاء جديداً لم تأكلوا مثله في الجزيرة . فذهبنا الى خيمة الاكل و كانت الساعة الثانية بعد الظهر واكلنا على مائدة الامير عصافيراً قدموها في صواني صغيرة صينية لكل من المدعوين وعلى كل صينية كمية من العصافير مجهزة بالسمن

قلت : ما هذه العصافير ؟

قال : عادية

قلت : كيف تلتقطونها بهذه الكميات :

قال : بعد الظهر اريكم كيف نجمعها

ثم بعد الغذاء ذهبنا الى خيامنا ناخذ قسطنا من الراحة .

وعند الساعة الرابعة اقبل الامير لتناول الشاي كعادتنا ثم سار بنا الى الجهة الجنوبية من القبيلة ، وما انتهينا الى مهل فسيح حتى شاهدنا بعض نواطير القبيلة ينصبون شراكا يصطادون فيها العصافير الصغيرة ، وما مر نصف ساعة على عملهم هذا حتى التقطوا نحواً

من الفي عصفور ، وقد امر الامير ان ترسل هذه العصافير لنا لنأخذها زاداً الى الموصل فاخذنا قسما منها وشكرناه على ذلك

وعند الساعة السادسة مساء رجعنا الى المضارب فطلبنا من الشيخ ان يتعشى عندنا فقبل دعوتنا . وفي الاجل المضروب دخل علينا بواكبه بعض مشايخ القبيلة واركانها وبعد العشاء امر باحضار المغنين والراقصين فجاؤا واحيوا الليلة طرب ثالثة دامت الى منتصف الليل

٢٣ نيسان

حوالي الساعة السادسة صباحاً اقبل الشيخ محمد وكنا قد تأهبنا للرحيل وبعد ان شربنا القهوة قال الشيخ

لقد اعددت خمسين من فرساني لمرافقتكم الى الموصل

قلت : لا نريد التثقيل عليكم يا سيدي الامير وليس ما يدعو الى ارسال



الرقص بالسيوف في شمر

هؤلاء الفرسان لمرافقتنا . على انه يكون لنا اكبر شرف اذا تنازلتم ورافقتمونا بذاتكم

قال حسناً . فاني ارافقكم بذاتي

ثم امر فاحضروا له فرساً كريماً . ولما تهيأنا للسفر التفت الي وقال : رويداً . لقد قدمت لي هدية فقبلتها شاكراً . واني اريد ان اقدم لك هدية تحفظها تذكاراً لهذه الزيارة . وما انجز قوله هذا حتى رأيت عبداً يقود فرساً جميلا وقد دنا مني وسلمني مقود الفرس فقبلت هدية الامير ممتناً لمعروفه

وركبت الفرس الجديد وسرت ورفيقي والامير والى جانبه عبدان من اشجع الفرسان ووراءهما خمسون فارساً من قبيلة الامير . وكانت الساعة الثامنة صباحاً . وعند الظهر كنا

على مقربة من ينبوع ماء عذب غزير يتدفق في وسط غابة كثيفة فترجلنا نتناول طعامنا في تلك الروضة الجميلة ٠ ثم عدنا الى المسير فانتهينا الى الموصل عند الساعة الخامسة مساء فنصبنا خيامنا على ضفة دجلة الشرقيـة امام « نينوى » وقـد قضينا ليلتنا مضطربين لاننا علمنا بعد نصب الخيام ان في دجلة مداً وجذراً فخشينـا ان يأتينا النهر بمده فيغمر خيامنا واشياءنا



بدوي يرقص بالسيوف في شمر

واحب السائح ان يطلع على بعض عادات تتعلق بالعربان فاوعز الي ان استفهم من الشيخ عما يلي:

اذا وقع خلاف بين قبيلتين كيف يحسمونه ٠ واذا قتل بدوي بدويا من غـير قبيلة كيف يكون القضاء ؟

اجاب الشيخ : العـدل عندنا اساس كل عمل ٠ غير ان رأس الشريف برأسين عند العرب جميعهم ٠

ولعرب البادية طرائق في المحاكمة وتقاليد يحترمهـا الجميع الى يومنا هـذا فاذا وقـع الخصام بين قبيلتين تنتميان الى ملك واحد من ملوك العرب فصل الخصام في ديوان الملك الخاص ٠

يخضون السمن في شمر

اما القبائل لمنتشرة في ارضي الجزيرة فهي لا تنتمي الى ملك من الملوك وطريقة احكامها هكذا . تنتخب كل من القبيلتين المتخاصمتين اثني عشر رجلا منها لاثبات دعواها فيكون مجموع الفريقين اربعة وعشرين رجلا ينقسمون الى ثلاث فئات . كل ثمانية رجال يؤلفون فئة ويكون اربعة منهم من كل فريق وقد اطلقوا على الفئة الاولى اسم « الجزامين » وعلى الثانيـة اسم « المخبرين » وعلى الثالثة اسم « المساوين » ويقسم الجميع بالقرآن الشريف انهم يحكمون بالعدل والانصاف

ثم يجزم الجزامون في نوع القضية ، ويشهد المخبرون بما يعلمون من اثرها ثم يصدر المساوون حكمهم الذي لا يقبل اعتراضاً او استئنافاً او تمييزاً

الفصل الرابع

الموصل وجوارها

٢٤ نيسان — ١٢ ايار سنة ١٩١٤

نبذة تاريخية عن الموصل ونينوى — نهر دجلة — دار القنصلية — مناخ الموصل — السرداب — الخيول — الحمى من مياه دجلة — الاخورات دلالة الدواب والماشية — مقالع الرخام — مسيحيو الموصل الاكليروس — الامن العام — قلعة النمرود — التعارف على رجال اليزيدية — زيارة الشيخ عدي — اليزيدية والشيطان

٢٤ نيسان

نهضنا باكراً جداً فرأينا الشيخ محمد شيوخ يتأهب للرجوع الى قبيلته فرجونا منه ان يقضي نهاره عندنا فابى معتذراً بوفرة اشغال تدعوه الى الرجوع بدون ما ابطاء فلم يسعنا اذ ذاك ان نلح عليه للبقاء عندنا ، وقال لنا قبل الوداع : انني مستعد لخدمتكم بكل طاقتي واتمنى ان اراكم مرة اخرى في الجزيرة

اجبت : اننا راجعون على طريق الجبال العالية ولربما التقينا حوالي الجزيرة على ضفة الفرات الشرقية

قال : ربما كان ذلك لاننا لا نعبر الفرات كقبيلة ،اما كافراد (ما يخالف)

وعندها دنا من الفرس وقبله باكياً وقال : اعتني بهذا الفرس فهو يستحق كل عناية و كل اهتمام وودعنا وهو يقول : « الى الملتقى ! الى الملتقى ! »

نبذة تاريخية عن نينوى والموصل

تقع الموصل على ضفة دجلة الغربيـة وهي مركز الولاية المعروفة باسمها · اكثر سكانها من المسلمين واقليتهم من طوائف مختلفة · فيها ينابيع بترول كثيرة عزت شانًا في عهد الخلفاء فكادت تضمن استقلالها · استولى عليها بنو حمدان سنة ٩٣٤ ثم اخذها منهم العقيليون السواريون سنة ٩٩٠ · ثم سقطت في ايدي السلجوقيين في القرن الحادي عشر ومر عليها عصر الاتابك زنكي وازدهرت في القرن الثاني عشر لكنها لم تقو على مقاومة صلاح الدين الذي دوخها سنة ١١٨٢ اسوة بغيرها من المدائن السورية والعراقية وبعد صلاح الدين تملك عليها الاتراك ثم استولى عليها الاعجام سنة ١٦٢٣ واسترجعها بعد قليل السلطان مراد الرابع واستأنف الاعجام كرتهم عليها سنة ١٧٤٣ ولكنهم فشلوا وعادوا خاسرين فظلت تحت سلطة الاتراك حتى نهاية الحرب الكونية وقد استقلت اليوم وعينت جمعية الامم الدولة الانكليزية منتدبة عليها

ونينوى لفظة اشورية وقد دعاها اليونانيون نينوس والعرب يسمونها نينوى حسب اصلها · وكانت فيما عـبر اعظم المدائن الاشورية ومطلع مجدها وعظمتها يعود الى عهد سنحاريب · ويستدل من الكتابات التي عثروا عليها ان المدينة بنيت على انقاض مدينة سابقة فنظمها سنحاريب مجددًا بناءها وبناء اسوارها فاصبحت في ايامه عاصمة مملكة اشور وظلت نينوى على ازدهارها وعظمتها الى ان اضمحلت مملكة اشور بين سنة ٦٢٦ وسنة ٦٠٦ قبل المسيح · وجاء في التوراة في سفر يونان ان مساحة نينوى تبلغ اياماً ثلاثة · [1] ويظهر ان الكتاب الكريم يعني المدينة وضواحيها الواقعة بين دجلة والزاب بما فيها قلعة النمرود وخورسباد ·

وفي نينوى الى اليوم بناء من عهد القرن الثاني عشر وهو البناء الذي نزل فيه ابن جبير حين استولى على المدينة

---

(١) الفصل الثالث من سفر يونان ·

وكانت كلمة الرب الى يونان ثانية قائلا قم وانطلق الى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها المناداة التي انا مكلمك بها (فان شرها قد صعد الى امامي) فقام يونان وانطلق الى نينوى بحسب كلمة الرب وكانت نينوى مدينة عظيمة لله مسيرة ثلاثة ايام

اما دائرة السور فهي على التقريب اثنا عشر ميلا وعلوه يبلغ اربعين قدماً ونصف القدم

واهم ما بقي هنالك من الاثار قلعتان قائمتان على دجـلة قلعة قبلية وتعرف الان بتل النبي يونس وقلعة شمالية تدعى تل قوينجق وتتصل هذه الاخيرة بقصور الملكين سنحاريب واشور بانيبال ، وفي داخل قصر اشور بانيبال اكتشف السر هنري لايارد سنة ١٨٤٠ مكتبة نينوى الملكية وكان قد انشأها سرجون في القرن السابع قبل المسيح

وتتصل اليوم قلعة النبي يونس بقرية تركمان وفيها قصر سنحاريب ، ويقال ان النبي يونان مدفون هنالك تحت الجامع المشيد في تلك البناية ، ولهذا سمي بالنبي يونس

وفي هذا الجامع سجاد فاخر وقد حفظ من عهد تدشين الكنيسة التي تحولت الى جامع تفقدنا الاثار المذكورة اعلاه وغيرها من الاثار التي تستحق الذكر وعدنا الى خيامنا نتناول طعام الظهر

وحوالي الساعة الرابعة مساء جاءنا ترجمان قنصلية روسيا يزورنا ويتفقد احوالنـا وكان حينذاك وكيلا للقنصلية ، وقد دعانا للاقامة في الدار القنصلية قائلا انها فارغـة لان القنصل كان قد نقل الى بغداد وكان لا ينتظر مجيء خليفته قبل مرور شهرين على الاقل ، فقبلنا دعوته شاكرين

اما نهر دجلة فانه يختلف تكويناً عن سائر الانهر الكبيرة · فـانه من ينبوعه الى مصبه يرتفع عن الاراضي التي يمر بها بنوع ان رجلا بيده مجرفة يستطيع ان يحول منه ما شاء من مياهه ويسقي بها الاراضي التي يريد ان يسقيها فلا يحتاج والحـالة هذه الى استخدام الالات المحركة ··· ومياه دجلة عاطلة جداً فلا تصلح للشرب والويل لغريب ذاقها لاول مرة · اما سكان تلك البلاد فقد تعودوا شربهـا منذ الصغر فهي لا تؤذيهم ومع ذلك فانهم يروقونها ويصفونها في آنية فخارية

وفي الموصل وكلاء قناصل لسائر الدول الاجنبية الكبرى التي لها مصالح في البلاد الشرقية · والمزروعات هنالك قسمان · الاول وهو الاكبر يزرع تحت مناظرة الاكليروس المسيحي فلا يدع رجاله شبراً واحداً من الاراضي بدون زراعة

والقسم الثاني — وهو قليل جداً — في حوزة الفلاحين من اليهود والمسيحيين ·

اما الاهالي اصحاب الاملاك الواسعة فانهم لا يكترثون بالزراعة لانهم ينصرفون الى اشغال غيرها · واكثر زراعة تلك البلاد الحنطة · ويزرعون الارز في اراض قليلة

وهو كبير الحجم ذهبي اللون رخيص الثمن يساوي الرطل الموصلي اي ثلاث اقات ثلاثة غروش تركية · والخضرة والبقول قليلة جداً رغم السهول الخصبة ووفرة المياه · ذلك ناجم عن كسل الاهالي وعدم ميلهم الى الزراعة فانهم يفضلون اكل اللحوم على اكل الخضر والبقول · وفي ايام الخضر يكون الحر شديداً جداً في تلك المنطقة فيعيش الاهالي آنذاك في السراديب · والسرداب هناك كناية عن بئر في وسط البيت وقلما خلا بيت منه · ينزلون اليه من سلم · يتراوح عمقه بين المترين والاربعة وشكله شكل غرفة مربعة · وفي هذه السراديب يقضي الاهالي نهارهم من الساعة العاشرة صباحاً الى الرابعة مساء · واذا زارهم زائر في ذلك الوقت استقبلوه في السرداب وهو مفروش بالرياش الفاخر · ومناخ الموصل معتدل لا يمكن تسميته جيداً او رديئاً · ويرد الى تلك المدينة كثير من الخيول العربية المتنوعة التي تبيعها القبائل باسعار تافهة · ويخبزون الخبز على التنور (مرقوق) الرطل الموصلي منه يباع بمتليكين اي نصف غرش تركي وهو ابيض نظيف من حنطة خالصة وطعم لذيذ جداً

٢٥ نيسان

اهتم رجالنا بتنظيف الدار القنصلية ، وهذه الدار كائنة في الناحية الغربية من المدينة وهي كناية عن دار فسيحة مربعة ارضها مبلطة بالرخام الابيض · ويتألف جانبها الشرقي من طابقين اما البقية من طابق واحد وطولها خمسة وستون متراً بعرض خمسين · وفيها غرف عديدة تشبه غرف منازل بيروت الجميلة

وشعرت في ذلك المساء بدور من الحمى الزمني الفراش وعدم الحركة وارتفعت الحمى في اثناء الليل الى ٤١ في قياس سنتغراد ، وبقي خليل شاوول سهران بقربي يقدم الي المساعدات اللازمة طيلة الليل كله

٢٦ نيسان

كنت لا ازال منحرف الصحة لا استطيع الخروج الى المدينة فلم يشأ رفيقي السائح ان يخرج لوحده فلزم الدار في ذلك اليوم

وبعد الظهر جاءنا الترجمان يزورنا فوجدني نائماً فقال ان الحمى ناجمة عن شربي ماء دجلة ، ومما قاله لي : الحمد لله فان مسألتك بسيطة جداً لان كثيرين من الاجانب

يذوقون كأس الموت لشربهم ذاك الماء بدون ترويقه . ولما هم الترجمان ان يودعنا رجوت منه ان يأتينا في الغد ليرافق السائح الى المدينة فلربما حال المرض دون خروجي من الدار فوعدني خيراً وانصرف

٢٧ نيسان

جاءنا الترجمان حوالي الساعة الثامنة صباحاً فوجدني متأهباً للخروج الى المدينة فسر لسلامتي وقلت له : اني اراني مرتاحاً ولذا فاني ارغب في مرافقتكم وذلك خير لي من الانزواء في غرفتي

وعند الساعة التاسعة ركبنا وذهبنا تواً الى الاخورات التي ذكرها لنا الشيخ محمد شيوخ ، انتهينا الى الاخور الاول فقيل لنا ان فيه اربعمائة فرس وراء كل منها مهر او مهرة . ومدخل الاخور عال متسع والى جانبيه من الداخل غرفتان كبيرتان جداً يقيم في الشمالية منهما مدير الاخور وهو المسؤول عن ادارة الاخور وتنظيفه وسياسة خيله .

وفي الغرفة اليمنى يقيم صاحب المال او المتعهد وهي مفروشة فرشاً لائقاً لاستقبال الزائرين . ولا يتعاطى المتعهد سوى مشترى الخيل وبيعها

وفي داخل الاخور فسحة كبيرة جداً قامت في وسطها القناطر الكثيرة وكلها مسقوفة بالخشب والاجر والى جدران تلك الفسحة قامت المعالف والى جانب كل معلف حوض للماء من الحجر النظيف . والخيل كلها قوية صحيحة البنية وفي غاية النظافة

وقصدنا الى آخور آخر فوجدناه منظماً تنظيم الاول ولم يكن فيه سوى ثلاثمائه فرس تتراوح اعمارها بين ثلاث واربع سنوات

ثم سرنا نحواً من الف متر فانتهينا الى آخور معد للتوليد فلا بيع هنالك ولا شراء وفي الاخور هذا ثلاثمائه من اخر الجياد . ومن كان عنده انثى ورام انسالها نسلا كريماً ذهب بها الى ذاك الاخور واستحصل على شهادة تؤذن بان انثاه علقت من احد جياد الاخور .

ثم ذهبنا الى آخور رابع فقيل لنا انه مختص بتربية الخيل من يوم فطام الفلو الى ان يصبح صالحاً للركوب . وقد فرضوا الرسوم المختلفة على تربية الخيل

ويمنع قطعياً اخراج الاناث من البلاد على انه لا يخلو الامر من تهريب شيء منها اما

الذكور فانها تباع باكثريتها في الهند

بعد زيارة الاخورات عدنا والترجمان الى الدار لتناول طعام الظهر . اكلنا ثم اخذنا قسطنا من الراحة . وعند الساعة الثالثة قصدنا الى سوق الدلالة ويسمونه « الشط » لقيامه على مقربة من النهر وهو مكان فسيح منبسط ضم اليه جميع اجناس الماشية من خيل وبغال وحمير وجمال وبقر وجاموس وغنم وماعز الخ ولكل من هذه الاجناس سوقه بكل لوازمه وادواته

دلالة الخيل : لا يعرض منها للبيع في الدلالة الا ما رفض قبوله في آخورات المتعهدين يصيح الدلال منادياً : حصان لونه كذا عمره كذا من الرسن الفلاني تربى في القبيلة الفلانية امه فلانه ابوه فلان موجود الان في المحل الفلاني مدفوع فيه كذا . وهنا تبتدىء المزايدة العلنية

دلالة البغال : بغلة للركوب امها فلانه ابوها الحصان او الحمار الفلاني . ومما يلفت الانظار ان البغال في الموصل مرغوب في ركوبها اكثر من الخيل لانها اوسع ظهراً واسهل ركوباً

والجاموس : الموجود على شاطىء دجلة اكبر حجماً من جاموس بركة الحولة وضفاف النيل ، واكثره سمين وحليبه لذيذ جداً

وهناك جاموس يستخدمونه لجر مركبات النقل واكثر النقليات بواسطة الجاموس في المدينة وجوارها . وفي القرى الصغيرة يستخدمون الجاموس للركوب والنقل

والبقر : هناك كثير جداً ويستخدم للحراثة لان الشعب يأكل لحمه قليلا وهو يفضل اكل لحوم الغنم والماعز

واسعار البقر في تلك البلاد رخيصة جداً فلا تكاد توازي ربع الاسعار في البقاع وعكار

الغنم : حيوان مرغوب فيه جداً في تلك الجهات ، وفي سوق الغنم نوعان : احدهما يرسل الى لبنان وسوريا وهو الغنم الاعتيادي من ابيض ومور والنوع الثاني هو المرعز وهو جميل الصوف ناعمه وطويله وله زغبرة ظريفة الشكل وثمنه يوازي ضعفي الغنم الذي يستجلبونه الى بلادنا ، وهذا النوع يشتريه العربان من سائر القبائل فانهم يستخدمون

صوفه لحياكة البستهم ومروج خيلهم وشأنه هناك شأن وبر الجمال

الماعز : يستخدمونه للاكل والانتفاع من شعره ولا تبيع القبائل الا الذكور محتفظة بالاناث فتمزج حليبها بحليب الغنم وسمنهـا بسمن الغنم ايضاً . وقلما شاهدت في السوق عنزة حلوباً برسم البيع بالدلالة

الحمير : هي نادرة في تلك البلاد وبالنتيجة غالية الثمن . ويستخدمونهـا لنقل التراب والسماد والحجارة في داخل اسواق المدينة وثمن الحمار هنالك ثلاث اضعاف ثمن البغل

وبعد تفقد سوق الدلالة عدنا الى الدار وكانت الساعة السابعة مساء

٢٨ نيسان

عند الساعة السابعة صباحاً قدم علينا الترجمان يريد الذهاب بنـا الى مقالع الرخام فشربنا القهوة معاً ثم ركبنا جيادنا وسرنا . وبعد ساعة كنا عند المقالع

والرخام هناك نوعان اسود وابيض ، اما الاسود فقاتم اللون واما الابيض فاسمره . وفي المقالع عمال اختصاصيون يقتلعون الرخام طبقات طبقات وسماكته ليست بمعتبرة فهي لا تتجاوز عشرة سنتيمترات اما الطول والعرض فانها على اقيسة مختلفة كبيرة ومتوسطة وصغيرة ويقطع العمال الرخام بمنشار من خشب يعاونونه بالرمل والمـاء . وسعر الرخام رخيص وهم يستخدمونه لتبليط الدور والغرف والطاولات الطعام وغيرها

وفي رجوعنا مررنا بمركز الولاية فشاهدنا هناك ما نشاهده في غيره من مراكز الولايات العثمانية ، الدوائر القضائية والادارية والعسكرية وهلم جراً

اكثر السكان مسلمون وهم اصحاب الثروة والمال والجاه والحل والربط في التجـارة والسياسة والاشغال العامة ويتعاطى المسيحيون بعض المصالح الصغيرة القليلة المورد كانواع الصناعات والخياطة ولا سيما الخياطة العسكرية والارمن هم ذوو الشأن فيما يختص بالخياطة العسكرية . وليس هناك للمسيحيين الوطنيين على اختلاف مذاهبهم من قيمة او مقام في اعين الشعب المسلم

٢٩ نيسان

عند الساعة الثامنة صباحاً قدم الترجمان فشربنا القهوة معـاً ثم خرجنا وجهتنا دار الرسالة الاميركانية البروتستانية وقد شيدها جماعة من الاميركيين وتركوها لقوم من

الوطنيين يدينون بمذهبهم • وهي كناية عن دار عادية فيها معبد صغير • فاستقبلنا عند المدخل قسيس وطني ودعانا الى الاستراحة في قاعة صغيرة • فطلبت منه بعض الافادات عن الاكليروس المسيحي في تلك الاراضي - فاجابني :

تتألف الطوائف المسيحية الوطنية في هذه البقعة من :

كلدان، فاشوريين ، فيعاقبة ، فارمن ، وسريان

والكلدان — الاشوريون قسمان : قدماء وهم النساطرة الخاضعين اليوم الى سلطة زعيمهم الديني والدنيوي مار شمعون • فان طقوسهم ما زالت باللغة الكلدانية الاشورية وقريبة من الطقوس الارثوذكسية

والكلدان الكاثوليك هم الخاضعون لسلطة البابا ولهم بطريركهم الخاص مركزه الدائم في الموصل

اما اليعاقبة — السريان يقسمون الى قسمين ارثوذكس ومعروفين باليعاقبة اي السريان القديم والسريان المعروفين بالكاثوليك الذين انشقوا من الكنيسة اليعقوبية او السريانية الارثوذكس

لمحة تاريخية عن الكنيسة السريانيه الارثوذكسية

ان السريان هم احفاد الاشوريين القدماء لهم في التاريخ القديم ذكر لامع بسطوا سيطرتهم انذاك على الاديار الشرقية ما برحت آثار سؤددهم ظاهرة بما بقي من مكتوبات لغتهم سواء كان في الطروس الراقية او الاكتشافات القديمة • وقد اخذ السريان المسيحية في القرن الاول وكانت بلادهم تشمل سورية على اختلاف اقسامها والجزيرة وما بين النهرين واشور المعروفة اليوم ببلاد الموصل ومادي واذربيجان وهي المسماة الان كردستان والعراق التي كانت قديمًا تسمى بلاد بابل • وكان سكانها يومًا يتكلمون اللغة السريانية قاطبة ما عدا بعض اهل المدن الكبيرة الذين كانوا يتكلمون اليونانية • وكانت الرها « اداسا » اليوم اورفا مركز العلوم السريانية الدينية والدنيوية واهلها كانوا يتكلمون السريانية • ولقد انقسمت البلاد السريانية الى قسمين شرقية وغربية فالغربية كان حدها من البحر الى نهر الفرات والباقي هو القسمة الشرقية

كان يسوس هـذه الطائفة كلها بطريرك واحد مستقل وهو البطريرك الانطاكي

« نسبة الى مدينة انطاكية التي هي اقدم الكراسي المسيحية بلا منازع . وفيها لقب النصارى مسيحيون لاول مرة (اعمال الرسل ص ١١ : ٢٥) ومنها ابتدأ الجولان للتبشير خارج اورشليم (اعمال ص ١٣ : ٤) ولم يكن بطريرك سواه في البلاد السريانية . وكان نفوذه يعم جميع بلاد المشرق ، من ساحل البحر الابيض المتوسط غرباً الى اقصى مملكة فارس شرقاً ، ومن كيليكيا وارمينيا شمالا الى حدود فلسطين جنوباً ، وتشمل سلطته جميع الامم الموجودين في هذه الاصقاع من اي جنس وقبيلة كانوا

غير ان سمو المعاني التي تضمنتها العقائد المسيحية وعدم وجود تحديدات لضبط تلك المعاني في الدورين الاول والثاني ، وحماسة الاولين وعدم تأني احدهم على الاخر . ادت الى ظهور اختلافات في التعبير عن مبادىء المسيحية وتشبث كل فريق من المتنازعين بالصورة التي ظنها تؤدي المعنى المقصود فنتج عن ذلك انقسامات في الطائفة السريانية . وادت الى ظهور عدة طوائف وتحولت تلك القوة العظيمة المتحدة التي لم تكن تقتحم الى اجزاء صغيرة تطرق اليها الوهن والضعف ، ولا سيما بعد ما اخذت كل منها للايقاع بالاخرى وتسعى لتنكيس اعلامها بما تصل اليه اليد . اما الطوائف التي انسلخت عن الطائفة السريانية هي : اولا — النسطورية التي تحزبت الى مذهب نسطور بطريرك القسطنطينية الذي حرمه المجمع الافسي الثالث سنة ٤٢٨ — ٤٣١ م

ثانياً — المارونية التي هي ارومة الشجرة السريانية الثانية انفصلت عنها بزعامة الراهب يوحنا مارون الذي كان ابناً لاغاتون حاكم ساروم وخالا للامير ابرهيم زعيم الموارنة ، فاعتصم الموارنة في جبل لبنان بعد ما اضطهدوا من اخوانهم السريان واقاموا اول اسقف عليهم سنة ٦٨٥ . غير انهم لم يتصلوا بالكنيسة البابوية مبدئياً الا بعد فتح الصليبية سنة ١١٨٢ وارتبطوا بالكنيسة البابوية نهائياً بفضل الارساليات اللاتينية واعطي بطريركهم لقب البطريرك الانطاكي اسوة في بطريرك انطاكية السريان ولقبت كنيستهم بالمارونية نسبة الى زعيمهم مارون المذكور . ومما يدعو للاسف اليوم

ان لقب مارون يتخذونه الى مذهبهم وجنسيتهم ونسوا بانهم كانوا يوماً احفاد الاشوريين « السريان »

ثالثاً — الطائفة الكلدانية التي سبق الكلام عنها انسلخت عن النسطورية الحاكمة آنئذ في اجيال متتابعة واستقلت بادارتها واتخذت لها القوش قرب الموصل مركزاً بطريركياً وظلوا يتولون المنصب واحداً بعد الاخر الى سنة ١٨٠٢ حتى انحاز ايليا الثالث عشر بطريركهم الى البابوية، وتخذوا لهم لقب الكلدان نسبة الى اجدادهم الكلدانيين سكان بابل تمييزاً لهم عن النساطرة

رابعاً — السريان الكاثوليك

لم ينقض جيل الا وداهمت البلوى الطائفة السريانية واضعفت فيها روح الاستقلال الذي تعززه الوحدة ويميته الانقسام . فاخذ ابناء الامة السريانية يميلون الى كل من يرون فيه القوة يستنجدونه لمقاومة ابناء جنسهم فدان بعضهم بالاسلامية وبعضهم بالارمنية الى ان جاء ايضاً اندراوس اخي جان الذي تبع البابا ورسمه بطريرك الموارنه قسيساً سنة ١٦٤٩ وفي سنة ١٦٦٤ سامه البطريرك المذكور بطريركا على طائفة مستحدثة كانت في عالم الخيال . وقد وصفه احد مطارنة طائفته وهو غريغوريوس جرجس شاهين في كتابه « نهج الوسيم » بكل صفة ممقوتة ومنها انه كان ساحراً . ولما مات سنة ١٦٧٧ خلفه بطرس ومات هذا الاخير سنة ١٧٠١ فتوقفت رومية عن رسامة بطريرك ثالث اذ لم يتبعها في مدة هذا وذاك احد من السريان

غير ان جهاد الارساليات الكاثوليكية البابوية لم تقف عند هذا الحد بل واصلت عملها بنشاط حتى سنة ١٧٨٣ حيث انضم اليها ميخائيل جروه مطران حلب واربعة اساقفة معه وانتخب ميخائيل زعيمهم بطريركا عليهم وايده البابا بيوس السادس . فابتدأ هذا بدوره يجاهد بين شعبنا المستقل وانحاز لهم سريان حلب اولا وبعض افراد اخرين من الشعب في البلاد السريانية الاخرى . وقد لقبهم البابا باسم السريان الكاثوليك تمييزاً لهم عن السريان الارثوذكس . وهؤلاء بدورهم لقبونا بيعاقبة نسبة الى يعقوب البرادعي الذي ظهر في القرن السابع وقاوم اتباع المجمع الخلقيدوني الذي اعتبرته الكنيسة السريانية غير شرعي لانه لم يحضره اساقفة الشرق . ان الغاية من تسميتهم للسريان باليعاقبة

ليختصوا بكلة السريانية انفسهم • ويقدر عدد نفوس هذه الطائفة الجديدة بنحو ٢٥ الف نسمة معظمهم في الموصل وضواحيها والبقية مشتتين في انحاء الشرق

بطرس صومي

الراهب الاشوري

«ان الاب الراهب بطرس صومي الموجود حالياً في اورشليم هو قطب من اقطاب الامة الاشورية فهو عالم في ابحاثه مدقق في تحرياته وثابت في اخلاصه لامته التي لم يتردد يوماً في تضحية كل شيء في سبيل اسعادها وينظر الى جميع فروع امته على اختلافها بعين واحدة هو شاب في سنه ولكنه شيخ في اختباراته»

والارمن اربعة اقسام : قدماء وكاثوليك وارثوذكس وبروتستانت • والفرق بين القدماء والكاثوليك ان هؤلاء خاضعون للبابا وان القدماء ليسوا كذلك • والارثوذكس والبروتستانت مثل اخوانهم من بقية الطوائف

ولكل من هذه الطوائف اكليروس يتألف من كهنة واساقفة وبطاركة ما عدا البروتستانت الذين لا بطريرك لهم

وروما وفرنسا تساعدان الطوائف الكاثوليكية مادياً وادبياً • وروسيا تساعد الارثوذكس واميركا وانكلترة تساعدان البروتستانت

قلت : وكيف يعيش الاكليروس في هذه البلاد وما هي وارداته ؟

قال: يعيش خدمة الرعايا من مساعدات الشعب فانهم يخصصون لكل خادم رعية شيئاً من غلات الارض زد على هذا ان للشعب تقاليد قديمة ما زال متمسكاً بها فقد جرت العادة على تقديم شيء من المال لخادم الرعية في كل عيد من الاعياد السنوية الكبيرة ويسمون هذه الاعياد مواسم وهي : عيد رأس السنة فعيد الفصح فالعنصرة فعيد الميلاد • وما خلا ذلك ان لكل خادم رعية قطعة ارض هي ملكه الخاص ويتبعها شيء من الماشية وهكذا يعيش خدمة الرعايا

اما الرهبان فلهم اديار كثيرة متينة البناء تكاد تشبه القلاع الحصينة • وموقع هذه الاديار كلها في البراري والاماكن المنفردة وهي لذلك معرضة لهجمات العربان وتعدياتهم فاضطر اربابها ان يجعلوها شبيهة بالقلاع الحصينة

وفي تلك الاديار يقيم بطاركة الطوائف واساقفتهم وهم بذلك معززون ، وعندما يركب اسقف منهم يواكبه عدد كبير من الرهبان متقلدين باسلحتهم ومرتدين ثوباً ابيض يميزهم عن بقية الشعب

ويشبه موكب الاسقف موكب امير احدى القبائل بدون ما نقصان ، وهذه العادات متبعة عند جميع الطوائف المسيحية بدون استثناء

والمسيحيون هنا افقر سائر الشعوب حتى ان اليهود الذين هم اقل منهم عدداً اوفر منهم ثروة واغنى مالا واطياناً



قصر الشاغور

حمانا — لبنان

لصاحبها

الدكتور الياس بك عاد



قائم على كنف وادي حمانا على ضفة الشاغور مجهز بجميع وسائل الراحة يفتح صيفاً وشتاء .

ويتبعه قهوة جميلة يمر الشاغور في وسطها . يصب في اولها الشلالات منارة بالكهرباء — ماء جارية

وبعد زيارة دار تلك الرسالة عدنا الى الدار القنصلية نتناول طعـام الغداء ونرتاح قليلا على اسرتنا

وحوالي الساعة الرابعة مساء قصدنا الى دائرة الامن العام للاطلاع على حالة البلاد من حيث الذهاب والاياب . فطلبنا مقابلة مدير الدائرة وكان شاباً من الاتراك جميل الطلعة لين الجانب متعلما مهذباً فقلنا له :

هل من خوف علينا اذا رمنا ان نتجول ليلا حوالي المدينة ؟
اجاب اشير عليكم بعدم المسير ليلا مسافة عشرين متراً خارج المدينة
قلت : كيف يكون هذا وللدولة هنا عساكر عديدة ؟
قال : على الرغم من كل ما بذلناه في سبيل تعزيز الامن في هذه الاراضي ما زالت الحالة سيئة للغاية ولا تتعجبوا من قولي هذا فانكم تعلمون انه لو كان حول مدينة دمشق مثلا عصابة من اللصوص لعكرت صفو الامن هنالك اذ انـه لا يسع الدولة ان تقطع دابر العصابات العيائة بوجيز الزمن . وحالتنا هنا اصعب جداً من الحالة في دمشق لاننا عائشون بين شعب عديد كثير العصابات واسع الاراضي وقد تعود النهب والسلب والتعدي على الشرف والحياة . فلا يسعنا تغيير اخلاقه بقصير المدة . وكانت الحالة في داخل المدينة كما هي الان في خارجها وبفضل المساعي والجهود العظيمة اصبحت المدينة آمنة ليلاً ونهاراً .

قلت : ومن يعكر صفاء الامن حوالي المدينة أهم اهلها ام الاغراب ؟
قال : جيرة الموصل تتألف من الاكراد ومن اليزيدية ومن بعض القبائل العربية السافلة وكل من هذه الشعوب يخشى شره ويصعب علينا جداً اكتشاف الجناة نظراً لوفرة عدد الاشقياء والمجرمين . وحياة المسيحي هنا اشد تعرضاً للاخطار من حياة كل شعب آخر .

قلت : أليس بين اولئك القوم من اناس عقلاء يساعدونكم على تعزيز الامن؟
قال : عقلاؤهم و كبارهم جميعهم رؤساء عصابات والسلام

وبعد ان مكثنا ساعة عند مدير الامن العام ودعناه شاكرين وانصرفنـا عائدين الى مركزنا .

٣٠ نيسان

صبحنا الترجمان عند الساعة السابعة وشربنا القهوة معاً وطلبنا منه ان يذهب بمعيتنا الى قلعة النمرود وهي تبعد عن الموصل زهاء عشرين ميلاً · ولما كان الجواد لا يقطع في الساعة سوى ثلاثة اميال حسبنا لذهابنا سبع ساعات وسبعاً لايابنا وساعتين على الاقل للاستراحة وتناول الطعام فاصطحبنا قسماً من رجالنا لقضاء حاجاتنا في تلك الرحلة تاركين القسم الآخر في الموصل · وخرجنا الساعة الثامنة صباحاً ومررنا على ضفة دجله وكان النهار جميلاً ومنظر الطبيعة بديعاً · وتناولنا الطعام عند الساعة الواحدة بعد الظهر واسترحنا قليلا ثم تابعنا المسير فانتهينا الى قلعة النمرود عند الساعة الرابعة مساء وبعثنا برجالنا الى قرية قريبة تدعى بهنام ينصبون فيها الخيام ويعدون لنا العشاء

قلعة النمرود [١]

قامت سنة ١٣٠٠ قبل المسيح وكانت قبل نينوى قاعدة الحكم في عهد الاشوريين وكانت مدينة عظيمة شيدها الملك شلماناسار الاول · ثم خربت فجدد بناءها اشور ناصر بال وجعلها عاصمة لمملكه · وفي القلعة اصنام كثيرة متنوعة وفي جملتها ثيران لها رأس انسان واجنحة طيور مختلفة · صعدنا الى قمة قريبة فامتدت امام باصرتنا القلعة والمدينة وهو منظر فخم يبرهن على عظمة الاولين ومجدهم · وقد مكثنا هنالك نتفقد الاثار الى ان غربت شمس ذلك النهار وحينئذ تبعنا رجالنا الى حيث نصبوا الخيام واعدوا العشاء · وكان الحر شديداً للغاية والحشرات تعد بالملايين

١ ايار

ذهبنا باكراً نزور الدير القديم المعروف بدير مار بهنام والخاص بالطائفة الكلدانية ولا تزال هناك آثار الكنيسة القديمة ويعود تاريخ بناء الكنيسة الخالية الى سنة ١٢٠٠ بعد المسيح · وازاء الكنيسة من الخارج يقوم قبر يجهلون لمن هو

---

(١) قال الكتاب المقدس في الفصل العاشر من سفر التكوين :

وكوش ولد نمرود وهو اول جبار في الارض وكان جبار صيد امام الرب ولذلك يقال كنمرود جبار صيد امام الرب · وكان اول مملكته بابل واركوا كلة وكلنه في ارض شنعار ومن تلك الارض خرج اشور فبنى نينوى وساحات المدينة وكالح ورأسن بين نينوى وكالح وهي المدينة العظيمة

ومن الدير ذهبنا الى قرية قره قوش ٠ وهي على مسافة ستة اميال من قرية بهنام ٠ وفي قره قوش هياكل ثلاثة سابقة جداً لعهد المسيح وقد حولوها بعده الى كنائس جميلة الشكل والهندسة ٠ تناولنا طعام الظهر في قره قوش في ظلال اشجارها الكثيفة ثم رجعنا الى خيامنا في بهنام وبتنا هنالك ليلة ثانية

٢ ايار

عدنا فتفقدنا قلعة النمرود منعمين النظر في سائر آثارها ٠ وكان رجالنا قد تقدمونا راجعين الى الموصل فسرنا وراءهم تحت اشعة شمس محرقة لم تكن مياه دجله لتقوى على تخفيف شيء من حرارتها ٠ فانتهينا الى الموصل حوالي الساعة السابعة مساء وقد انهكنا التعب وازعجنا الحر ٠

٣ ايار

عصفت باكراً ريح شرقية حالت دون خروجنا من الدار فآثرنا البقاء في مركزنا وعن لي ان اوعز الى طباخنا باعداد طعام من الاطعمة اللبنانية ٠ فهيأ لنا العشي الكبة النية ومحشي الكوسى والفوارغ وقد كان رفيقي السائح مسروراً جداً من ذاك الغذاء فاكل منه ضعف ما اعتاد اكله ٠ وقمنا بعد الغذاء نرتاح في غرفنا ثم نهضنا وشرع كل منا يسطر تذكارات الرحلة الى قلعة النمرود

٤ ايار

بعث بعض رجال الدين يقولون لنا انهم عازمون على زيارتنا فلبثنا في الدار منتظرين وقد جاءنا منهم مطران الكلدان القدماء ومطران السريان ومطران اليعاقبة ودخل علينا جميعهم وقد تقلدوا ورهبانهم بمختلف الاسلحة على شاكلة امراء القبائل العربية · والرهبان يلبسون لباساً ابيض والخرطوش حول صدورهم · وقضى كل منهم في زيارته نحواً من ساعة كان في خلالها موضوع اكرامنا واحترامنا

٥ ايار

نهضت باكراً جداً واجتمعت الى السائح نعد خطة ليومنا وعند الساعة السابعة صباحاً قدم ترجمان قنصلية روسيا ودعانا ملحاً علينا لتناول طعام الظهر على مائدته فلم يسعنا الا تلبية الدعوة · وكان في جملة المدعوين بعض مشايخ اليزيدية الذين يجوبون القرى ويعرف هؤلاء « بالقوالة » من عادتهم اثناء تجوالهم في القرى والدساكر ان يحملوا تمثالاً بشكل الطاووس وهو رمز الى الشيطان الذي يعبدونه · وهم يجوبون القرى مرة

واحدة في كل عام جمعاً للمرتبات الدينية اي الاموال التي يعيش منهـا خدمة الدين • واثناء رجوعنا الى الدار مررنا بآخور رجل غني وجيه اسمه طاهر بك وهو من مشاهير متعهدي الخيل فوجدنا في ذلك الآخور اربعمائة جواد من احسن الخيل جنساً واصلاً • فاكرم طاهر بك وفادتنا وشرح لنا جلياً كيفية اشتغالهم مع الانكليز المقيمين في بلاد الهند • ومما عرفناه منه انهم لا يصدرون الى تلك البلاد اقل من الف رأس في السنة

٦ ايار

صحونا حوالي الساعة الخامسه صباحاً وعزمنا على السفر الى الشيخ عـدي كعبة الطائفة اليزيدية ومرجعها الديني الاعلى • وعند الساعة السابعة قدم الترجمان وشرب معنا القهوة فاعلمناه بقصدنا فاحب أن يرافقنا ، فخرجنا من المرصل حوالي الساعة الثامنة وكنا خمسة رجال : انا والسائح ودركي دليل حسب العادة واحد رجالنا يحمـل لنا الزاد على ظهر جواده • وسرنا سالكين ضفة دجلة الشرقية فكنا عند الساعة الواحدة بعد الظهر امام آثار « خورسباد دور شارو كين » قديماً او قلعة سارغون الثاني الذي حكم اشور من سنة ٧٢٠ الى سنة ٧٠٥ قبل المسيح — وقد اكتشف هذه القلعة أحـد المنقبين الافرنسيين سنة ١٨٤٣ ، تفقدنا الاثار فادهشنا عظمتها واذهلنـا بديع النقش الذي شاهدناه على حجارتها •

واخذنا هناك قسطنا من الراحة وتناولنا طعام الغداء ثم استطردنا المسير فانتهينا الى قرية كردية تدعى « باقيان » فيها قبور داخل الصخور وكتابات اشورية ونقوش مختلفة في جملتها اسم سنحاريب ملك اشور الذي حكم الاشوريين سنة ٧٠٥ الى ٦٨١ قبـل المسيح • ومن هناك تابعنا سفرنا الى الشيخ عدي فكنا فيها حوالي الساعة السابعة مساء فتوجهنا تواً الى دار الامير الزعيم الديني للطائفة اليزيدية • فوجدنا مدخل الدار مقفلا • وكان على احدى نوافذها بعض رجال الحرس فنزل احدهم يستقبلنا وقد تقلد بسلاحه وفتح الباب وسأل : من تطلبون ؟ فاجاب الترجمان : اننا قاصدون زيارة الامير فهل هو هنا ؟ قال الحارس : اهلا وسهلاً تفضلوا الى قاعة الانتظار ، وادخلنا ذاهباً بنا الى تلك القاعة حيث بتنا ننتظر قدوم الامير ، وفي اثناء ذلك التفت الي الترجمان وقال : ربما عرفوا هنا ما كان من امركم مع امير القبيلة فيما يختص برسم المرور (الخوة) في ارضها

قلت : لكل خطاب جوابه وعلى الله الاتكال

ثم عاد الحارس يدعونا الى الطابق الاعلى فسرنا وراءه ، وما كدنا ننتهي الى آخر السلم حتى التقانا شاب لا يتجاوز العشرين من عمره فرحب بنا ذاهباً الى قاعة عظيمه معدة لاستقبال الزائرين . وكان الليل قد ارخى سدوله والطقس قد تغير فامطرتنا السماء مدراراً . ومرت هنيهة على جلوسنا والشاب فاقبلت علينا سيدة رصينة في عقدها الرابع وقد ارتدت ملابس تشبه ملابس الملكات الشرقيات في العصور الخالية وكانت والدة ذاك الشاب جليسنا فشرعت تلاطفنا وتحدثنا حديثاً دلنا على قوة ذكائها ورقيها وكانت جميلة الطلعة رشيقة القوام

فسألها الترجمان ما اذا كانوا مسرورين باقامتهم في ذاك المكان المنفرد . فاجابت ان الحياة هذه شقاء واكدار . وليست السعادة من وراء العيش في الدور والقصور فان الموت يتهدد ساكنيها على مر الساعات والدقائق . فاستدللنا من قولها انها حزينة كئيبة واستبحنا لنفسنا زيادة الاستفهام فادركنا ان نائبة نزلت بها . فقلنا كل نفس حية معرضة في هذه الدنيا للعذاب والتألم وللحياة مشاكلها ومصاعبهاواحزانها واكدارها فكان جوابها الصمت مشفوعاً بسيل من الدموع . وكانت تلك الدار تحاكي بعظمتها سراي بيت الدين فسألنا السيدة : ما اكبر داركم فهل تستخدمونها كلها

قالت : على الرغم من كبرها فهي ما زالت تضيق بنا وقد عزمنا على تشييد غرف جديدة في الجبهة الشرقية

قلنا : ولماذا هذا الكبر كله ؟

قالت : هلموا فاريكم كيف نشغلها . ومرنا وراءها الى الطابق الارضي فاذا هو اربعة اجنحة طول كل منها مائة متر بعرض خمسة عشر متراً ناهيك بالفناء الذي لا تقل مساحته عن مائتي متر مربع

وتفقدنا اولا الجناح الغربي ويدخل اليه من بوابة كبيرة قامت على جانبيها الغرف المعدة لسكن الحراس والخدم والحشم وعائلاتهم فانهم يقيمون هناك باجمعهم حيث لا منازل في جوار تلك الدار ولا يسمح لاحد منهم ان يخرج منها في الليل وقد فرشت تلك الغرف فرشاً عربياً لائقاً بساكنيها . وقد شاهدنا بين الجماعة اطفالا على احضان امهاتهم . وسألنا الاميرة عن عدد المقيمين في ذلك الجناح فقالت : انهم خمسون نفساً

رجالاً ونساء وصغاراً . ويشتغل النساء والرجال جميعاً اشغالاً متنوعة

ومررنا من هناك الى الجناح الجنوبي فاذا هو مجموع آخورات لمبيت الخيل وكان فيه حينذاك خمسة وعشرون رأساً من اطيب الاجناس واكرمها ، بعضها من الذكور وبعضها من الاناث . ويقوم بسياسة الخيل وبالاعتناء بتنظيف الآخورات عشرة من السواس لهم حولها ست غرف يقيمون فيها مع عائلاتهم

ثم ذهبنا الى الجناح الشرقي وهو كناية عن مخازن عديدة جمعت فيها اصناف المآكل ويدير المخازن وكيلان احدهما يستلم الغلال وما شاكلها والثاني يقدم للجميع اللوازم والحاجيات يوماً فيوماً . ومن هناك توجهنا الى الجناح الشمالي وهو كناية عن غرف كثيرة كبيرة مخصصة للمنامة وفي وسطها قاعة للاكل

فسألنا الاميرة : ومن يشغل هذه الغرف العديدة ؟

اجابت : هذه معدة لرجال المعبد من اليزيديين الذين يؤمون الدار من سائر الانحاء ولا يقل عددهم يومياً عن الخمسين ويبلغون المائتين او اكثر في ايام المواسم . وكانت الساعة التاسعة ليلاً فدعتنا الاميرة لتناول العشاء وتصدرت المائدة مجلسة السائح عن يمينها وابنها الامير عن شمالها وكنت الى جانب السائح والترجمان الى جانب الامير

سألناها : اليس في الدار من ضيوف غيرنا في هذه الليلة ؟

اجابت : عندنا الليلة هذه ثلاثون ضيفاً غيركم وهم يتناولون طعامهم في الطابق الارضي . وقلما جلس ضيوف على مائدتنا هذه . وفي الاعياد والمواسم يعودنا اناس من سائر الطبقات فيجالسنا على الاكل اصحاب الطبقة العالية . وكانت القاعة التي تناولنا فيها عشاءنا تحاكي كثيراً قاعة الاكل التي في المقر البطريركي الماروني في الديمان

اما العشاء فكان خروفاً صغيراً على صدر كبير وثلاثة ارانب برية على صدر آخر وعلى صدرين آخرين خضرة متنوعة منها نيء ومنها مسلوق . وكان النقل تيناً مجففاً وزبيباً وعسلاً فاخراً .

وبعد العشاء اخذونا الى قاعة كبيرة مفروشة على الطريقة العربية وقد كسا ارضها السجاد العجمي الثمين وشربنا القهوة . ودامت السهرة الى الساعة الحادية عشرة . ومن هناك ذهبوا بنا الى غرف النوم وقد بسطوا على السجاد فرشاً من الصوف ناعمة ومرتفعة .

٧ ايار

نهضنا باكراً جداً وكان البرغش قد ازعجنا في ذلك الليل الغابر فلم يغمض لنا جفن ولم نذق طعم الراحة . وحوالي الساعة السابعة جاءنا خادم يدعونا الى قاعة الطعام وكانت الاميرة وابنها بانتظارنا فيها

قدموا القهوة اولا ثم جاءوا بالحليب وبفراريج مشوية وبجبن طري وزيتون اخضر واسود وبيض مسلوق وعسل . وفي اثناء الاكل سأل الترجمان الاميرة : ألا يوجد برغش في غرفكم ؟

قالت : انه بكثرة لكنه لا يؤذينا مطلقاً . وهل ازعجكم ؟

قال : لم يغمض لنا جفن الليل بطوله .

وبعد طعام الصباح سارت بنا الاميرة تريناً المعبد فاذا هو شبيه بكنيس اليهود وقد قام في وسطه مذبح منار بالزيت . اما الجدران فقد تلونت اشكالا . وقد رسموا على الحائطين الايمن والايسر حية كبيرة من حولها حيات صغيرة مختلفة الالوان والاجناس وفي وسطها طير الطاووس بالوانه الطبيعية الجميلة . والى جانب المذبح قاعدة من الرخام الموصلي عليها تمثال الطاووس وقد صنع من نحاس اصفر وحجمه حجم الطاووس الحقيقي . والى شمال التمثال مقعد للرئيس الديني مغطى ببساط رسمت عليه صورة الطاووس والى جوانبه صور الحيات والافاعي المتنوعة

ثم خرجنا من المعبد فسأل السائح الاميرة : هل لحضرتك ان تقولي لنا كم يبلغ عدد اليزيديين في العالم ؟

اجابت : يناهز عددهم الستين الفاً وهم يقطنون جبل سنجار وحوالي الموصل والشيخ عدي . وفي بلاد روسية ايضاً جماعة من اليزيديين ليسوا بقليلين لكني لا استطيع ان اعرف عددهم تماماً .

قال السائح : وكيف هي عبادتكم ؟

قالت الاميرة : عبادتنا اكرام الطاووس ممثلاً جمال الاله المعبود

قال : من هو الاله المعبود ؟

قالت : القوة الغير منظورة التي يسعها ان تؤذي اذا كانت لا تحترم

قال : هل تريد الأميرة ان تزيدنا ايضاحاً

اجابت : لقد امرت بأن يؤتى الى هنا الشيخ الأكبر فهو يشرح لكم كل ما تطلبون . وبعد قليل جاء الشيخ وقد تعمم بعمامة سوداء

فسأله السائح : ماذا تعبدون في هذا المعبد ؟

اجاب : نعبد قوة غير منظورة نمثلها بالطاووس والفرق بيننا وبين النصارى ان هؤلاء يعبدون قوة غير منظوره رحومة غفورة توصي بالتسامح وهلم جرا . اما نحن فنعبد قوة غير منظورة مضرة قاسية لا تتسامح بهفوة صغيرة

قال السائح : لقد سمعنا انكم تعبدون الشيطان فهل هذا صحيح ؟

اجاب : صحيح ما سمعتم . وأننا نمثل الشيطان بالطاووس والحية معاً

قال السائح : وما معنى تمثيلكم هذا ؟

قال : الطاووس يمثل جمال المعبود والحية حكمته ، لان المعبود جميل وحكيم

قال السائح : وهل انتم مقتنعون بصحة مبادئكم الدينية ؟

اجاب : يعتقد اليزيديون ان من الحكمة تكريم الشيطان وذلك اجتنابا لاضراره وشروره

وفهمنا من ذاك الشيخ ايضاً انهم يعبدون الشمس فيسجدون لها عند بزوغها ويقبلون اعلى حجر امامهم تنيره الشمس صباحاً وقد لاحظنا الحجر في المعبد تشرق الشمس عليه من نافذة بنيت لهذه الغاية حال بزوغها . والشمس عندهم الاله الاول

ويعبدون الشيطان كالة ثان على خطة المجوس من يلعنه امامهم يقتلونه اذا استطاعوا ويوم السبت يوم العبادة عند اليزيديين مما دلنا على انهم كانوا في الاصل يهوداً ويذهب بعض المؤرخين انهم من الشعب اليهودي القديم الذي نزح من فلسطين الى بابل يدل على ذلك ايضاً عبارة يرددونها في صلاتهم عندما يعبدوا الشيطان :

نحن الطائفة الوحيدة في الكون التي اختارت عبادتك يا صاحب القوة والجمال والحكمة . وسألنا الشيخ عن كيفية تنظيم رجال الدين في الطائفة اليزيدية فقال تختلف طائفتنا من هذا القبيل عن كل طائفة سواها ولها قانون خاص جعل وظائف الديانة اقساماً خمسة . وكل قسم منها تختص بعائلة تتوارث الوظائف العائدة اليه وهذه هي عائلات الوظائف الدينية :

١ — عائلة الامارة الاكبر فيهم سناً هو الامير الديني الاعلى ويجب ان يكون من صلب عدي وهو سلطانهم ورئيس دينهم وتحت يده بقية الوظائف

٢ — الشيوخ

٣ — القوالة

٤ — الفقراء

٥ — البير

ومنذ تأسست الديانة اليزيدية وضعت لها الوظائف المذكورة الثابتة فتتوارث العائلة كل وظيفة خصت بها ، ولا يجوز نقل وظيفة من عائلة الى اخرى الا اذا انقرضت عائلة من عائلات الوظائف ، وعندها يعقدون اجتماعاً عاماً لانتخاب عائلة جديدة بدلاً من المنقرضة ٠

عائلة الامارة : هي العائلة التي يخرج منها كبير الطائفة ديناً وهي المرجع الديني الاعلى ويعرف بامير الشيخان (١) والى كبيرها تعود الاموال التي تجمع باسم المعبد الاكبر وبقية المعابد المتفرقة في الجهات التي يقطنها اليزيديون ،ومن خزينته يوزعون لوازم المعابد الصغيرة نسبةً لاهمية كل منها ، ومن الشيخ "عدي" تصدر الاوامر برسم خطط رجال الدين وبكل ما له علاقة بالامور الدينية ، والامير هو الكل في الكل من الوجهة الدينية

عائلة الشيوخ : هي عائلة رؤوساء الكهنة الذين يعقدون الزواج ويهتمون بالمعابد وادارتها ونظافتها ، ويوجد عائلة تعاون الشيوخ ربما تدعى الفير او ما يقارب هذا الاسم

عائلة القوالة : يدور افرادها على قرى اليزيديين و كل منهم يحمل تمثال الطاووس لجمع الاموال المترتبة على كل يزيدي وقد سموه « قوالاً » لانه يقول اناشيدهم الدينية كما نسمي نحن الزجال قوالاً لانه ينشد الازجال ، والقوالة يجمعون الاموال والقرابين والزيوت والشموع للمعبد

عائلة الفقراء : هي عائلة القوم الذين يتعاطون المحاماة في الدعاوي الدينية لدى مجلس الشيخ "عدي" ، ولهم اجرتهم من اصحاب الدعاوي ، ولكل دعوى اجرة معينة لا يحق لهم ان يتجاوزوا حدها ؛

وهذه العائلات المقدم ذكرها مرتبطة بالرئيس الاعلى الذي هو الامير والمدير ،

---

(١) الشيخان اسم المنطقة التي يقوم فيها مدفن الشيخ عدي

ولا ينفذ عمل من اعمالها قبل تصديق المجلس الديني الخاضع لسلطان الامير

وبعد ذلك سأل السائح الشيخ ، وهل لك ياسيدي ان تشرح لنا شيئاً عن عاداتكم ؟

فاجابه : لا يجوز للرجل ان يخاطب النساء واذا اتفق ان رجلاً خاطب امرأة خيراً كان ام شراً فانه يجب على المرأة ان تصرخ وتستغيث وتنبه ان رجلاً كلمها ، على انه اذا امسك رجل بطوق قميص المرأة بين كتفيها فلا يجوز لها ان تبدي اية حركة بل العادة تقضي عليها بالاطاعة لمن امسك بها في كل ما يطلبه منها اديباً كان الطلب ام غير ادبي

يمنع التلفظ بكلمة « شيطان »

اذا التقى يزيدي يزيدياً وكان احدهما فقيراً معوزاً وجب على الآخر ان يساعده بقدر امكانه

قال السائح : وكيف تعاقبون المجرمين ؟

اجاب نعاقبهم بالجزاء النقدي ونحرم عليهم دخول لمعابد ونطرد من الطائفة المجرم الذي يرتكب الجرم الواحد مرات ثلاثاً

قال السائح : واذا أبى المجرم دفع الجزاء النقدي ماذا يفعل الامير ؟

اجاب : قلما عصي رجالنا اوامر الامير واذ اتفق ان مجرماً ابى ان يدفع جزاء مفروضاً عليه فيطلب الامير من الحكومة ان تنفذ احكامه الدينية فلا ترفض له الحكومة طلباً من هذا القبيل

وبعد المحاورة مع الشيخ رجعنا الى قاعة الاستقبال

جبل سنجار واليزيديون

بقلم الاستاذ الكبير والمؤرخ الشهير عيسى اسكندر المعلوف

« فاليزيديون اكراد اشداء معظمهم في جهات الموصل وبعض انحاء روسيا والمعروف منهم عندنا الذين نزلوا في جبل سنجار وهو في الشمال الشرقي من بلاد بين النهرين طوله خمسين ميلاً من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وعلوه عن السهل المحيط

به نحو الفي قدم ، وهو مكلل بالاشجار المختلفة منها السنديان والبطم واللوز وغيرها ، واعلى قمته الجرداء باسم (سن كلوب) وعلى جوانبه من كل جهة قرى الاكراد اليزيديين وهم قبائل وعشائر مختلفة واهم عشائرهم (بيت خالتي) والهيابات والهسكان والفقراء او الرهبان وسواهم ويسكن بين هذه العشائر بعض المسلمين

وعاصمة سنجار قرية اسمها (بلد) كانت قديماً مدينة كبيرة عامرة فهدمها تيمورلنك في غزوته سنة ١٤٠٠ م ، وقد ذكرها المؤرخون مثل ياقوت الحموي والقزويني وابن مسكويه ووصفها الرحالة كما وصفوا سكانها وموقعها بديع مشرف على سهل لانهاية له الا الافق ومياهها عذبة وحدائقها كثيرة حتى شبهت بغوطة دمشق فبنى فيها ملوك الشام ومصر قصوراً للنزهة والراحة ولا تزال بعض الآثار فيها اطلالاً دارسة منها قصر عباس بن عمر الغزنوى حاكم مصر ، ومنارة شيدها مدير الدين بن زلسكي اقسنقر سنة (٥٩٨ هجرية) (١٢٤١ مسيحية) على جامع بديع وهي من الآجر بهندسة فخمة ، ومزار السيدة (زينب) زوجة هرون الرشيد وهو بديع النقوش والزخارف والخطوط الكوفية ، وحول ابوابه ونوافذه ومحاربه احجار مرمرية من الموصل وفي داخله قبر بتاريخ سنة ٧٠٠ هجرية (١٣٠٠ مسيحية) الى غير ذلك

من هم اليزيديون :

وقفت على رسائل مخطوطة احفظها في خزانتي ورأيت بعض رسائل ومباحث في هذه الطائفة فمحصت منها ما امكن تمحيصه بهذه العجالة

ذهب بعض المؤرخين في تسمية اليزيديين مذاهب مختلفة فقال بعضهم انهم ينتسبون الى (يزيد معاوية الاموي) وقال آخرون ان تسميتهم هذه كلمة (يزادات) الفارسية بمعنى (الله) وقيل انهم نسبوا الى (يزد) وهي مدينة في بلاد العجم اشتهرت بالمجوسية ، الى امثال ذلك من الآراء ، والف كثير من المستشرقين ومؤرخي العرب كتباً ورسائل فيهم ، واحصوا عددهم في هذه الايام بين عشرين وثلاثين الف نسمة ولغتهم التي يتكلمون بها كردية ولكن كتبهم باللغة العربية ومذهبهم غريب كأنه مقتبس من المذاهب التي في البلاد كالمجوسية واليهودية والمسيحية والاسلامية ويسمونهم (عبدة الشيطان)

وهم من اصول مختلفة بعضهم من شرقي الموصل من جبال الشيخ عدي بن مسافر البقاعي و هو من قرية (قانفار) في بقاع العزيز ذهب الى جبل هكار وصار له تابعون واشتهر هناك اسمه الى يومنا هذا ، الذي انتشرت دعوته في جبال هكار بعد القرن السادس للهجرة وهو محترم عندهم ومنهم من جاء من شمال ديار بكر ، واجسامهم قوية وعضلاتهم غليظة وطباعهم همجية حتى لم يكن المسافر يستطيع ان يمر في بلادهم قبل عهد الحرية العثمانية سنه ١٩٠٨ مسيحيه

ولباسهم كلهم الحلل البيضاء ويكرهون الملونة ولا سيما باللون النيلي ، وعلى رؤوسهم قبعات عالية عليها منديل ملفوف يتخذونها من صوف الغنم (المور) ، وقبعات شيوخهم سوداء صغيرة وعاداتهم متخذة من المذاهب التي اقتبسوا منها معتقداتهم كما سبق ويفضلون النصارى على المسلمين واما اسماؤهم فاسلامية ، وهم يعمدون ذكورهم ويختنونهم معاً . ويتزوجون نساء كثيرات بنقدية ويغسلون موتاهم ويحنطونهم ويدفنونهم الى القبلة كالمسلمين ولهم عقائد شتى مستهجنة ، منها عبادتهم (الملك الطاووس) وهو بصورة ديك من النحاس الاصفر مرتفع على مسرحية (شمعدان) يوقدون حوله النيران ويسجدون له مقدمين الهدايا والنذور من المال وغيره ويلقبون الذي يدور على قراهم بهذا الطائر (قوالاً) لانه يقول اناشيدهم الدينية ، كما نسمي نحن الزجال (قوالاً) لانه ينشد الازجال .

وهم يعبدون الشمس فيسجدون لها عند بزوغها ويقبلون اعلى حجر امامها تنيره الشمس صباحاً ، ويعبدون الشيطان كاله ثان على خطة المجوس ومن يلعنه امامهم يقتلونه اذا استطاعوا حتى انهم لايجسرون ان يقولوا مثلاً (شط الفرات) او (شط دجله) ونحو ذلك لان شط من حروف الشيطان التي لا يريدون التلفظ بها خشية الاهانة له ، ويمتنع عليهم (النمنمة والنقل) لان ذلك ربما قصد به اهانة الشيطان حتى لا يلفظون مثل بستان وغيره لانه بوزنه ولا يأكلون الخس مطلقاً لانه ينبت على الدمن ولا يأكلون القرع اكراماً للقرعة التي ظللت يونان النبي ، وذلك يدل على ان اصلهم من حدود نينوى مقابل الموصل ، والموصليون يشتمون اليزيدي بقولهم (خس الموصل في فمك) فيتألم

ينتشر اليزيديون في جبال الشيخ عدي وسنجار والطور وسمرة وديار بكر

ووان ، وفي حدود البلاد الروسية واكبر امرائهم يجب ان يكون من صلب عدي وهو سلطانهم ورئيس دينهم وتحت يده الشيوخ ثم البير ثم القوالين ثم الفقراء ثم العوام

ولهم كتب دينية مقدسة منها الكتاب الاسود (مصحف ش) تأليف احد قدمائهم المشهورين واسمه الحاج محمد . وكتاب (الخلوة) تأليف كبير شيوخهم حسن البصري وسموا اولاً (عدويين) ثم بعد ذلك (يزيديين) وتقلبت اعتقاداتهم حسب العصور التي مرت عليها

وقراهم في اول جبل سنجار ومتى ضويقوا يهجرونها ويسكنون الكهوف الكثيرة في ذلك الجبل مجاورين النسور ومتى انفرجت ضائقتهم يعودون الى بيوتهم

ويظهر ان معتقداتهم المار ذكرها انها مقتبسة من مذهب (المانوية) الممتزج من الزردشتية والمسيحية فمذهب زردشت هو القول بوجود الهين هما (هرمزد) اله الخير و(آصبرمان) اله الشر

والمانوية تقوم على عبادة الشمس والشيطان الذي هو مصدر الشرور كلها - وهذا المذهب اشار اليه المتنبي في احدى قصائده بقوله :

وكم لظلام الليل عندك من يد   تخبر ان المانوية تكذب
وقاك ردى الاعداء تسري اليهم   وزارك فيه ذو الدلال المحجب

ويصومون ثلاثة ايام متوالية كل سنة في شهر كانون الاول وغير ذلك . واما صلاتهم فبالسجود للشمس وتحيتها بلغة ركيكة نشرها العلامة الاب انستاس الكرملي بلغة فصيحة في مجلة المشرق هكذا

وطلعت علي الشمس وجاء اثنان من الجلادين فيامسكين قم واشهد شهادة الدين وهي ان الله واحد والملك الشيخ هو حبيب الله وسلم سلاماً على الشيخ عدي وعلى امته والقبة الكبيرة الموجود تحتها وعلى قبة توريس وعلى فخر الدين (هذا لقب الشمس عندهم) وعلى الشيخ والبير وعلى المزرادير آحور واشهد بانه بقوة وذراع الشيخ (اي عدي) التي رفعها صار الناس يزيديه

عاداتهم وتقاليدهم

لليزيديين عادات كثيرة لا يشاركهم بها غيرهم وتقاليد خاصة يحترمونها كثيراً

فالزواج عندهم مصداق ويتم عقده بتقاسم العروسين رغيف خبز من دار احد شيوخهم او بسف قليل من تراب ضريح الشيخ عدي ، ولا يتداخل الابوان بزيجة اولادهما ، وعندهم تعدد الزوجات والطلاق وعدم ارث المتزوجة من اهلهـا وكل طبقة تتزوج من طبقتها ولا يجوز الزواج في شهر نيسان وهو بدء سنتهم

مآتمهم تكون بالعويل وانغام الطبول والزمور المحزنة وزيارة القبور . هم يعتقدون بتناسخ الارواح

وحفلاتهم كثيرة منها حفلة راس السنة وهو اول اربعا من نيسان يحملون فيها السناجق الى مقام الشيخ عـدي بالطبول والزمور فيقصفون في هرج ومرج ويعودون باقراص من تراب الشيخ عدي يوزعونها للتبرك ، ومن تقاليدهم لمرعية تحريم الكتابة على جميع الافراد فلا يسوغ ان يكون في البلدة الواحدة غير متعلم واحد يحسن القراءة والكتابة ويحرم عليهم حلق الشوارب او قطعها بالمقص اما اللحية فيجوز فيها كل ذلك وهم يحترمون اصحاب الرتب الدينية عندهم ولكل طبقة رتب واعتبارات يحافظون عليها بكل دقة

ولهم مواقع حربية كثيرة مع العنصرين التركي والعربي فهم متميزون عن غيرهم بكثير من الصفات والاخلاق والعادات مما لا تكفي هذه العجالة لتبيانه والله اعلم »

وما هو غير القليل حتى طلب السائح من الاميرة ان تعلمه ما اذا [illegible] زوجها الامير خارجاً عن الدار ام مريضاً لاننا لم نكن بعد رأيناه ولا سمعنا شيئاً عنه . عندها تنهدت الاميرة وقالت : ليس الامير هنا فانه مات منذ اربعة اشهر بعد ان شرب القهوة في داخل المعبد وقد تحققنا انه مات مسموماً ولا يزال واضع السم في القهوة مجهولا انما هو من عائلة المشايخ

قلنا : ولماذا تنسبون هذا العمل الى المشايخ ? أهم اعداء لكم ? او ليسوا من جنود الامير ?

قالت : ان قانون الطائفة يصرح بانه اذا انقرضت عائلة الشيخ عدي تعود الامارة

الى من تنتخبه الجمعية العمومية وهذا ما يدعوا الى اليقين بان قاتل زوجي احد الشيوخ لان نفوسهم تحدثهم بانتقال الامارة الى عائلتهم

قلنا : وكيف تتدار كون امر وخيد كم الامير الشاب وتضونون حياته العزيزة :

اجابت : اننا لا نسمح للشيوخ بالاختلاط معنا كما اننا نحظر عليهم دخول الدار في غير الايام الاحتفالية • على انهم لا يقدمون على القتل بالسيف او بالنار • انما هم يغتالون الغير بواسطة السم فاني طردت من خدمة الدار كل اليزيديين واقمت مقامهم اناساً من المسيحيين يعاونهم في الخدمة بعض اليهود ولا خوف من هؤلاء على حياة الامير الصغير لانهم لا يطمعون باي نفع من وراء اغتياله لا سمح الله

(وهم يعصرون من العنب نوعاً من العرق بدون آنسون ويجعلونه قويا ويشربونه بكثرة ولديهم عرق ممتاز ولكن طعمه يختلف عن طعم عرق لبنان)

شكل اليزيدية رجالا ونساء جميل وجمالا مفرطاً يشبه شكل البابليين الاقدمين والذين تسلسلوا من اليهود المهاجرين الذين اتوا من فلسطين ، عيون نسائهم سودا ووجوههن يضاء يميل الى الاحمرار البرتقالي ، الشعر مجعد واللون العمومي ابيض ميال للاحمرار ، صحتهم بوجه الاجمال جيدة واجسامهم قوية ، والمناخ يساعدهم كثيراً لان مناخ جبل سنجار الذي يقطنونه جيد ومياهه عذبة وكلها ينابيع صغيرة منفجرة من الصخور وباردة جداً وعموم اليزيديين يقضون الصيف في تلك البقعة وكل يزيدي يبني فيها مسكنا ولو صغيراً لاجل الصيف •

وحان الظهر فدعتنا الاميرة الى تناول الطعام فسرنا سوية الى قاعة الاكل حيث جلسنا جلوسنا على العشاء الغابر

وقد اعدوا الطعام على النمط الاتي

غزال كامل على صدر • ديك حبشي كبير على صدر آخر • خروف صغير على صدر ثالث • لبن رايب ولا يمزجون اللبن مع اللحم بل يأكلونه على حدة بعد الاكل وزيتون اخضر واسود وقريشه مالحة حول الصدور الثلاثة عصافير صغيرة مشوية مكبوسة بالخل في أوعية خزفية • وكان النقل مؤلفاً من دبس العنب والعسل والزبيب والتين المجفف وبعد تناول الطعام ذهبت بنا الاميرة الى قاعة الاستقبال حيث قدموا لنا القهوة الجيدة وكانت ملابس الاميرة حينذاك من الحرير المزركش المجلل بقماش اسود علامة الحداد

وما كان موت زوجها ليمنعها من التزين بحلاها وجواهرها فكانت و ضعة الذهب والفضة فوق جبينها وقد جعلتها على شكل التاج

وقد رأينا فوق اذنيها نوعاً من الاقراط معلقة بالتاج ، وكان عنقها مزداناً بعقد شبيه بالعقود الشرقية القديمة التي تشاهد في المتحف الاثري المصري ، ولم تكن الحجارة التي رصعت ذلك العقد باقل من عشرين حجراً مختلفة الالوان

وحوالي الساعة الثالثة دعانا الامير الشاب للتنزه في املاك الشيخ عدي نزلنا خارج الدار وطلبنا الخيل وبينما السايس يقود الخيل هجم حصان من خيلنا على فرس فقال السايس على الفور (يخزيك يا شيطان عنا) وما كاد يلفظ هذه العبارة حتى وجه الي رأسه لا اقل من خمسة مسدسات وما استطعنا ان نهدي روع الجماعة الا بعد الجهد الجهيد حيث شرحنا لهم ان السايس يجهل ديانتهم وعاداتهم وقد ساعدنا الامير وخلصنا السايس من هذه الورطة

فركبنا الجياد وسرنا وكان يحرس الامير عشرة من الفرسان المقلدين باسلحتهم • وما مر نصف الساعة على مسيرنا حتى انتهينا الى تلك الاملاك وهي تتألف من بلد كبير ومن اراض واسعة يتدفق في وسطها ينبوع ماء غزير ، فقال الامير ، هذه املاك الشيخ عدي وثروة الدار

فسألناه ماذا تعني بالشيخ عدي ؟ أهو اسم المعبد ام احد الاولياء ام ماذا ؟

فاجاب : هو الذي سن انظمة الديانة اليزيدية وشيد هذه الدار ومعبدها وعقد الاتفاق اليزيدي العائلي وجعل للامير هذا المركز الثابت فلا تباع اراضيه ولا ترهن ولا تحجز وبذلك لا تمس كرامة العائلة والمعبد بل تبقى معززة ما زال ذكر اليزيدية على الارض

قلنا : وكيف اتصلت لكم الامارة ؟

اجاب : الشيخ عدي جد عائلتنا وما زال منا ذكور فالحق لنا دون سوانا بالارث واللقب ، ولما كانوا يلقبون رئيس الطائفة بلفظة « امير » اصبحنا نتوارث هذا اللقب ابا عن جد

قلت : وهل ذكور عائلتكم عديدون ؟

قال : ليس فيها سواي وخالي اخو امي ، فان افرادها ابداً معرضون للاغتيال والغدر

والدي مات مسموماً وعمي قبله مات هكذا ، على اننا عاملون على تنقيح نظامنا فيتاح
اذ ذاك للعائلة ان تنمو وتكثر

قلنا : وكم عمر مولانا الامير ؟

قال : لقد اكملت العشرين

قلت : وهل يجوز في سن كهذه ان يكون الامير رئيساً دينياً ؟

قال : نعم ، يجوز للامير ان يكون رئيساً دينياً وهو بعد في مهد الطفولة فتكون والدته حينذاك الوصية الآمرة الناهية تتعاون والمجلس الاعلى على قضاء الاعمال الطائفية

قلنا : وهل لرئيس الكهنة حق المراقبة على اعمالكم ؟

قال : كلا ، ليس له ادنى علاقة بهذا الامر وهو مجبر على الاطاعة العمياء لسائر اوامري .

وبعد ان جبنا اراضي الشيخ عدي امتطينا جيادنا عائدين الى الدار الـ [illegible]رى

٨ ايار

نهضنا باكراً نتأهب للرجوع الى الموصل ، وكنا قد قضينا ليلتنا الثانية كالاولى اذ لم يغمض لنا جفن ولا ذقنا طعم الراحة من جراء جيوش البرغش التي اكتست غرفنا

وعند الساعة السابعة جاءنا خادم يدعونا لتناول الطعام وكان الامير ووالدته ينتظراننا في قاعة الاكل ، وفي اثناء التروبقة سألنا الامير عما كان لنا في سنجار بشأن رسم المرور فاجبناه اننا صرفنا النظر عن ذلك اقراراً بجميله وجميل والدته الاميرة الفاضلة .

ثم ودعنا ذينك الكريمين وركبنا جيادنا الى الموصل

وما كدنا نبتعد قليلا عن الدار حتى التفت الي السائس وقال : سلمني العشي اربع دجاجات محمرة وثلاثين بيضة مسلوقة وجبناً وزيتونا وتيناً وزبيباً وكمية كبيرة من الخبز الابيض الطري وباقي معنا عشر زجاجات من المياه المعدنية فمتى جعتم يمكنكم ان تأكلوا وتشبعوا .

وحوالي الساعة الواحدة بعد الظهر بلغنا الى قرية صغيرة كثيرة الاشجار فترجلنا وتناولنا الطعام مستظلين باشجارها . ثم استطردنا المسير فانتهينا الى الموصل عند الساعة

السادسة مساء وكان التعب قد اضنكنافذهبنا الى الدار القنصلية حيث اكلنا خفيفاً ونمنا باكراً ٠

٩ ايار

صحونا متأخرين عن ميعادنا العادي وصممنا على الاستراحة في الدار نهارنا بطوله واستحممنا قبل الظهر وعند الاصيل بالماء والسبيرتو تحفظاً من الملاريا بعد لدع البعوض

١٠ و ١١ ايار

صرفنا هذين اليومين في الدار القنصلية نستعد للسفر الى بغداد وندرس الطرقات التي كنا مزمعين على سلوكها ٠ وفهمنا من الخبيرين بحالة تلك البلادان طريقين يصلحان للذهاب من الموصل الى بغداد براً : طريق تكريت وطريق كركوك ٠ وطريق ثالث بحراً اي فوق دجلة بواسطة الكلك ٠ (الزورق النهري) الاشوري يسمونه طريق الشط على الكلك

الكلك : هو كناية عن جلود غنم وماعز ينفخونها ويربطونها ربطاً محكماً ويجمعونها صفوف بحسب رغبة الطالب منها خمسة صفوف منها عشرة صفوف الخ

ويبنون غرفة او غرفتين من الخشب فوق هذه الجلود المنفوخة ويتركون الكلك يسير مع التيار في دجله وهناك رجال تخصصوا للسفر في هذه الكلكات ينقلون مداري طويلة من الخشب القامي حتى اذا قذف التيار بالكلك الى الشاطىء منعته الرجال بواسطة هذه المداري ، وينقلون على الكلكات المواشي والبضائع والركاب الخ

بعد ما درسنا الحالة وجدنا انه صعب علينا ان نسلك طريق الشط بواسطة الكلك اذ لا يمكنا معرفة الوقت وسيكون سفرنا تحت رحمة التيار والراحة مفقودة تماماً في الكلك قررنا السفر براً وان نسلك طريق تكريت في ذهابنا وطريق كركوك في ايابنا ٠

الفصل الخامس

من الموصل الى بغداد

١٢ — ٢٣ أيار سنة ١٩١٤

جهينة — تل كابارا وينابيع المكاز — الجذا — قلعة شركات او اشور — جبل حمرين — قشلاق الخزينة — تكريت — سمرا عاصمة الخلفاء العباسيين قديماً — بلد — خان مشاهد كاظم — بغداد

١٢ ايار

شربنا القهوة وترجمان القنصلية الروسية وودعناه شاكرين لالطافه وغيرته ومروؤته وتركنا الدار القنصلية الساعة الثامنة صباحاً يتقدمنا دركيان من لدن حكومة الموصل وسلكنا طريق الضفة الغربية من دجلة. وعند الساعة الثانية بعد الظهر كنا في (جهينة) حيث نصبنا الخيام على مقربة من اثار قديمة تعود الى عهد الاشوريين فتناولنا الغذاء ثم تفقدنا تلك الاثار وقضينا ليلتنا هنالك وكان الحر شديداً

١٣ ايار

نهضنا باكراً جداً عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وركبنا قاصدين الى «تل كابارا» حيث الابار البترولية الكثيرة. ونصبنا الخيام على مسافة بعيدة من تلك الابار هرباً من تلك الرائحة التي تبعث منها ليل نهار وبعد الغذاء ذهبنا نتفقد الابار المذكورة



فصمت آذاننا من قوة غليان البترول وكان عجيجه يتصاعد الينا من جوف الارض ، وبتنا ليلتنا في كايارا وكان الحر شديداً للغاية .

١٤ ايار

سرنا ورجالنا الساعة الخامسة صباحاً وكنا الساعة الثانية مساء امام قلعة « شرقات » او اشور فنصبنا خيامنا في مدينة اشور عاصمة الاشوريين . ونحو الساعة الخامسة كنا في داخل القلعة . وقلعة شرقات كناية عن قلعة فيها آثار قديمة تعود الى عهد اشور عاصمة الاشوريين الاولى . وفي سنة ١٩٠٣ شرع الالمانيون ينقبون ويحفرون في ذاك المكان فتوصلوا الى ازاحة الستار عن المدينة التي ظهرت للعيان بحالتها الهندسية الاصلية بنوع انك لو نظرت الان اليها لعرفت كيف كانت وشاهدت ايضاً قبر سنحاريب الثاني .

الخيام في جهينة

وقد اكتشف الالمان قطعاً كثيرة ذات النقش البديع فضلاً عن الحجارة الكريمة التي لا تحصى . وفي جملة ما شاهدنا كتابات متنوعة على حائط من المرمر يعود تاريخها الى عهد الملك سلمانصر الاول . وتدل هذه الكتابات على تاريخ هيكل اشور العظيم او المعبد الاهلي .

الاشوريون

ان الاشوريين — الكلدان القادمين اليوم من ما بين النهرين — بلادهم الاصلية — الى سوريا هم احفاد اولئك الذين جاء على ذكرهم الكتاب المقدس وهم اول

الذين اعتنقوا المسيحية فنشروا تعاليمها حتى توغلت رسلهم في الصين والبلاد النائية الاخرى فبلغ عدد اتباعهم المئة مليون و كان لهم امبراطوريتهم وعاصمتها نينوى التي قرأنا عنها الشيء الكثير ونحن على مقاعد المدارس . وبعد ظهور الاسلام قتل الكثيرون منهم فاسلم من اسلم وهاجر من امكنه الهجرة الى شمال الموصل وسكنوا جبال حيكارى المنيعة في كردستان الشمالية حتى الحرب العظمى سنة ١٩١٤ متمتعين بادارة لامركزية تامة منذ اكثر من ٢٥٠٠ سنة ولا يدفعون الى السلطان او الذين سطوا على ديارهم قبله سوى خراج سنوي لا يذكر عن طريق زعيمهم الاكبر وبطريركهم مار شمعون بالوراثة فتمكنوا على مضي الاجيال من المحافظة على لغتهم الارامية التي تكلم بها السيد المسيح وهو على اعواد الصليب ، وتقاليدهم وعاداتهم ووحدتهم اللامركزية

ولما كان امرهم يهم البلاد الشرقية ، رأينا الفرصة سانحة كي نأتي على نبذة صغيرة من تاريخ هذا الشعب القديم ضحية السياسة بعد خروجه الثالث في مدة لم تتجاوز العشرين سنة تاركين التوسع في تاريخه القديم الى الذين تهمهم الحوادث الجسام في شرقنا هذا

غب اندلاع السنة الحرب العظمى اخذ الذين كانوا يجاورون الاشوريين يشنون الغارات عليهم بقصد القتل والسلب بتحريض موظفي الدولة العثمانية غير الاتراك حتى كانت مذابح منطقتي كاوار والباق فانذر مار بنيامين شمعون عم البطريرك الحالي (قتل اغتيالاً سنة ١٩١٨) الباب العالي بسوء العاقبة ولكن انهماك الدولة في المراسح الحربية الاخرى في ذلك الوقت عجزت عن ايقاف التعديات وبدلاً من ان تعطف على هذا الشعب وتقوم بواجباتها نحو رعاياها الامنين حجزت على هرمز اخو مار شمعون البطريرك الذي كان يتلقى دروسه في الاستانة عند نشوب الحرب وابقته عندها كرهينة وانذرت البطريرك بشنقه حالة قبوله يد الحلفا وخوض الحرب بجانبهم فكان جواب البطريرك هذا «ليكن اخي وهو واحد قرباناً لشعبي لا ان يكون شعبي قرباناً له» فنفذت الحكومة وعيدها بهرمز ومن تلك الساعة اعلن الاشوريون الحرب على تركيا وكان عددهم المئة وخمسون الفاً بما فيهم الشيوخ والاطفال والنساء فاشتركوا في اثنتي عشرة معركة مع الاتراك والاكراد عدة اشهر وبعد ان نفدت مؤونتهم وانتهت خراطيشهم الى نهايتها اضطر الشعب بكامله ان ينسحب الى البلاد الايرانية تحت قيادة مار شمعون والاغا

بطرس البازي وغيرهما وهناك احتل اورميا في منطقة ازربيجان وبقي فيها ما يقارب السنتين بعد ان مدتهم الدولة الروسية القيصرية بلوازم الحرب وكانت الاتراك والاكراد يغورون عليهم من وقت لاخر فيصدهم هذا الشعب الصغير الباسل بما اشتهر به من قوة الثبات وتحمل المشاق حتى اندلعت الثورة الحمراء في روسيا فاضطر الجيش الروسي الذي كان يساعد الاشوريين الى الانسحاب من البلاد الايرانية الى بلاده وكانت ايران على الحياد

لم يحارب الاشوريون — الكلدان الى جانب الحلفاء قبل ان ... باستقلالهم بعد الحرب ففي اورميا قبل الثورة الروسية باشهر عقد اجتماعاً سياسياً ، حربياً هاماً حضره بازيل نيكيتين قنصل روسيا في ايران سابقاً والموجود حالياً في باريس والكابتين كريسي من ضباط الانكليز (وهو اليوم حي يرزق في لندن) الذي اوفدته حكومته خصيصاً لتأييد وعد روسيا السابق باستقلال الاشوريين ثم اوفدت الضابط الطيار بننكتن لنفس الغرض فوعدهم بالمساعدات اللازمة والمعدات الحربية ولاسباب شتى لم تصل المساعدات الموعود بها في الوقت اللازم فاضطر الشعب الاشوري ان يخلي اورميا ويلتحق بطلائع الجيش الانكليزي التي كانت تنتظره في سين قلعة من اعمال ايران وبعد مفاجئات كثيرة انسحب الاشوريون الى العراق تحت حماية الراية الانكليزية

وقد بلغت خسائرهم في الارواح تسعين الفاً ما عدا الاشوريين الذين كانوا في المناطق الاخرى فلم يبق منهم سوى اربعين الفاً من اتباع مار شمعون . ففي العراق الف الانكليز منهم جيشاً بلغ بعض الاوقات الى خمسة آلاف نخدموا الدولة العراقية باخلاص ودافعوا عن حدود العراق الشمالية وصانوا مملكة الملك فيصل من غزوات الاتراك والاكراد ومن دسائس العرب انفسهم وقمعوا الثورات الداخلية التي كانت ترمي الى قلب الحكومة العراقية . وعندما طالب الاتراك بضم ولاية الموصل التي تنقسم ادارياً الى اربعة الوية الموصل وكركوك واربيل والسليمانية بما فيها من النفط . اندفع الاشوريون للمحافظة على البلاد العراقية في الوقت الذي كان فيه الجيش العراقي في المهد فلم يشترك في صيانة حدود ولاية الموصل وصد غزوات الاتراك وقمع الثورات الداخلية

طالبت تركيا سنة ١٩٢٥ بضم ولاية الموصل الى املاكها مدعية ان الجيش الانكليزي لم يدخلها الا بعد اعلان الهدنة فاحيل النزاع الى عصبة الامم فاوفدت هذه

بدورها لجنة للتحقيق تحت رئاسة الكونت تلكي . ضم تقرير اللجنة الاممية توصيات شتى لحل النزاع وكانت احداها وجوب اعادة السلامركزية الاشورية كالتي كانوا يتمتعون بها الى ايام الحرب

دخلت العراق عصبة الامم في ٣ تشرين الاول سنة ١٩٣٢ وبعد مضي تسعة اشهر حصلت مذابح الاشوريين وسلبت اموالهم واراضيهم فبلغت خسائرهم المادية من نقود واموال منقولة الى ١٣٦٦٤٦ ليرة انكليزية ، ومن الارواح ثلاثة آلاف اكثريتها شيوخ ونساء واطفال . وكانت الطيارات البريطانية قد القت المناشير على الاشوريين تدعوهم بها الى القاء سلاحهم والاستسلام الى الجيش العراقي وبعد ان عملوا بنصيحتها حصلت المذابح .

يوسف ملك

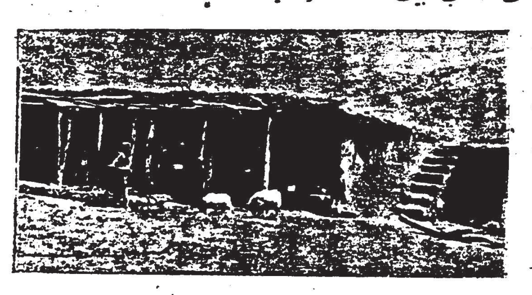
والسيد يوسف ملك كان يشغل وظيفة رئيس القلم السري في المفتشية الادارية في الادارة الملكية في العراق مدة ١٣ سنة الذي كان في اثنائها مثال الموظف النشيط الصادق ، ولكنه عندما رأى الحيف يلحق بابناء جلدته استقال من تلقاء نفسه واشترك في الدفاع عن حقوقهم فاصدر وزير الداخلية العراقية الامر بالقاء القبض عليه في شهر ايار سنة ١٩٣١ فاضطر الى مغادرة بلاده لمواصلة الدفاع في قضية الاشوريين ، وعندما نفي مار شمعون من العراق يوم ١٨ آب سنة ١٩٣٣ الى قبرص التحق السيد ملك به في ٢٦ آب من السنة نفسها ثم ابحرا سوية من قبرص في ٢٨ ايلول من السنة نفسها الى جنيف فوصلاها في ٤ ت ١ سنة ١٩٣٣ وكان السيد يوسف ملك امين سر البطريرك الفخري لسنتي ٣٣ — ١٩٣٤ وهو اليوم في الشرق الذي عاد اليه بعد ان تقرر مصير الاشوريين الذين عرفنا منهم الاديب والمثقف والوجيه في سوريا والبلاد المجاورة ونخص بالذكر منهم الشاب النشيط الذي يتقد غيرة على ابناء امته بدون استثناء السيد مرقص عيسى الكربوراني

واكتشف الالمان ايضاً بقايا القصر الباتياني على سطح ارض سهلية . ويقوم القصر هذا على صفين من حجارة منقوشة بتنوع الكتابات . ويبلغ علو احد الصفين احدعشر قدماً ونصف القدم وهو قطعة واحدة فقط كتبت عليها اسماء ملوك الاشوريين من اولهم الى آخرهم . وقد كتبت على الصف الاخر اسماء الحكام وذوي المقامات العالية الذين

عاصروا اولئك الملوك

وبعد ان تفقدنا القلعة عدنا الى الخيام نتعشى ٠ وفي اثناء الاكل التفت الي السائح وقال : لا بد من قضاء سهرتنا هذه عند احد سكان هذه المحلة ٠ فقلت : ليكن ما شئت وذهبنا الى بيت قائم على مقربة من خيامنا فاستقبلنا صاحبه بكل هشاشة واجلسنا على حجرين مركزين عند مدخل البيت ٠ وهذه عادة فلاحي تلك النواحي ٠ ثم اوعز الي السائح ان اسأل الرجل عن اسمه وطائفته وعن كل ما يهمنا الاطلاع عليه

فقلت لصاحب البيت : ما اسمك وما هي طائفتك ؟



البيت في آشور

قال : اسمي عامر ٠ وانا مسلم اوحد الله قلت : وهل انتم مسرورون باقامتكم في هذه المحلة ؟ قال : لولا اعتداآت العربان علينا لكنا بالف خير

قلت : اما شكوتم امركم للحكومة ؟

قال : لا نستطيع الى الشكوى سبيلاً لان العربان يحرقون منازلنا وينهبونها قبل ان تهتم الحكومة بامرنا وكثيراً ما يقدم اولئك القوم على التعدي على عرضنا وشرفنا ٠ فتلافياً لكل ذلك نضطر الى ارضائهم

قلت : كيف وبم ترضونهم ؟ قال : نقدم لهم سنوياً بعض المال الذي تعطيه ارضنا ومواشينا

قلت : ولمن هذه المحلة ؟ أهي للاغنياء ام للفلاحين ؟ قال: انها للفلاحين ولو كانت

لغيرنا لهجرناها من عهد طويل

قلت : ألا يسعكم بيعها ؟ قال : ليس من مشتر على الاطلاق ٠ ومن يرغب في مجاورة العربان ؟ فان وجودهم في الجزيرة كان داعياً لهبوط اثمان الاراضي الى ادنى درجة ٠٠ ولا يخفى عليكم ان كثير من الاملاك في الجزيرة تحت رحمة القبائل لانه ليس من يطيق مجاورتهم طويلاً

قلت : او لم تجرب الدولة ان تضع حداً لهذه الاعتداءات ؟ قال : ان الدولة تراعي دائماً جانب العربان

قلت : وهل يعامل العربان غيركم معاملتكم ؟ قال : انهم يعاملون المسلمين جميعاً هذه المعاملة ٠

قلت : وكيف يعاملون المسيحيين ؟ قال انهم يعاملونهم معاملة الارقاء وهم يجبرونهم على حراثة الاراضي بدون بدل مكتفين باطعامهم من غلاتها ، وهذه حالة المسيحيين المقيمين على الضفة الغربية ٠ اما العائشون منهم على الضفة الشرقية فعندهم البكاوات

قلت : ومن تعني بالبكاوات؟


صاحب البيت في آشور

قال : الاكراد ، وهؤلاء يعاملون المسيحيين معاملة اسوأ من معاملة العربان وكثيراً ما يستبيحون العرض والشرف بخلاف العربان الذين لا يقدمون عليّ شيء من ذلك الا عند الضرورة

وودعنا ذلك الفلاح وعدنا الى خيامنا وكان الحر شديداً لا يطاق فاخرجنا الاسرة كي تنام في الفضاء ولكن البرغش والبعوض والبراغيث كانت علينا اشد وطأة من الحر وفي منتصف الليل سمعنا عويلاً على اثره اجتمع سكان القرية كلهم رجالاً ونساء ٠

فسألنا عن سبب ذلك فقيل لنا ان هناك فتاة جميلة جداً وهي ابنة احد افراد القرية يشتغل كوكيلاً على فعلة الحفريات من قبل المهندسين الالمان (الخواجات) فصدف ان هذه الابنة كانت تخدم الخواجات في محل سكنهم الخدمة البيتية فكانت تقضي النهار كله بخدمتهم فكانوا يكرمونها ويحبونها كثيراً وبواسطتها ربح والدها ارباحاً طائلة . فتشوا على الفتاة في تلك الليلة فلم يجدونها فاستغاث والدها باهالي قريته ليفتشوا معه عليها . سألوا عنها عند جميع اقاربها فلم يقفوا لها على اثر مع ان والدها تركها نائمة قبل نومه ، ويظهر انها خرجت من البيت ليلا

قلت : لجارنا عامر ماذا تعتقد الى اين ذهبت ؟ قال : لا اعلم ها اني ذاهب الى ابيها وبعد رجوعي اخبركم بالذي اعرفه ، ذهب هو الى بيت ابيها حيث كان الجمع كله وبعد ربع ساعة عاد الينا

قلت : وماذا عرفت ياعامر ؟ قال : ان اباها يعتقد انها خطفت وان الخاطف احد الشبان لان الابنة جميلة وخفيفة وذكية جداً

قلت : وهل يوجد سابق علاقة لها مع احد الشبان ؟ قال : ان اباها يقول انه لا يعلم ان لها علاقة مع احد لكنه يفترض ذلك

قال السائح : وهل يوجد احد من الالمان في هذا البيت ؟ قال عامر : كلا . كان فيه الخواجات الصغار سافروا اليوم بعد ان قفلوا كل شيء وسلموا المفاتيح والبيت لوالد الابنة المفقودة

قال السائح : لربما وقعت الابنة بحب احد الالمان واتفقت معه على الذهاب الى المانيا هل احدهم يعرف اللغة العربية ؟ قال عامر : ان الاثنين يعرفان العربية جيداً فكرك قريب اني ذاهب لانبه اباها الى هذه الفكرة

وذهب الى ابيها ونحن ضحكنا وبقينا ننتظر الخبر ثم عاد والرجل يقول ان اباها اشتبه بذلك وقد ارسل اخويها الى الكلك الذي سافروا فيه الخواجات والكلك واقف الآن على بعد نصف ساعة من هنا حيث لا يمكنه السفر ليلاً

١٥ ايار

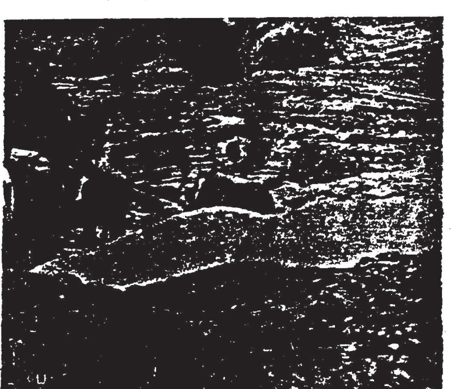
نهضنا باكراً نتأهب للرحيل ، فتناولنا القهوة والحليب وعندها سألني رفيقي السائح .

ماذا جرى بالفتاة ؟ قلت : فلنسأل

فسألت صاحبنا عامر قائلاً : هل وجدوا الفتاة ؟

قال : نعم وجدوها في الكلك مع الالمان ورفضت ان تعود وذهب والدها ايضاً الى الكلك في الليل الماضي وحاول اقناعها بالرجوع وساعده على ذلك الخواجات ولكن هي رفضت الرجوع بتاتاً مدعية انها ترغب بالذهاب الى المانيا لتتعلم باحدى مدارسها وسافر الكلك والفتاة عليه

ركبنا جيادنا ومعنا رجالنا وكل امتعتنا وسرنا على بركات الله . وحوالي الساعة الثانية مساء كنا في سفح جبل «حمرين» وهو محل مخيف بعيد عن كل حياة اما المنظر في تلك البقعة فجميل جداً في ضوء القمر



نصبنا الخيام واكلنا ثم استرحنا وبتنا ليلتنا في ذاك المكان المنفرد

١٦ ايار

غادرنا سفح الجبل

في سفح جبل « حمرين »

حوالي الساعة السابعة صباحاً فكنا عند الساعة الثامنة مساء ، امام « قشلاق الخزينة» فنصبنا الخيام على مقربة من القشلاق واكلنا واسترحنا قليلاً ثم زرنا جامعاً قديماً كان على بعض المسافة من خيامنا فلم نشاهد في ذاك الجامع ما يستحق الذكر سوى بعض النقوش الجميلة المختلفة على جدرانه الاربعة وعلى نوافذه الصغيرة . وصرفنا ليلتنا في مضاربنا

١٧ ايار

غادرنا القشلاق عند الساعة التاسعة صباحاً وجهتنا تكريت فانتهينا اليها بعد مسير سبع ساعات فنصبنا الخيام في خارج المدينة الى جانب آثارها العديدة وقد تفقدناها في ذلك المساء لكننا لم نستطع مشاهدة جميعها .

وتكريت هذه بلدة فيها ما يناهز خمسة آلاف نسمة لها سوقها حيث يجد الغريب كل ما يحتاج اليه من لوازم المعيشة وقد فرح رجال الحملة كثيراً بوصولنا الى تكريت فذهب العشي واتى بخروف ذبحه وقال هذه الليلة العشا عربي ني ومشوي وقضينا ليلتنا في الخيام مسرورين

١٨ ايـار

صممنا على صرف نهارنا في تكريت نزورها ونجوبها ونرتاح فيها من مشاق السفر، وحوالي الساعة العاشرة صباحاً دخلنا البلدة واخذنا نطوف فيها ، وادى بنا المسير الى محل صغير ضم اليه جمهوراً من الاهالي فاستفهمناعن هذا المكان فقيل لنا انه قهوة يجتمع فيها بعض البطالين ويصرفون الوقت . فمن باب الفضول احببنا ان نزور تلك القهوة فقدم لنا صاحبها المقاعد واذا بنا في وسط انيف من الناس لا يقلون عن العشرين وكان بعضهم يشرب القهوة وبعضهم يتناول المبردات وهلم جراً ، اما نحن فتناولنا قهوة عربية وانصرفنا عائدين الى خيامنا وكان الظهر قد حان ، وبعد الغداء والاستراحة القليلة ذهبنا نتفقد بقية الآثار

١٩ ايار

غادرنا تكريت عند الساعة الخامسة صباحاً وكنا عند الظهر في مكان ظليل فجلسنا هنالك نرتاح ونأكل ثم استأنفنا السفر تحت سماء محرقة سالكين طريقاً وعراً فانتهينا الى سامرا اصلها (سر من رأى) حوالي الساعة الخامسة مساء وكان السفر قد اعيانا والحر قد اضنكنا فرقدنا بعد ان أكلنا خفيفاً

٢٠ ايار

صرفنا نهارنا في سامرا نتفقد ما فيها ، وهي مركز قائمقامية وموقعها الحالي موقع

سامرا القديمة العاصمة الثانية للخلفاء العباسيين من سنة ٨٣٦ الى سنة ٨٧٦ ، ومدخل المدينة الحالية على قمة مرتفعة والى جانبها مسجد للشيعيين تعلوه قبة جميلة ومأذنتان بديعتان شكلاً وهندسة

وخرجنا صباحاً نزور الآثار القديمة القائمة على ضفتي دجله فلفت نظرنا الجامع العظيم المعروف بالعواميدي لانه قائم على اعمدة وفي اعلاه المنارة الملوية لانها ملوية البناء . ولا تزال الى الان آثار قصرين من قصور الخلفاء . ومن الآثار ذهبنا الى داخل المدينة فابصرنا عدداً من الحوانيت والخانات في جبهتها الغربية وساحات فسيحة فيها عربات النقل تجرها الخيل . والى جانب الضفة باخرة صغيرة تنقل الركاب بين سامرا و بغداد . وعدنا عند الظهر نتغدى ونأخذ قسطنا من الراحة . وحوالي الساعة الرابعة مساء استأجرنا الباخرة الصغيرة وتنزهنا في النهر نحواً من ساعتين ثم عدنا الى الخيام



القفة في دجلة

٢١ ايار

خرجنا من سامرا الساعة الخامسة فوصلنا عند الظهر الى نقطة تبتدىء فيها اشجار البلح الجميلة والكثيرة . فترجلنا للغداء والاستراحة . وقد شاء السائح ان نصرف الليلة في تلك النقطة فنصبنا الخيام هنالك حيث بتنا ليلتنا مرتاحين

٢٢ ايار

غادرنا نقطتنا باكراً جداً وكنا نسير في وسط البلاح وهو بظلل طريقنا ٠ وتناولنا طعامنا عند الظهر ٠ ثم استأنفنا السير فكنا عند الساعة السادسة مساء في خان المشاهدة وهو نقطة عسكرية فبتنا هنالك حيث قاسينا من الحر ما انسانا كل حر سابق

٢٣ ايار

تركنا ذلك المكان غير آسفين على حره الشديد المزعج فوصلنا الى كاظم حوالي الساعة الثانية عشرة ٠ فتغدينا واسترحنا ثم تابعنا السفر فانتهينا الى بغداد حوالي الساعة الثانية مساء فنصبنا الخيام على ضفة دجلة الغربية

الفصل السادس

بغداد وجوارها

٢٤ ايار — لغاية ٣ حزيران سنة ١٩١٤

— بغداد ومعجباتها — بابل وآثارها — كربلا وقبر سيدنا الحسين —
عظمة الخلفاء — مجد العرب وعدلهم — لمحة عن
جزيرة العرب والعروبة

٢٤ ايار

تناولنا طعام الصباح عند الساعة السابعة ومررنا الى القنصلية الروسية حيث اجتمع السائح الى قنصل دولته يقص عليه ما حدث له اثناء رحلته . ولما حانت الساعة الحادية عشرة عدنا الى الخيام فتغدينا واسترحنا قليلاً . ونحو الساعة الخامسة مساء خفت حرارة الشمس فخرجنا نتنزه في شوارع المدينة واحيائها . وكانت بغداد حينذاك لا تزال على الشكل العربي الصحيح الخالي من كل شيء جديد ومن كل رائحة غربية ، فهي معجبة بشكلها معجبة باهلها وملابسهم العربية البحتة ونسق المعيشة فيها فهو عربي خالص لم يدخل عليه التفرنج على الاطلاق ومن درس حال هذه المدينة يفهم من هم العرب وماذا كانوا ابان مجدهم .

كانت بغداد يوم رحلتنا هذه مركز احدى الولايات العثمانية المعروفة باسمها وقاعدة الفيلق الهمايوني السادس . وهي تقع على ضفة دجله الشمالية حيث يبلغ عرضه ٢٧٥ يرداً ومجراه عميق جداً يصل بين الضفتين جسران مؤلفة من مراكب خشبية

عدد سكانها ٢٠٠ الف نسمة اكثرهم من المسلمين السنيين والشيعيين وغيرهم . ولا يستهان بجماعة اليهود الذين كانوا فيها اذ لم يكن عددهم يقل عن الخمسين الفا ويسكنون حارة تعرف بحارة اليهود . اما المسيحيون فكانوا الاقلية بين الاهالي وا كثرهم

من الكلدان .
وكان الاوربيون يملكون نحواً من مائة منزل .
وكانت بغداد سوقاً للمحصولات العربية والعجمية فكانت تصدر الى الخارج الصوف والحبوب والبلح



جامع الشيخ عبد القادر في بغداد

ناهيك بالعدد العظيم من اجناس الخيل التي كانت تبعث بها الى الهند ومثلها الحمار الابيض الذي يسمونه « فاسكاه » .

وقد بنيت بغداد القديمة بالطوب المنقوش عليه اسم بختنصر ولا يزال شيء من هذا الطوب الى يومنا .

اما المدينة الحالية بغداد او الزوراء او مدينة المنصور او دار السلام جميعها اسم لمسمى واحد وهي المدينة التي بناها ابو جعفر المنصور سنة ٧٦٢ مسيحية الذي تولى الخلافة بعد السفاح اول الخلفاء العباسيين وكانت خلافته في سنة ٧٥٤ م حتى سنة ٧٧٥

وان كل من يتصفح التاريخ يعرف ما هي بغداد وما كانت عليه من العظمة والمنعة ايام الخلفاء العباسيين اخصهم هارون الرشيد وابنه المأمون اللذين بلغت بغداد في عهديهما اعلى منزلة في الادب والعلم والحضارة والغنى حتى كانت بغداد ولا جدال اهم عاصمة من عواصم الملوك واجل قدراً من امهات المدن في ذلك الزمان

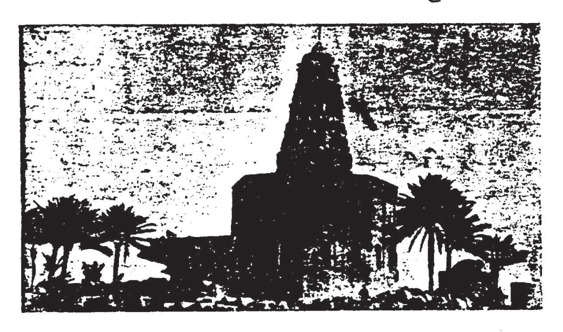
اما الخلفاء الآخرون فانهم نقلوا عاصمتهم الى سامرا وكانت نهاية مملكة الخلفاء العباسيين في بغداد سنة ١٢٥٨

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تتراوح الاحكام في بغداد بين العجم والترك واصبحت اخيراً تحت حوزة الترك الى آخر الحرب الكونية ، وهي الآن عاصمة مملكة العراق مليكها جلالة غازي بن فيصل بن الحسين ملك الحجاز . واعظم ما

كان في بغداد في ابان مجدهـا ، جامع المرجان وخان الاورطمان وباب الطلاسم وبوابة تاليسمان وعلى هذه البوابة صور لأسود كثيرة وقد نقشت نقشاً بديعاً وصورة سيدة ماسكة بلساني حيتين

ومن اشهر بناياتها مأذنة سوق الغزل . هي اعلى بناية فيها

وفي بغداد جوامع عديدة مدهونة بالوان مختلفة ومآذن بذات الالوان



قبر الست زبيدة زوجة هارون الرشيد في بغداد

وقلعة بغداد واقعة شمالي المدينة وهي محـاطة بسور عال جداً ، وجنوبي القلعة على دجله سراي الحكومة

شوارعها واسواقها مغطاة ومسقوفة وتنسيقها افضل من اسواق حلب والشام ، منازلها مبنية بالطوب المشوي ، وامام كل منزل من منازلهـا سطح يرقد عليه اصحاب المنزل في فصل الصيف والجدران باجمعها مطلية بالكلس في خارجها ونوافذ المنازل تفتح درفاتهـا الى الداخل

وفي عهد مدحت باشا شيدوا في بغداد بيوتاً عديدة علَى الطراز الاوربي ، وفي حي المعظم في شمالي المدينة الجامع العظيم جامع الحنفية وقد بني حديثاً وتعلوه قبة ومأذنة بالوان متنوعة وفي الجـامع هذا قبر ابي حنيفة الذي مات سنة ٧٦٧ ، ويتصل المعظم بالكاظمين عن يمين دجله بمعبر من المراكب ، وفي الكاظمين جامع الشيعيين الكبير

وفيه قبر الامام موسى العظيم وقبر ولده الاكبر ، وقد اصلحوا وحسنوا بناء هذا الجامع في القرن التاسع عشر وله مأذنة عظيمة جميلة الشكل (وقد تبرع الايرانيون بمصاريف الاصلاح الطائلة)

وبين الكاظمين والهامي يسير الترامواي ، وعند مدخل المدينة الغربي جامع الشيخ معروف الكركي وقبر زبيدة امرأة هارون الرشيد

من ٢٥ الى ٢٨ ايار

قضينا هذه الايام الاربعة نتفقد الآثار التي ذكرناها سابقاً فصدفنا في احد الجوامع شيخ جليل القدر محترم فحيانا مسلماً وجاء بنا الى قاعة جميلة بقرب ذاك الجامع وامر لنا بالجلوس فبالقهوة ، ثم سأله السائح اذا كان بامكانه ان يشرح لنا شيئاً من تاريخ العرب وجزيرة العرب فاجاب يمكني ان اشرح لكم اشياء كثيرة عن ذلك ثم قال :

شبه جزيرة العرب

بلاد واقعة في الجنوب الغربي من آسية يحدهـا من الشمال العراق ، وبرية الشام وطورسيناء ومن المغرب البحر الاحمر ، ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشرق خليج عمان ، والخليج الفارسي ، وعدد سكانها يتراوح بين عشرة ملايين واثنى عشر مليوناً

ونقسم هذه البلاد الى خمسة اقسام وهي : نجد ومدينتها الرياض ، واليمامه ومن مدنها اليمامه وهجر ، والحجاز وفيها مكة والكعبة يحج اليها الناس من زمن ابراهيم الخليل ، والمدينة دار هجرة صاحب الشريعة الاسلامية ، ومن مدنها ايضاً جده والطائف ثم تهامه وقد اتصلت باليمن ، واخيراً اليمن او القسم الجنوبي من الجزيرة ، ومن مدنها صنعاء ومأرب وعدن والقطيف

العرب

العرب ثلاث طبقات : الطبقة الاولى البائدة او العاربة ، اتى منهم عاد الى اليمن من جنوب العراق عن طريق الاحساء وعمان وامتد الى تهامه والحجاز ، وجاء ثمود وعمليق عن طريق برية الشام الى الحجر ، فاستقر ثمود هناك ، وتجاوز عمليق الى برية طورسينا ، وثبت فرعه فيها الى ان كثر واشتد فغزا مصر وكانت له فيها دولة الرعاة ،

ولقد باد هؤلاء واولئك واختلطت بقاياهم بالقحطاني فسموا لذلك بالعرب البائدة

والطبقة الثانية العرب المتعربة ، وسموا بذلك لنزولهم بالبادية مع العرب العاربة ، وهم ابناء قحطان ، ولقد اتوا الى اليمن ، وكانت لهم فيها دول اعظمها الحميرية التي امتدت في الجزيرة حتى الشام والعراق ، وبعد سيل العرم (وهو السيل الذي اجتاح سد مأرب وكان هذا السد مبنياً بين جبلين لخزن المياه وري الاراضي) اتى فريق منهم الى الشام وشيدوا فيها الدولة الغسانية ، واجتاز فريق آخر الى العراق فكان منهم هناك المناذرة ملوك الحيرة

والطبقة الثالثة العرب المستعربة ، وهم ابناء اسمعيل بن ابراهيم الخليل من « هاجر » المصرية ، وكانت لغة اسمعيل العبرانية ، ولما صرف ابراهيم اسمعيل عن وجه اسحق ابنه من « ساره » ذهبت به أمه هاجر الى بوبة طورسيناء ، وسكن اسمعيل في منازل عمليق ، وتعرب هناك ابناؤه فسموا المستعربة . وكانت منهم قريش ، وهي القبيلة التي جمعها زعيمها « قصي » من كل اوب الى البيت الحرام . ومنها النبي العربي محمد ابن عبدالله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي .

مدنية العرب

كانت العرب في اول امرها على دين ابراهيم واسماعيل ، حتى قدم عمرو بن لحي بصنم يقال له هبل ، وهو من اعظم اصنام قريش . وكان في الكعبة على يمينها حجر اسود ، وما زال هذا الحجر معظماً في الجاهلية والاسلام .

وكان للعرب اصنام نصبوها على اسم السيارات من الكواكب . ومن معبوداتهم : المناة ، وكانت صخرة ، تراق عليها دماء الذبائح ، واللات ، وكانت صنماً للشمس ، والعزى ، وكانت شجرة يعظمها قريش وبنو كنانة ، ومن اديانهم : المجوسية والصابئة نصبوا اصنام الذهب للشمس ، واصنام الفضة للقمر ، وقسموا المعادن والاقاليم للكواكب واليهودية في حمير وكنانة وبني الحارث بن كعب وكندة . اما النصرانية فقد انتشرت في ربيعة وقضاعة وتنوخ وتغلب وبعض طي ودان بها ملوك غسان وكثيرون من ملوك اليمن والحيرة . ثم جاء الاسلام ، وعم جزيرة العرب في زمن يسير وقضى على الوثنية

اما علم العرب الذي كانوا يتفاخرون به فعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار

وتأليف الخطب · وكانوا موسومين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والزلاقة في اللسان · وكان لهم مع هذا معرفة باوقات مطالع النجوم ومغاربها · وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمقيد لايامها · وكانوا كل حول يتقاطرون الى سوق عكاظ يتناشدون ويتفاخرون · ولقد بلغ من كلفهم بالشعر ان عمدوا الى سبع قصائد من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب ، فقيل لها مذهبات او معلقات لانها عاقت باستار الكعبة · اما الكتابة فاخذوها عن السريانية ، وكان العارفون بها قليلين ، ثم قام الاسلام ، وسار العرب في الارض فاتحين ، فنقلوا الى العربية صفوة العلوم والآداب فازهرت مدنيتهم ، وترقت حضارتهم ، حتى اقتبست اوروبه عنهم الشيء الكثير · · ·

وكان العرب يحسنون حمل السلاح كما يحسنون ركوب الخيل ، ومن اسلحتهم الرماح والسهام والسيوف والتروس والدروع ، وبرعوا في صقل هذه الاسلحة وسموها باسماء المدن التي امتازت بصنعها كالمشرقية والهندية والخطية الخ ، وقد طالما فاخروا باقتنائها وتغنوا بها في اسفارهم

وقد اشتهر العرب بالمروءة والنخوة واكرام الضيف واعزاز الجار والاخذ بالثأر ، وكان منهم عرب البادية وهم قبائل رحالة تعيش في خيام الوبر والصوف ، وتضرب الاراضي الكثيرة الماء والمرعى والحضر منهم ساكنو المدن ، هذا ما قاله ابي الفرج وانتهى الشيخ من حديثه فشكرناه وودعناه عائدين الى الخيام

٢٩ ايار

غادرنا بغداد عند الساعة الثامنة صباحاً فانتهينا عند الظهر الى محل ظايل على شاطىء الفرات فتناولنا الطعام واسترحنا قليلاً ثم استأنفنا السفر فكنا في كربلا نحو الساعة السادسة مساء

٣٠ ايار

صرفنا نهارنا نتفقد المدينة وآثارها وكربلا مدينة مأهولة بخمسين الفاً من الناس وفيها جامع سيدنا الحسين الذي قتل سنة ٦٨٠ في موقعة بينه وبين اعداء والده علي ، وهناك قبره

يزيد بن معاوية ٦٨٠ — ٦٨٣ مسيحية بويع يزيد بالخلافة وكان غير اهل

للخلافة ، فنازعه اياها كثيرون ، وبايع اهل المدينة ومكة عبدالله بن الزبير ، واراد اهل العراق مبايعة الحسين بن علي ، فقام الشقاق والاضطراب بين المسلمين وتمكن بعض دعاة يزيد من القبض على الحسين فاجتزوا رأسه في كربلا يوم عاشورا ، وبعثوا به الى يزيد سنة (٦١ هجرية) على ان القتال ظل سائداً بين دعاة عبدالله بن الزبير ودعاة يزيد الى ان توفي يزيد ٦٨٣ مسيحية وكانت خلافته ثلاث سنوات وتسعة اشهر

وفي يوم تذكار مقتل الحسين (في العاشر من شهر محرم) يضرب الدراويش رؤوسهم بالسكاكين ويجتمع في كربلاء في ذلك اليوم بين مائة وخمسين ومائتي الف نسمة . ويحمل الالاف منهم بقايا اقاربهم ويدفنوها في تلك الاراضي المقدسة حيث دفن سيدنا الحسين

٣١ ايار

تركنا كربلا باكراً وتناولنا الغذاء في نقطة ظليلة واسترحنا قليلاً ثم استأنفنا المسير فبلغنا الى بابل عند الساعة السابعة مساء . فنصبنا الخيام على مقربة من الاثار

١ حزيران

صرفنا نهارنا نتفقد بابل وآثارها .. وبابل مدينة عظيمة قديمة العهد . وفي خلال اجيال ثلاثة امتدت سلطتها الى آخر حدود العجم فكان لها المركز الاول في اسية بعدد سكانها وثروتها وجمالها ونقوش بناياتها وهندستها . وقد تكون اجمل من قبيس المصرية (لقصر)

موقعها على ضفتي نهر الفرات على ان القسم الاهم منها على الضفة الشرقية ، وكان اتساعها نحواً من خمسة وخمسين ميلا وهي مساحة تضاهي مساحتي باريس ولندن وكانت محاطة بسور علوه عشرون متراً بسماكة خمسة امتار . وقد غمر الفرات قسماً كبيراً من المدينة ولم يبق من سورها سوى جزء صغير . وقد اندثرت ناحيه المدينة الشمالية

وفي اطر ف المدينة مواقع عديدة منها قرية قورش . هو القصر الذي ابتدأ الالمانيون فيه حفرياتهم وكان قاعدة لاعمالهم ويعلو القصر عن الفرت خمسين قدماً

والى الجهة الجنوبية قصر الملك نبوكد نصر وفي قسمه السفلي غرف كثيرة اجملها الغرفة العظيمة التي تدعى « منه شال » اي غرفة العرش وطولها مائة وسبعون قدماً



اسد بابل

بعرض ستين • وقد عثروا في شرقي هذين القصرين على مكان التطواف او الاحتفال بالزياح الخاص بالاله مردوخ • والمكان هذا مغطى بالكتابات النافرة المختلفة الالوان وبلاط صيني لماع • ويشاهد على الحجارة رسوم للاسد والثور والتنين ورمم قوس دعوه بقوس النصر بعد لاله اشتار • وهناك هيكل « اماك » وفي وسط ثمة عمران بن علي الى الجهة الجنوبية من القصر اعظم معبد عند البابليين وهو مرجعهم الديني

وهناك هيكل اساجيلا وفيه الهرم المدرج الذي بناه الملك « اتامان تا كي » ويعرف هذا الهرم « ببرج بابل » ومساحة صحنه تبلغ ٣٣٠ قدماً مربعاً • والهرم مبني بدرجات هائلة في كل منها من النبات والازهار اشكال تختلف عن الاخرى • وكان اليونانيون الذين عبدوا الاله ساميراميس يلقبون هذا الهرم بالبساتين المعلقة

والى جهة البرج الشرقية قصر ثالث شيده نبو كدنصر وكان الالمانيون لم يصلوا اليه بعد على ان مركزه كان ظاهراً للعيان • وجميع ما ذكرناه آنفا قائم في داخل سور المدينة وعما يعرف عن بابل انها اقدم مدينة قطنها اقدم شعب في تلك البلاد وهو الشعب السومري او الاكادي • ولا يزال هذا الشعب مجهولاً رغم انه كان شعباً عظيماً شيد القصور الشاهقة والمعابد العظيمة والحصون المنيعة واقام التماثيل الضخمة ونقش على الصخور الصلدة نقشاً بديعاً لا يماثله نقش بجماله ومختلف اشكاله



بوابة اشتار في بابل

واشهر الملوك الاقدمين في شمالي بابل : سرجون الاول سنة ٢٨٠٠ قبل المسيح ثم تارام سين الذي جاء الى سورية والبلاد العربية سنة ٢٢٠٠ قبل المسيح . ثم حمورابي البابلي الذي ضم الولايات الصغيرة والف منها مملكة واحدة ذات مقاطعات متحدة تحت اشراف بابل ، وقد سن حمورابي شرائع مدنية شبيهة بالوصايا العشر المذكورة في التوراة ، وحمورابي هذا حكم ايضاً سورية حتى البحر المتوسط وقسماً كبيراً من البلاد الواقعة شمالي دجله ، وما بين سنة ١٩٥٠ و ١٦٥٠ قبل المسيح ظهر الحيثيون ودخلوا تلك الاراضي من الشمال الغربي وابعدوا ملوك بابل عن تلك البقعة فارجعوهم الى حدودهم الاصليه

وفي اواخر القرن الخامس عشر قبل المسيح امتدت لغة بابل ومدنيتها الى كل آسيا الغربية والى القطر المصري ، وفي القرن الثاني عشر قبل المسيح ضم نبوكدنصر اجزاء المملكة واستولى على المقاطعات الواقعة بين البحرين الجنوبي والغربي ، وبين سنة ١١٠٠ وسنة ١٠٠٠ قبل المسيح عاد الكلدانيون ودخلوا البلاد من جهة البلاد العربيه وبسطوا سلطانهم على سائر البلدان البابليه والمقاطعات التي ضمها نبوكدنصر وعلى جميع الاراضي الواقعة ما بين النهرين ، وفي عهد اشورباسربال الثالث سنة ٨٨٥ — ٨٦٠ قبل المسيح كانت بلاد آشور صاحبة الحول والطول في بلاد آسيه فتغلب هذا الملك على سائر ملوك ما بين

النهرين واستمان برجال سوريين وفينيقيين لادارة مملكته ، وخلفه شلمناصر الثاني ٨٦٠ — ٨٢٥ قبل المسيح ، فكسر الاراميين وملكهم في دمشق وبسط سلطانه على ما ابعدمن بابل

وفي عهد سنحاريب ٧٠٥ — ٦٨١ قبل المسيح بلغت اشور اوج مجدها وكانت بابل في تلك الاثناء ضعيفة القوى العسكريه فصب سنحاريب سخطه عليها فاخذ يهدم شوارعها وبناياتها العظيمة وهيا كلهاوحول عليها نهر الفرات لتغمر مياهه ما نجا من شره وهكذا جعل القوة والسيطرة لنينوى

وجاء بعد سنحاريب ابنه اسارحدون ٦٨٠ — ٦٦٨ قبل المسيح فاضطر الى تجديد بناء بابل لانه قسم مملكته الى قسمين واعطى كلا من ولديه قسماً فصارت مملكة اشور لاشور بانيبال ومملكه بابل لشمشوم اوكين

ثم ما طال الامر بين هذين الاخوين حتى اختلفا وتنازعا وتحاربا سنة ٦٤٨ قبل المسيح وقتل اذ ذاك اشور بانيبال فاستعادت بابل عزها ومجدها

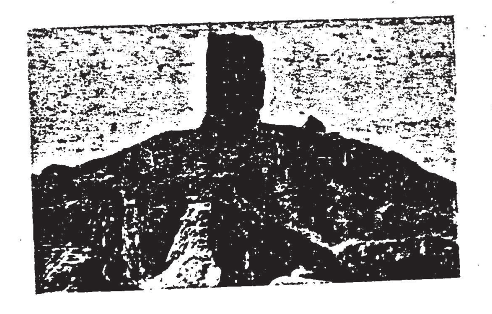
ومؤسس المملكه البابليه الجديدة نابوبولاصر الكلداني ٦٢٠ — ٦٠٥ قبل المسيح وتوسع سلطان ولده نبوكدنصر الثاني ٦٠٥ — ٥٦٢ قبل المسيح فامتدت سيطرته على كل بلاد ما بين النهرين وسورية

ثم ما لبث ان ظهرت قوة جديدة من جهة العجم فاستولت على بابل واسيه الصغرى ثم دخل كمبيسوس البلاد المصرية ثم دارا ثم المكدينيون بقيادة الاسكندر، ثم الرومان وبنو ساسان حتى سنة ٦٣٦ بعد المسيح وعندها هاج العرب الساسانيون وحدثت موقعة اديسيا في جنوبي بابل والتحم الفريقان في نهاوند

ثم جاءت ايام هارون الرشيد والمأمون وعقبهم الاتراك الذين ظلوا هنالك الى نهاية الحرب الكونيه

٢ حزيران

تركنا بابل الساعة الرابعه صباحاً عائدين الى بغداد فبلغناها عند الساعة الثامنة مساء .



برج بابل

٣ حزيران

صرفنا نهارنا في بغداد حيث زرنا القنصل الرومي وسراي الحكومة واستبدلنا الدرك وجهزنا بعض الاوراق الرسمية التي رأيناها مناسبة لخطتنا الجديدة

الفصل السابع

من بغداد الى الموصل

٤ ١٩ حزيران سنة ١٩١٤

خان بني سعد - بعقوبة اجتياز نهر ديالا - الحديدة - نهر الخالص - جسر الحجر - نهر تارين تشاي - قره تبه - كيفرى - طوك طازة كركوك - بابا غرغور - الطين خويرو -- اربلا حيث دفن كنوزه دارا قبل الموقعة بينه وبين الاسكندر - نهر الزاب حيث غرق الالوف من الفرس منهزمين امام المكدونيين هجوم اللصوص علينا ليلاً - الوصول الى الموصل

٤ حزيران

خرجنا من بغداد الساعة الثامنة صباحاً وحوالي الساعة الواحدة بعد الظهر كنا في خان بني سعد حيث نصبنا الخيام وبتنا ليلتنا . وخان بني سعد هذا محطة للحجاج القادمين الى كربلا لزيارة سيدنا الحسين

٥ حزيران

سافرنا من خان بني سعد الساعة الثانية صباحاً وعند الساعة الثانية عشرة كنا في نهر ديالا وهناك تناولنا طعام الغداء ثم استأنفنا المسير فانتهينا الى بعقوبة الساعة الثالثة مساء . فنصبنا الخيام في نقطة جميلة واقعة على ضفة النهر وهناك بتنا ليلتنا . وبعقوبة نقطة الانصال بين بلاد العراق وخانقين الواقعة على حدود العجم

٦ حزيران

تركنا بعقوبة باكراً وعبرنا نهر ديالا على الدواب السابحة ثم اجتزنا جداول وسواقي عديدة ، وحوالي الساعة الثامنة مساء كنا في الحديدة وهي قرية صغيرة يقطن اهلها بيوتاً من الطوب وهناك صرفنا ليلتنا

٧ حزيران

غادرنا الحديده صباحاً وسلكنا طريقاً ممتداً بين نهر ديالا ونهر الخالص ، ثم ادى بنا المسير الى جسر فوق الخالص ، عبرناه واسترحنا قرب النهر وتغدينا ثم استأنفنا المسير فانتهينا عند المساء الى وادي عباس حيث بتنا ليلتنا يزعجنا الحر الشديد وتحاربنا جيوش البرغش والبعوض

٨ حزيران

سافرنا باكراً وعند الظهر وصلنا الى سلسلة من الجبال تعرف بجبال حمرين ، فترجلنا نرتاح ونتغدى ، ثم عبرنا الجسر الحجري الطبيعي الممتد فوق نهر سرين تشاي ووجهتنا قره تبه فوصلنا اليها عند الغروب

٩ حزيران

توجهنا الى كيفري فوصلنا اليها الساعة الثانية مساء وقضينا هنالك ليلتنا

١٠ حزيران

غادرنا كيفري الساعة الخامسة صباحاً فكنا في طوزخرماتو الساعة الواحدة بعد الظهر وهناك صرفنا بقية نهارنا والليلة التالية

١١ حزيران

سافرنا الساعة الخامسة صباحاً فانتهينا عند الظهر الى طاوق حيث بتنا ليلتنا

١٢ حزيران

تركنا طاوق حوالي الساعة الخامسة صباحاً فوصلنا الى طوزطازه الساعة الثامنة مساء

١٣ حزيران

خرجنا من طوك طازه الساعة الخامسة صباحاً و كان مسيرنا على ضفة نهر الكساه وعندالظهر كنا في كركوك فنصبنا خيامنا خارجاً عن المدينة وبتنا ليلتناهناك ......

وكركوك حين مررنا بها كانت آهلة بخمسة عشر الف نسمة و كان ثلث سكانها من المسيحيين الكلدان ولهؤلاء اديارهم و كنائسهم . وفي كركوك بلح كثير ومثله الليمون من برتقال وحامض وكباد ويوسف افندي

١٤ حزيران

غادرنا كركوك وقدسلكنا طريقاً غير السلطاني فما طال بنا الامر حتى انتهينا الى باباغرغور وهو محل غني بينابيع البترول ، وهنـاك من عهد الايرانيين هيكل مكرس للملكة اناهيا فذهبنا اليه ووقفنا على آثاره

ثم استأنفنا السير على الطريق السلطاني ما بين عدد عظيم من اليناـبيع الكبريتية وتناولنا غداءنا في مكان ظليل عثرنا عليه في ذاك الطريق ، وبعد ان تناولنا الاكل تابعنا السير وجهتنا الطين خويرو فانتهينا الى هناك حوالي الساعة السابعة مساء فنصبنا الخيام ونمنا باكراً اذ كان التعب والحر قد آخذا منا كل مأخـذ

والطين خويرو بلد صغير آهل بالتركمان دون سواهم وفيه خانات عديدة ولكنها صغيرة حقيرة وقد بنيت في وسط نهر الزاب ويصل اليهـا المارة بواسطة جسر حجري يشبه الجسور القديمة التي كانوا يبنونها في لبنان

١٥ حزيران

نهضنا حوالي الساعة الرابعة صباحاً نريد السفر الى اربيل فبلغناها عند الساعةالرابعة مساء و كان التعب قد اعيانا فنصبنا الخيام في نقطة ملائمة وتناولنا طعاماً خفيفاً ونمنا باكراً

١٦ حزيران

صرفنا نهارنا كله نتفقد الاماكن القديمة والاثار المكتشفة وهي قليلة لان اكثرية آثار اربيل ما زالت مدفونة في قلب الارض . وكانت اربيل تدعى اربائيل وسماها اليونان اربلا . و كانت اكبر البلدان الاشورية فكان يقطنها الملايين من الناس

اما منازل القرية الحالية فا كثرها قائم على التل او القلعة التي كانت تحيط بالمدينة والتي فيها دفن دارا كنوزه قبل الموقعة التي وقعت بينه وبين الاسكندر

١٧ حزيران

غادرنا اربيل عند الساعة الثانية صباحاً ونحو الساعة الواحدة بعد الظهر كنا امام اسكي كلك على ضفة الزاب الاعلى حيث غرق الوف من الفرس المنهزمين من وجه الاسكندر بعد موقعة اربيل التي ذكرناها آنفاً فنصبنا الخيام واكلنا ثم استرحنا وصرفنا بقية نهارنا نتنزه على الضفة وفي الليل درسنا الخطة الواجب اتخاذها لعبور الزاب فقد كانت مياهه في ابان ارتفاعها وحينذاك يبلغ عرض مجراه ميلاً فا كثر والزورق المعد للنقل صغير جداً .

١٨ حزيران

نهضنا من رقادنا باكراً نروم عبور النهر وكان الزورق المعد للعبور صغيراً لا يتحمل اكثر من دابة فاستغرق اجتياز الزاب نحواً من اربع ساعات ، ثم سرنا ما يناهز ساعات خمس فانتهينا الى نقطة يسمونها « غوغاملا » حيث جرت الموقعة الاخيرة بين الاسكندر والفرس فقضى الاسكندر على اعدائه منتصراً على ملكهم دارا

وكان ذلك سنة ٣٣١ قبل المسيح ومن غوغاملا تابعنا المسير الى قابونبته الغنية بآثارها القديمة . ثم سرنا الى قرية آهلة بالناس تدعى « كارافينيس » وهناك نصبنا الخيام واسترحنا

وعند منتصف الليل اذ كان جميع رجالنا راقدين دخل علي الحارس وايقظني قائلاً ، لقد اقبل علينا ثلاثة من الغرباء وهم متقلدون باسلحتهم ، فنهضت حالا وأمرت للحارس ان يوقظ رجال الدرك ففعل ، وعندها ذهبت لمقابلة اولئك الغرباء وسألتهم ماذا تفعلون هنا بين خيامنا ؟ ألا تعلمون ان الدخول الى هذا المكان ممنوع قبل الاستئذان ؟ اجاب احدهم قائلاً : لقد احوجتنا الضائقة الى المجيء بغية الحصول على مساعدتكم .

قلت : أفي مثل هذه الساعة تأتون طلباً للمساعدة ؟ قال : نعم ، اذ لا يمكنا ان نطلب المساعدة في وقت أنسب حتى اذا رفضوا ان يساعدونا اجبرناهم على ذلك

بالقوة ، وما كاد ينجز كلمته هذه حتى كان رجال الدرك بيننا فلتفت الجاويش الى اولئك القوم قائلا : سلموا سلاحكم والا اطلقنا عليكم النار ، وما هو غير القليل حتى كان رجالنا باجمعهم يحيطون باولئك اللصوص الذين جبنوا امام القوة فانتزعنا منهم سلاحهم وكبلناهم حتى الصباح

١٩ حزيران

سافرنا صباحاً مصطحبين اللصوص وحين وصولنا الى الموصل سلمهم رجال الدرك الى اولياء الامر ، ونحن ذهبنا تواً الى دار القنصلية الروسية فقابلنا السيد نصر وهو ترجمان القنصلية الروسية الذي ادى لنا الخدمات الجليلة ابان زيارتنا الماضية

٢٠ حزيران

صرفنا نهارنا برفقة السيد نصر فتجولنا معاً في المدينة نشتري لوازمنا ونجهز عدتنا من مأكل ومشرب استعداداً لرحلتنا من الموصل الى ديار بكر وحلب ، وطلب السيد نصر من الحكومة ان تريح رجال الدرك الذين كانوا معنا وتعطينا رجالاً غيرهم فلبت الحكومة الطلب ، وعند المساء قدم لنا السيد نصر لفيفاً من معارفه ، فطلبنا منهم ان يتناولوا طعام العشاء على مائدتنا فمنهم من لبى الدعوة ومنهم من خرج معتذراً ، وقد صرفنا السهرة نقص على مسامعهم اخبار رحلتنا من اولها الى تاريخ ذاك اليوم الذي جمعنا معاً

اوتيل بولونيا

ضهور الشوير

يقوم في وسط حرش من الصنوبر هوائه ناشف مجهز بجميع وسائل الراحة مطبخه متقن محاطاً بالمناظر الطبيعية الجميلة ، مياه جارية ، حمامات خصوصية ومن جرب عرف

الفصل الثامن

من الموصل الى بيروت

٢١ حزيران غاية ٢٠ تموز

الموصل — تل عدس — شميل — نهر الهيزر وعبوره - طاقيان والبكاوات الولدان اليتيان — الجزيرة واللصوص فيها والضيافة بالمطرانخانة — تل وبل ومقابلة محمد شيوخ — لنزاوور — نصيبين وسرقة الجواد فيها—ماردين —قرى ارمينيا التي جرت فيها المذابح وارنشهر — محمد خان - اورفا — معرفتنا بالحرب الكونية— تغيير خطة السفر— حلب وجوارها حمص وزيارة الشيخ محمد الملحم— بعلبك ولمحة من تاريخها—الوصول لبيروت

٢١ حزيران

نهضنا باكراً نتأهب للسفر وحوالي الساعة السابعة صباحاً جاء الترجمان بودعنا فشربنا القهوة سوية وشكرنا له غيرته وخرجنا من الموصل حوالي الساعة الثامنة فعبرنا جله ومررنا وجهتنا « تل عدس » وعند الظهر كنا بجوار بئر ماء صالح للشرب فترجلنا دتناولنا طعامنا ثم استأنفنا المسير فبلغنا تل عدس عند الساعة الثالثة مساء ونصبنا الخيام و وسط ساحة على مقربة من القرية

وتل عدس ملك لاحد اغنياء الموصل وجميع سكانها مسلمون ، وما كدنا ننصب

الخيام حتى التف حولنا جمهور المتفرجين يشاهدون شيئاً جديداً ما شاهدوه من قبل ، ووقعت اعيننا على غلام في ربيعه الخامس عشر كان في شكله وهيئته وملامح وجهه يختلف عن سائر اولئك المتفرجين وكان نور الذكاء يشع في عينيه . فالتفت الي السائح وقال : ناد هذا الغلام ففعلت ، فدنا منا بكل شجاعة وحيانا بكل لطف ثم قال ، ماذا تأمرون ؟

فقال لي السائح : سله اذا كان ولد وتربى في هذه البقعة . ففعلت

فاجابني الغلام : اني ولدت هنا في هذه القرية . ومات ابي وامي في عام واحد وكنت آنذاك ابن ثلاث سنوات . ولم يكن لي اخ او اخت او عم او خال يهتم بامري فكنت اعيش على حساب المحسنين والمتصدقين . وحين بلغت الخامسة اتفق ان احد اغنياء بغداد مر بتل عدس فبصر بي وسأل عن حالتي فاطلعوه على حقيقة امري فاقتادني الى بغداد حيث ادخلني المدرسة اقتبس انواع العلوم وما زلت الى الان اواصل التحصيل وقد اتيت اليوم الى هنا ازور مسقط رأسي وبعد يومين او ثلاثة اعود الى مركزي

قلت : وماذا يدرسون في مدرستك ؟ قال : العربية والانكليزية والرياضيات والتاريخ . قلت : اذن تتكلم الانكليزية ؟ قال : اتكلمها واكتبها بدون غلط

فترجمت للسائح ما دار بيني وبين الغلام من الحديث فسر جداً وقال : اغنيك اذن عن الترجمة واني اقضي بعض الوقت مع الغلام ريثما تعد ما نحتاج اليه في رحلتنا . وبتنا ليلتنا مرتاحين لان الحر كان خفيف الوطأة

٢٢ حزيزان

قمنا الساعة الثانية بعد نصف الليل وكان ضوء القمر ينير سطح الارض فخرجنا من تل عدس وبلغنا «سميل» الساعة السابعة صباحاً . واهل سميل يهود باجمعهم وليس بينهم غريب عن دينهم ويشبهون بهيئتهم يهود صفد السكناج . والارض هناك ملكهم الخاص . غير انهم يذوقون الامرين من لدن الاكراد مجاوريهم وقد قابلنا منهم اناساً عديدين فوجدناهم يتذمرون من اعتداآت الاكراد الذين يتقاضونهم الضرائب في اي وقت شاؤوا فضلاً عن امتهانهم شرف النساء والبنات

٢٣ حزيران

تركنا سميل الساعة الخامسة صباحاً فانتهينا الى «زاخو» الساعة الثالثة مساء فنصبنا الخيام على مقربة من جدول ماء

وزاخو قرية صغيرة سكانها من المسلمين والكلدان واليهود الذين هم من سلالة اليهود البابليين

والكلدان هناك اقلية لا يتجاوزون عشرين عائلة وجميعهم كاثوليك وهم من الطبقة الفقيرة ولهم كنيسة حقيرة ومطران يقيم في دار لا بأس بهـا ، فذهبنا لزيارة المطران الذي ترحب بنا كثيراً ودعانا للنزول في داره فقلنا له اننا نصبنا خيامنا على مقربة من جدول الماء الذي شاهدناه عند مدخل القرية ، فالح علينا بالنزول عنده فلم يسعنا الا الطاعة واقتلعنا الخيام بعد نصبها واشغلنا خمس غرف من الدار الاسقفية ، ولم يكن المطران غنياً لانه يعيش من مال رعية فقيرة على ان كثرة عددهـا تفي بحاجاته من كسوة وقوت ، ودعونا سيادة المطران لتناول العشاء على مائدتنا فتلطف بتلبيتنا وقضى معنا تلك السهرة يقص علينـا اشياء كثيرة تتعلق باحوال الكلدان في تلك النواحي ولعمري انها لاحوال تستوجب الشفقة

٢٤ حزيران

كان ذلك اليوم عيد مولد القديس يوحنا المعمدان فدعانا سيادة المطران لسماع قداسه الصارخ ، وبعد القداس تناولنا القهوة وأكل الصباح معـاً . ثم تبرع السائح للمطران بمبلغ لا يستهان به ، فقبله المطران شاكراً وودعناه نروم السفر فوصلنا عند الساعة العاشرة صباحاً الى نهر الهيزر فوجدناه عريضاً مخيفاً وكان لا بد من عبوره وهو السبيل الوحيد الى الاماكن التي كنا نقصدها

فسألنا عن كيفية اجتيازه فقيل لنا انه يوجد اناس متخصصون لذلك وهم رجال محمد آغا المقيمون في قرية تدعى «درنج» على الشاطىء فبعثنا بمن جاءنا بهم وكانوا عشرة . فتوافقنا على الاجرة فتفرق اولئك الرجال بين الحملة وقادوها فوق المياه سابحة باحمالنا ونحن فوق خيلنا ونقلونا بما كان معنا من امتعة ودواب من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية . ثم استأنفنا المسير حتى انتهينا الى طاقيان فنصبنا الخيام في وسطها

وطاقيان آهلة بقوم من المسيحيين من الطائفة الكلدانية ويسومهم الاكراد مجاوروهم انواع الحيف والظلم فينهبونهم ويسلبونهم ويتقاضونهم الضرائب كما عن لهم ذلك ويغتصبون نساءهم وبناتهم ويعاملونهم بايجاز الكلام معاملة العبيد الارقاء · واتفق اننا التقينا كاهناً كلدانياً اثناء تجوالنا في القرية فدنا منا بكل لطف وحيانا مسلماً علينا ورجا منا ان نزوره في منزله ونتناول عشاءنا عنده فاجبته اننا لا نتمشى خارجاً عن خيامنا انما يسعنا ان نقضي السهرة عنده وهكذا كان

فقص علينا الكاهن في تلك الاثناء حوادث عن الاكراد تقشعر منها الابدان · وقد وصانا بولدين اخوين لا اب لهما ولا ام طالباً منا اذا كان يسعنا ان نصطحبهما الى بلادنا لتربيتهما واستخدامهما فاجبته : اني آخذهما الى لبنان وهناك اربيهما الى ان يكبرا وعندئذ اطلق لهما الحرية · فاذا شئت احضرهما الينا غداً صباحاً قبل سفرنا

٢٥ حزيران

غادرنا طاقيان الساعة الخامسة صباحاً وقد اصطحبنا الاخوين اليتيمين وكان اكبرهما في ربيعه العاشر والاخر في السابع ، وما كدنا نبتعد عن القرية حتى سمعنا طلقات نارية متعددة فتوقفنا عن المسير ريثما نعرف السبب ، وما هو غير القليل حتى اطل علينا بضعة فرسان باسلحتهم الكاملة واشاروا الينا بقولهم : قفوا ولا تخطوا خطوة واحدة ، فقلنا : وماذا تريدون ؟ فقال زعيمهم ، بلغنا انكم اصطحبتم اثنين من الكفار فنعد هذا الامر استخفافاً بنا لانهما من الذين يخدمون بيوتنا ويحرثون ارضنا ويشتغلون املاكنا بايديهم وبناء عليه نريد ان تسلمونا الولدين والا فلومكم على نفوسكم

قلنا : افهمونا في القرية انهما يتيمان لا معيل لهما ولا معين فاجبنا من باب الشفقة ان نصطحبهما الى بلادنا ونربيهما هناك الى ان يكبرا ويصبحا احراراً في امر معيشتهما ، وبما انكم في حاجة اليهما خذوهما اذ ليس من داع الى الاقتتال من اجلهما

وسلمناهم اليتيمين واستأنفنا المسير الى ان انتهينا الى شاطىء دجله من الجهة الشرقية وهناك عبرنا الى ما بين النهرين وتملصنا من بلاد الاكراد ومررنا تواً الى بلد تدعى « الجزيرة » وكانت الساعة الخامسة مساء فنزلنا في بيت احد المسيحيين بجوار الدار الاسقفية وبتنا تلك الليلة هناك وكان الحر شديداً لا يطاق

واثناء سهرتنا في غرفة صغيرة ذات شباك واحد رأيت في الخارج شاباً يترصدنا وقد بقي اكثر من ربع الساعة يتمشى على الطريق الى جانب ذاك البيت فرابني امره والتفت الى صاحب البيت وسألته ما اذا كان يعرفه . وما كاد يطل صاحب البيت حتى توارى الرجل عن الابصار ، فعندها ذهبت الى شيخ المكارين واعلمته بما كان وقلت له لا شك ان الرجل سارق فانتبه وافهم رفاقك ان يكونوا على حذر منه

ثم عدت الى غرفة السهرة . وحوالي الساعة الثانية عشرة رقدنا جميعاً وكان الحر يمنعني من اغماض جفني ، وعند الساعة الثانية صباحاً سمعنا ضجيجاً في الطابق الادنى فانرت شمعة ونزلت لارى ما هنالك وتبعني رفيقي السائح وبيده بندقيته ، وما كدنا نصل الى مكان الضجيج حتى شاهدنا غريبين يحاولان الدخول من النافذة ورجالنا يدفعونهما الى الوراء ، ولما ابصرا السائح يصوب اليهما بندقيته اضطرا الى التسليم فقبض عليهما رجالنا ومررت الى اقرب نقطة عسكرية فاخبرت رجالها بما كان واصطحبت منهم خمسة استاقوا ذينك الرجلين الى المخفر ، ثم عدنا الى غرفنا ورقدنا

٢٦ حزيران

فنهضنا باكراً وتناولنا طعام الصباح وخرجنا نتفقد البلد لنرى ما فيه وفي اثناء تجوالنا مررنا بسراي الحكومة وطلبنا دركيين يرافقاننا في طريقنا فقيل لنا انهم لا يستطيعون ان يلبونا قبل المساء فاضطررنا الى البقاء في الجزيرة ذلك النهار والليل لذي بعده

والجزيرة هذه هي جزيرة ابن عمرو وقد مر بها الاسكندر وعبر دجله قبل موقعة غوغاملا باثني عشر يوماً . وكانت من اعظم القلع في عهد الرومانيين . اما اليوم فهي قرية وسخة فقيرة فيها قلعة حقيرة مبنية بالطوب الاسود .

وهناك مركز مصطفى باشا الكردي الذي فوضت اليه السلطة في عهد السلطان عبد الحميد . وعلى مسافة عشر دقائق من القرية قنطرتان من قناطر جسر قديم بناه الرومانيون فوق دجله . زرنا القنطرتين والقلعة الصغيرة وبيت مصطفى باشا المذكور وعدنا عند الظهر الى مقرنا نتغدى ونستريح .

وعند المساء ذهبنا الى السراي لاجراء المعاملة القانونية بشأن الدركيين اللذين كانا عازمين على مرافقتنا ، وفور وصولنا الى البيت الذي كنا نازلين فيه وجدنا مطران البلاد ينتظرنا هناك ، فسلمنا عليه وقدمنا له القهوة واخبرناه بحادثة اللصين اللذين قبضنا عليهما في الليل الفائت ، فالح علينا سيادته بان نبيت في الدار الاسقفية في تلك الليلة موضحاً لنا انها عالية بعيدة عن اخطار اللصوص ومتسعة اتساعاً كافياً لايوائنا برجالنا ودوابنا وكل امتعتنا ، فشكرنا له لطفه وكرم اخلاقه وقلنا له اننا نتشرف عنده بعد العشاء .. فقال : اذا شئتم ان تأكلوا معنا على مائدتنا كنا لكم شاكرين ، فالتفت الى رفيقي السائح وترجمت له مقال سيادة المطران فقبل الدعوة ممتناً

وعند الساعة السابعة مساء توجهنا الى الدار الاسقفية فاستقبلنا عند مدخلها المطران وثلاثة من كهنته وكانوا كلهم من جماعة الكلدان الكاثوليك وذهبنا تواً الى قاعة الاستقبال وكانت نظيفة متقنة الاثاث ، وكان المطران وحاشيته يعيشون عيشة شبيهة بعيشة اللبنانيين فأكلنا على مائدته شورباء الخضرة والارز مع الكوسى والبندورة ، والفراريج المحمرة والزيتون الاسود والاخضر والجبن الطري والقريشة الحلوى والعسل المصور ، والخبز عندهم ابيض لذيذ الطعم

وبعد العشاء عدنا الى قاعة الاستقبال وسهرنا الى الساعة الحادية عشرة ثم اخذونا الى الغرف المعدة لنومنا فوجدناها على غاية ما يرام من النظافة

٢٧ حزيران

نهضنا باكراً جداً وتأهبنا للرحيل ريثما ينجز المطران . كهنته واجباتهم الدينية ، وعند الساعة السابعة دعانا سيادته لتناول القهوة والأكل ، ثم ودعناه شاكرين ولم ينس السائح ان يتبرع لسيادته بمبلغ وافر من المال

وعند الساعة الثامنة خرجنا من الجزيرة وواصلنا المسير سبع ساعات فاكثر فانتهينا الى « تل وبل » حيث نصبنا الخيام تحت شجر الصفصاف على قمة جبل صغير قريب من ينبوع ماء لذيذ بارد . وقد حسبت انني جالس على ارض لبنانية خضرة طليقة الهواء

وكان في ذلك المكان سرادق قيل لنا انه مخفر عسكري مستحدث . وتل وبل قرية صغيرة سكانها من المسيحيين من الطائفة السريانية وهي كثيرة الدجاج وبقية الطيور

الداجنة . واذ كنا جالسين في ظلال الصفصاف اقبل علينا فارس من البدو . وما كاد يصل الينا حتى حيانا باشاً سائلاً : من القوم النازلون هنا ؟ وهل السيد اسكندر الحايك بينكم ؟ قلنا : نعم ومن اين تعرف اسمي ياهذا ومن كلفك ان تأتي الينا ؟

اجاب : محظور علي ان اجيبك على ذلك . فاضطرب بالي من تكتمه وبادرت الى اخبار النقطة العسكرية بالامر فبعثت لحراستنا سبعة در كيين تحت قيادة جاويشهم

وما حانت الساعة الثامنة مساء حتى سمعنا على مقربة منا وقع حوافر خيل فاستعدينا جميعاً للطوارىء . وبعد القليل اطل علينا صديقنا الشيخ محمد شبوخ وقد كان وعدنا حين ودعنا في الموصل انه يبذل جهده للالتقاء بنا والاجتماع ثانية وكان يصطحب عشرين من رجاله فرحبنا به وبقومه كل الترحيب وسررنا به سروراً فائق الوصف . وفور وصوله سألني : كيف حال الفرس ؟ فاحضرته حالاً وشرع الشيخ يقبله ويلاطفه وتناولنا العشاء جميعاً وصرف الشيخ محمد وجماعته تلك الليلة في مضاربنا على انه لم يدعني اغمض جفني الليل بطوله لانه احب ان اسرد له كل ما حدث لنا ذهاباً واياباً

٢٨ حزيران

تركنا تل وبل عند الساعة السابعة صباحاً وسرنا يصحبنا الشيخ محمد شبوخ وفرسانه فانتهينا الى « ديرونه » الساعة الواحدة بعد الظهر ، فنصبنا الخيام في باحة قريبة من القرية الى جانب نبع ماء وعلى مقربة من النقطة العسكرية وبتنا تلك الليلة مرتاحين مسرورين ساعدنا على ذلك اعتدال الهواء وجودته في تلك البقعة ، وقد قضى بيننا تلك الليلة الشيخ محمد شبوخ وجماعته

وديرونه قرية صغيرة سكانها من الاكراد وهي جيدة المياه والمناخ وفيها مخفر عسكري يحفظ المارة من اذى السكان

نهضنا باكراً وشربنا القهوة جميعاً ثم تناولنا شيئاً من الاكل ، والح علينا الشيخ محمد بمرافقته الى القبيلة وكانت مضاربها على مسافة ثماني ساعات من ديرونه فاعتذرنا عن قبول دعوته بقصر وقتنا فودعنا وانصرف وكنا قد شكرنا له تحمله مشاق الطريق والسفر الطويل قياماً بوعده

وسافرنا من ذيرنه الساعة السابعة صباحاً فوصلنا الى « لنزادور » الساعة الثالثة مساء فبتنا في مكان قريب من ينبوع ماء غزير ومن حولنا البيادر العديدة وكانت ملأى باصناف الحبوب كالحنطة والشعير والذرة والعدس والحمص الخ

وكنا بعد وصولنا الى هناك ذهبنا لمقابلة شيخ القرية وطلبنا منه علفاً لدوابنا فرافقنا الى حيث كنا نصبنا خيامنا وقال : اتركوا الدواب على البيادر

قلت انها ملأى بالحنطة والعدس وقد تأكل البهائم هذه الحبوب تاركة الشعير ٠

قال : للحنطة والشعير وبقية الحبوب ثمن واحد عندنا فلتأكل دوابكم ما يحلو لها عندها فسرحنا الدواب على البيادر حتى مطلع النهار التالي ٠ وطلبنا من شيخ القرية خروفاً وخبزاً وخضرة ولبناً وبيضاً فارسل الينا قسماً للعشاء مستبقياً قسماً آخر لصباح الغد

ولنزادور قرية صغيرة سكانها جميعاً من الاكراد وكلهم رعاة فلاحون يحرثون الارض ويشتغلونها وهي كثيرة المواشي والكلاء ٠ واراضيها متسعة ومخصبة ٠ ومياهها غزيرة تفي بحاجة الناس والاراضي باجمعها

٣٠ حزيران

اول ما قمنا به في صباح ذلك اليوم اننا دعونا شيخ القرية ليتناول معنا القهوة والطعام وبعد ذلك طلبنا منه علماً بما قدمه لنا لنؤدي ثمنه فرفض بتاتاً قبول فلس واحد قائلاً ، ليس ما اخذتموه بالشيء الذي يذكر ، فرجونا منه ان يسمح لنا بان نقدم شيئاً للخادم الذي نقل تلك الاشياء على كتفيه فأبى قائلاً : لا يمكن ان تقدموا له شيئاً فهو يخدم في الدار وقد قام بواجباته بامر سيده ، فشكرنا له تلك العواطف الكريمة وقدمت له صندوقين من السيكارات اللبنانية فقبلها شاكراً وانصرف

ركبنا الساعة السابعة صباحاً قاصدين الى نصيبين فبلغناها عند الساعة الواحدة بعد الظهر ، فنصبنا الخيام في باحة صغيرة على كتف طاحونة تدور على مياه جدول يدعى جمجع ٠

ونصيبين هي المذكورة في الآثار الاشورية بلفظة نانسيبنا وقد دعيت يوماً بانطاكية المكدونية وكانت في عهد من العهود قاعدة المهاجرين من جماعة اليونان ، وفي سنة ١٤٩ قبل المسيح كانت خاضعة للارمن ، وفي سنة ٦٨ قبل المسيح سقطت ثانية في يد



تخت الآلاتيه في نصيبين

الرومانيين

وآثار نصيبين ظاهرة لاتحتاج الى الحفريات ولكن تلك الآثار مجردة من الكتابات الصريحة الواضحة ، وانك لترى من سور المدينة عدداً من الحجارة المنقورة وفيها كنيسة قديمة خاصة باليعاقبة ترتقي الى القرن الرابع وهي مشيدة على اسم مار يعقوب وهي قائمقامية

اكثر سكانها من اليهود • ولهؤلاء القوم اندية كثيرة للسهرة يصرفون فيها المواسم والليالي في اللهو والطرب ويؤمها جمهور من العرب وغيرهم من المجاورين اقضاء الليالي فيها واتفق ان سرق لنا فرس في تلك الليلة فقاسينا الامرين حتى عثرنا عليه واسترجعناه وقد كلفنا في ذلك فوق المشقة والتعب مالاً وافراً يضاهي ثمنه

١ تموز

صرفنا نهارنا في نصيبين لاننا لم نرتح ساعة في الليل الغابر اضف الى ذلك ان المسافة بينها وبين ماردين طويلة جداً ولا ماء في طريقنا ولا محطة آمنة نستريح فيها من عناء السفر • فتفقدنا المدينة بما فيها واذا باسواقها كاسواق مدينة صفد في فلسطين ضيقة وكلها مسقوفة •

٢ تموز

تركنا نصيبين عند الساعة السادسة صباحاً وسرنا الهوينا في القفر تحت الحر اللاذع تتجاذبنا الهواجس وتتنازعنا انواع الاضطرابات ولم يطمئن بالنا حتى انتهينا الى عقبة ماردين وكانت الساعة السادسة مساء · فاهتممنا بامر نصب الخيام قبل حلول الظلام وذلك مستصعب جداً في ماردين ففتشنا كثيراً علنا نتوصل الى باحة او مكان فسيح في وسط المدينة فلم نجد · فاضطررنا ان ننزل قرب عين سنجل الواقعة في وادٍ شرقي المدينة والبعيدة عنها نحو ربع الساعة · وبتنا هناك ليلتنا بكل راحة وطمأنينة

ويحيط بعين سنجل بساتين واسعة يقصدها اهل ماردين للتنزه في ايام العطلة والمواسم

٣ تموز

وكان انه في اليوم الغابر زارنا رجل من اعيان ماردين فعرض علينا ان يعود صباح اليوم الى عين سنجل ليذهب بنا الى ماردين ويكون لنا فيها دليلا يرشدنا الى كل ما يستحق الالتفات والزيارة · فبر الرجل بوعده وجاءنا حوالي الساعة السادسة صباحاً فشربنا القهوة معاً ثم تناولنا طعاماً خفيفاً وسرنا على الاقدام الى المدينة · واذا بمدخلها مدخل مدينة محصنة يعبر اليها بين جبلين عظيمين وهي قائمة على قمة جبل

وكان اكثر سكانها في ذاك الحين من الامة الارمنية ومسلموها كانوا اقلية · وكانوا يلقبونها بعاصمة الارض نظراً لكثرة عددهم وثروتهم الوافرة

وكان فيها آنذاك مركز بطريركية السريان ومركز لجمعية لاتينية ومثله للمرسلين الاميركيين وعدد غير قليل من المدارس للذكور والاناث · وفيها سراي للحكومة وكان الجنود باجمعهم يقيمون في داخل قلعة المدينة · ويظهر ان ماردين كانت فيما عبر قلعة رومانية · وقد استلفت نظرنا مسلك اعيان تلك المدينة فانهم جماعة اعزاء النفوس كريمو الاخلاق راقون متهذبون تهذيباً اوروبياً · وقد فهمنا من دليلنا ان اكثرهم قد تلقنوا علومهم في مدارس بيروت الكبيرة · واكثرهم في الجامعة الاميركية · والجامعة الاميركية في ماردين محبوبة كثيراً من السكان

وبعد ما تفقدنا كل ما تقدم ذكره مررنا بمركز الرساله الاميركية وقابلنا السيد اندراوس رئيس الرسالة فاحسن استقبالنا ، وعدنا الى عين سنجل نتغدى ونرتاح وكان



نصب الخيام في عين مسجل

لدليل معنا وقد شاء ذلك الرجل الدمث الاخلاق ان يدعوني والسائح لتناول العشاء على مائدته فقبلنا دعوته شاكرين واعدوا الطعام ورتبوا اصنافه وقدموها على شاكلة الاوربيين ، وبعد العشاء دعانا الرجل الى قاعة الاستقبال وهي كبيرة نظيفة متقنة الاثاث واكراماً لنا احيا ليلة طرب كان في اثنائها الشبان والانسات ينشدون الاغاني التركية موقعة على اوتار العود والقانون ، ودامت سهرتنا هذه الى نصف الليل

٤ تموز

كنا قد انجزنا في اليوم السابق الاجراءات اللازمة للدركيين المزمعين ان يرافقانا الى ديار بكر فنهضنا باكراً ننتظر قدومهما ، وما هو غير القليل حتى جاءنا ضابط من قبل حكومة ماردين وقال : امس اعتدت عصابة من الاشقياء الاكراد على بعض القوافل ونهبتهم وسلبتهم فاضطرت الحكومة الى قطع الطريق وبعثت بقوة مسلحة لتأديب اولئك الاشقياء وقد كلفتني بان انقل اليكم هذا الخبر وانصح لكم بتأجيل السفر اسبوعاً الى ديار بكر

ترجمت للسائح مقال الضابط فقال : اذن نغير خطتنا فشكرنا للضابط وحكومته صيحتهم وعطفهم علينا وقلنا له ان يبعث الينا بدركيين يسيران معنا على طريق آخر .

ففعل ، وتركنا عين منجل الساعة السابعة صباحاً وسرنا وجهتنا « جرجوره » فانتهينا اليها عند الساعة الثالثة مساء

وجرجوره قرية صغيرة اهاليها من الامة الارمنية وكانت من جملة القرى التي شملتها المذابح الارمنية الفظيعة دخلنا كنيسة القرية نزورها فشاهدنا الكاهن الذي روى لنا ما تقشعر منه الابدان ، ومما قاله ، ان الدماء التي سالت في هذه الكنيسة بلغ مجراها عشرين متراً ان لم اقل اكثر فان البرابرة ذبحوا جماعتنا ذبح الغنم ، وقد نجا عدد منهم من الرجال والنساء ولكنهم باجمعهم مشوهون فمنهم من قطعت يده وبترت رجله او فقئت عينه وهلم جراً وليس سوى الصغار في هذه القرية من هو الان صحيح الجسم

٥ تموز

غادرنا جرجوره الساعة السابعة صباحاً فوصلنا الى « داستي » الساعة الثانية بعد الظهر ونصبنا الخيام على البيادر خارجاً عن القرية

وداستي قرية صغيرة سكانها مسلمون ومسيحيون وهي من املاك احد مسيحيي ديار بكر ، وموقعها على حدود القرى الارمنية التي جرت فيها المذابح

٦ تموز

خرجنا من داستي الساعة السابعة صباحاً فوصلنا الى وارنشهر عند الساعة الثالثة مساء ونصبنا خيامنا خارجاً عن المدينة

ووارنشهر مدينة قائمة بين الاثار والقبور الرومانية وفيها كان ابراهيم باشا الكردي يقضي فصل الشتاء

وفي ايام السلطان عبد الحميد كان ينضم الى ابراهيم باشا جماعة الاكراد الذين يأتمرون باوامره وكانت الحكومة تقدم لهم كل حاجياتهم وكان ابراهيم باشا يقبض من الدولة العثمانية مبلغاً سنوياً معيناً لقاء محافظته على الامن في تلك المنطقة ، وكانت تدعى الكتيبة الخاضعة لابراهيم باشا « بالفرقة الحميدية »

وقامت تلك المدينة من لا شيء فقد كانت في بدء الامر محطة للارمن المجاورين واصبحت في عهد ابراهيم باشا الكردي مدينة آهلة بزهاء اثني عشر الف نسمة من البشر وبعد وفاة ذلك الزعيم سنة ١٩٠٨ بدأت وارنشهر تعود القهقرى وقد هاجمها

الاتحاديون وقتلوا عدداً كبيراً من اهلها وهرب البقية ناجين بنفوسهم فباتت المدينة قاعاً صفصفاً

وفي الايام الغابرة بنى الرومانيين سوراً لهذه المدينـة ولا يزال قسم من ذلك السور الى يومنا هذا . وكانت المدينة في عهد الرومانيين محصنة لا يدخل اليهـا الا من بعض المداخل . وقد شاهدنا غربي المدينة اثار كنيسة عظيمـة بنيت من الحجر الاسود . ويعود تاريخ هذه الكنيسة الى البنيزطيين الاقـدمين . وفي ارض الكنيسة فسيفساء جميلة وقواعد اعمدة كثيرة واثار عديدة من حجارة متنوعة النقش

٧ تموز

سافرنا باكراً من وارنشهر وجهتنا « محمد خان » فكنا هنالك عند الساعة الثامنـة مساء ونصبنا خيامنا في سهل فسيح مقفر . ومحمد خان اسم بلا مسمى وقد اعطيت قديماً هذا الاسم لانه كان هناك رجل مالك لتلك الاراضي فبنى فيها خاناً لمواشيه وكان اسم الرجل محمد فسموا الخان باسمه وليس الان في ذاك المكان سوى بضعة بيادر يستخدمونها في ابان الحصاد . وبتنا ليلتنا في ذاك المكان على اننا لم نذق طعم الراحة الليل بطوله نظراً لشدة الحر و كثرة البرغش والهوام المزعجة

٨ تموز

غادرنا محمد خان الساعة الخامسة صباحاً فكنا الساعة الخامسة مساء في مدينة اورفا فنصبنا خيامنا الى جانب مدخلها الطبيعي الحجري وبتنا ليلتنا هناك لم نلج المدينة

٩ تموز

نهضنا باكراً وشربنا القهوة وتناولنا طعاماً خفيفاً ثم تأهبنا لزيارة المدينة ، ومما شاهدناه قلعة يقال انها بنيت في ايام الصليبيين ولربما كانت اقدم عهداً وهي قـائمة غربي المدينة ومبنية من الحجارة الطبيعية وفيها البحرة المقدسة وينبوع ماء يسمونه نبع ابراهيم الخليل وفي البحرة المقدسة جميع الوان السمك وكل سمكها داجن ، يجلس القوم حوالي البركة يشربون النارجلية ويقدمون طعاماً للسمك ومتى دنت السمكة تتنـاول ذاك الطعام يصبح في وسع الانسان ان يمسكهـا بيده وهي لاتهرب منه ، على انه محظور على الجميع

اصطياد السمك في تلك البركة وفي شرعهم كل من خالف هذا الامر حوكم وصار محتقراً في اعين الشعب، والى جانب هذه البركة جامع يعرف بجامع ابراهيم فان المسلمين هناك يعتقدون ان اب الاباء ولد في تلك المدينة وفي ذاك المحل منها ، وعلى مدخل القلعة عمودان يرجح انهما من بقايامعبدبعل ، واكبر بنايات اورفا الكاتدرائية الارمنية وقد شيدت في عهد الصليبيين ، وبعد ان تفقدنا داخل المدينة صعدنا على الجبال العالية المحيطة بتلك المدينة

وفي سنة ١٨٩٦ وقعت في اورفا المذابح الارمنية وكان ابطالها جماعة الاكراد والترك فقتلوا في داخل الكاتدرائية لا اقل من الف ارمني حرقاً بالنار حيث اشعلوا النار في داخل البناية في السجادوالحصر والادوات الخشبية وقد رأيناها سوداء من الداخل من جراء الحريق الهائل

ويوجد في اورفا ايضاً جامع يدعى « لولو جامع » والظواهر تدل على انه بني في ايام يوستينيانوس ، ان البركتين المقدستين التي لاتزال احداهما قائمة حتى اليوم كانتا مكرستين لاجل عبادة الالهة

١٠ تموز

خرجنا من اورفا الساعة السابعة صباحاً وركبنا عربة تقلنا الى مروج وكنا قد ارسلنا اليها الحملة باسرها من رجال وخيل ودواب ومؤونة الخ · وبتنا ليلتنا في مروج حيث رسمنا خطة سفر جديدة لاننا كنا قد سمعنا ان الحرب لا شك واقعة في القريب العاجل ، بعد قتل الارشيدوق فارديناند ولي عهد النمسا هو وزوجته في سراجيفو · فاحببنا ان نرجع الى بيروت سالكين اقرب الطرق

١١ تموز

استأجرنا عربتين الواحدة لنقلنا والثانية لنقل امتعتنا الخاصة وخرجنا من مروج عند منتصف الليل تماماً بغية الوصول الى محطة جرابلوس في موعد القطار فنتمكن اذ ذاك من ركوبه الى حلب · وكنا اوعزنا الى رجالنا أن يوافونا الى حلب

وصلنا الى جرابلوس عند الساعة الحادية عشرة صباحاً ولم يكن القطار قد بلغها وكان قد حدث بعض التغيير في نظام سيره · فانتظرنا في جرابلوس الى الظهر · وبعد



العربة التي اقلتنا من اوروفا

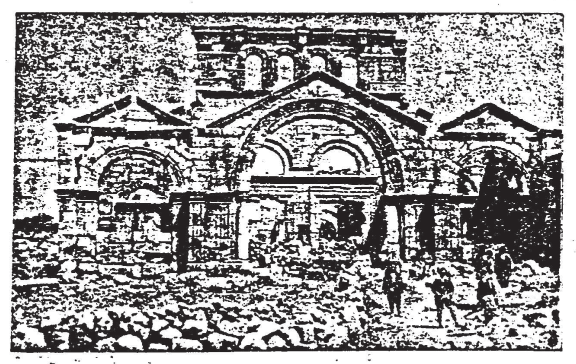
نصف الساعة ركبنا القطار الى حلب فكنا فيها عند الساعة الرابعة والنصف مساء . فنزلنا في فندق « بارون » حيث مكثنا تلك الليلة نرتاح وندون مذكراتنا . وفي اثناء السهرة قال السائح : لم يبق لنا من سبيل الى الحجاز رحلتنا حسب الخطة التي رسمناها اذ لا بد من دخول تركيا في الحرب الى جانب المانيا حليفتها فلست اريد ان اقع اسيراً بين يدي الاتراك وقد عزمت على العود الى وطني باسرع ما يمكن . ولا يوجد باخرة تسافر من بيروت قبل عشرين الجاري فليكن البرنامج مطابقاً للوقت ونزور المحلات الممكن زيارتها في هذه المدة .

۱۲ تموز

زرنا في حلب ما يستحق الزيارة : القلعة والاسواق والجوامع ، وبعد الظهر ذهبت لاستلام الامتعة التي كنا بعثنا بها من دير الزور قبل وصولنا الى الجزيرة واتيت بها الى النزل ، وبعد العشاء خرجنا نتنزه في المدينة فادى بنا السير الى مقهى حيث حضرنا مجلس طرب فسمعنا الغناء الحلبي وشاهدنا الرقص الحلبي والتركي . عند نصف الليل عدنا الى النزل .

تعود حلب الى عهد ابراهيم الخليل ، غزاها سلمناصر الاشوري الفاتح ايام كانت دولة اجداده ودولة احفاده تسير شوطاً عظيماً في التوسع والاستعمار

هاجمها كسرى الثاني وافتتحها العرب ولبثت مدة طويلة في الجيل العاشر مقراً لملكهم سيف الدولة وقد لعب في ايامه ابو الطيب المتنبي ذاك الشاعر العظيم دوراً مهماً في دولة



قلعة سمعان

الادب والشعر ، وفي هذا الجبل نفسه هاجمها البيزنطيون « اهل الاستانة وما يليها » وما استطاعوا التغلب عليها لمناعة حصونها ، ثم حاصرها الصليبيون فامتنعت عليهم ، ثم غزاها تيمورلنك فسباها ونهبها وفظع وقتل في اهليها ، ثم استولى عليها العثمانيون تحت قيادة السلطان سليم سنة ١٥١٦ واستمرت في حوزتهم الى نهاية الحرب الكونية وكان عدد سكان حلب في ذاك الحين ١٥٧ الف نسمة واكثرهم مسلمون

١٣ تموز

بقينا في حلب قصدنا الدرويشية اي المحل الذي يعيش فيه الدراويش وسور المدينة القديم حيث وجدنا الاعمدة العديدة بب الجناين ، باب انطاكية ، باب الكناسرين ، والقمة التي بالقرب من الباب الاخير منظر عام لمدينة حلب

الخانات : خان الوزير وله مدخل بديع الشكل ، خان الجمرك ، صرفنا النهار كله بين الاثار ، وعند نصف الليل وصلت الحملة

١٤ تموز

صباحاً ضممنا الامتعة التي كانت في الفندق الى الحملة وتركنا حلب حوالي الساعة

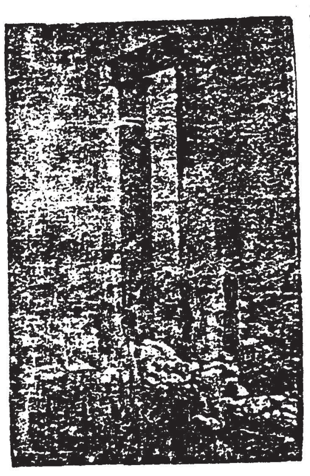
الثامنة صباحاً فانتهينا الى قلعة سمعان الساعة الخامسة مساء نصبنا الخيام في واد تحت القلعة المذكورة بالقرب من بئر ماء وبتنا تلك الليلة متحفظين كثيراً من غارات التركمان الذين اعتادوا على النهب والسلب في تلك البقعة

١٥ تموز

نهضنا باكراً وطلعنا من الوادي الى القلعة نتفقد آثارها ولم يمر على سيرنا الدقائق الخمسة حتى كنا بين الاثار المعجبة

قلعة سمعان بنيت في القرن الخامس بعد المسيح كدير اسمه سمعان العامودي ابن احد فلاحي القرى المجاورة الذي ولد سنة ٣٩١ ومات سنة ٤٥٩ من صغر سنه كان ميالاً للتنسك والعبادة وفي سنة ٤٢٣ بنى عاموداً بعلو معتدل حيث عاش عليه سبع سنوات وبعد ذلك نقل الى عامود علوه ٣٨ قدماً حيث صرف بقية حياته

وجعل الاسلام الدير قلعة لان الموقع مطابق لذلك والقلعة قائمة على قمة جبل طوله ستماية يرداً وعرضه مايسة وخمسين ومن حوله من الثلاث جهات وديان والجهة الشمالية جبل بركات . وفي وسط الدير حوش وفي وسط الحوش هذا قائم العامود المذكور آنفاً . شكل البناء في جميع جهات الدير معجب من حيث الهندسة والنقش .



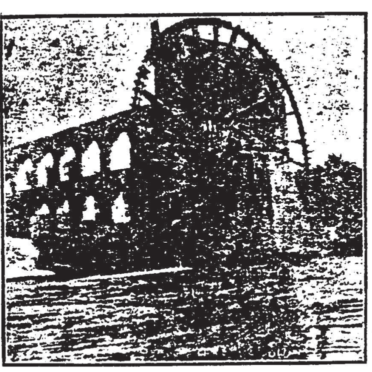
عامود مار سمعان

بعد زيارة جميع بنايات الدير والقلعة واصلنا المسير على الاقدام الى مدينة سمعان حيث تقوم المنازل والقبور . والمدينة هذه قائمة في الوادي الغربي من القلعة بعد ان تفقدناها رجعنا الى الخيام وبتنا ليلتنا متحفظين كل التحفظ

١٦ تموز

تركنا قلعة سمعان باكراً الى محطة القطار القريبة وهناك تركنا الخيل مع الحملة واوعزنا الى رجالها كي يواصلوا السير الى بيت شباب

ركبنا القطار الحديدي من محطة حميدية الى حماه فانتهينا اليها عند الساعة التاسعة صباحاً · تركنا القطار في المحطة واستأجرنا عربتين واحدة لنقلنا والثانية لنقل امتعتنا الخاصة · نزلنا الى المدينة وتفقدناها فوجدناها معجبة · نواعير حماه الكبيرة النادرة يسمع صداها ليل ونهار وهي الواسطة لنشل المياه من نهر العاصي لسقاية الجناين والمزروعات ونهر العاصي مار في وسط حماه آتياً من الجهة الجنوبية الشرقية صاباً الى الجهة الشمالية الغربية ·



الناعورة في حماه

ومعجبات حماه جبل الارابين سبيل عبدين ، جبل الاعلى جسر السراي قصر الكيلاني جامع الكبير ، جامع الحية ، بيت المؤيد

وحماه قديماً كانت يوماً عاصمة عظيمة كما ذكرها يوسيفوس كانت تدعى اماتا ثم سميت ايفانيا في عهد انطيوخوس الرابع

وفي سنة ٦٣٩ دخلها الاسلام بقيادة ابو عبيده الذي حول الكنيسة الى جامع

حماه كانت تحت سلطة الاسماعيليين ، اخذها الافرنج في سنة ١١٠٨ ثم هاجمها في سنة ١١١٥ الترك واستولوا عليها وفي سنة ١١٥٧ خربت من الهزة الارضية وفي سنة

١١٧٨ صبحت تحت سيطرة صلاح الدين الايوبي ، وجددت حماه مجدها وثروتها في عهد ابو الفدى من الايوبيين الذي ولد في سنة ١٢٧٣ وفي ١٣١٠ عين اميراً او سلطاناً على حماه وتوابعها معرة والبرازين ، وكان يعرف بالملك المؤيد ، عزز العلم والادب وجعل سلطنته من احسن الممالك المجاورة ، ومات في سنة ١٣٣١ وبموته انتهت حياة حماه وعادت القهقرى

قضينا ليلتنا في حماه صرفنا السهرة في مقهى على ضفة العاصي وبتنا في فندق وطني نظيف للغاية

١٧ تموز

نهضنا باكراً وركبنا العربات الى محطة القطار وبوصوله ركبناه الى حمص التي وصلناها وسط النهار ، استأجرنا عربة قلتنا الى منزل السيد حسن الزهراوي حسبما افادنا الشيخ محمد الملحم ورشدنا السيد الزهراوي الى محل اقامة الشيخ الملحم فذهبنا اليه الى مضارب القبيلة وكانت على مسافة ساعة ونصف من المدينه

وتناولنا العشا على مائدة الشيخ محمد الملحم وقضينا عنده سهرتنا حتى الساعه الحاديه عشرة واخبرناه عن البدوي الذي قصده قبل وصولنا الى تدمر فكان كلما يسمع كلمة من كلام ذاك البدوي يتأثر ويقول ياليتني كنت معكم

وودعنا الشيخ عائدين الى منزل الزهراوي وقد ارسل لحراستنا عبدين مقلدين باسلحتهما الكاملة ، وكان الزهراوي قد اعد لرقادنا غرفة في الطابق العلوي فنمنا بكل راحه

وموقع حمص في سهل خصيب ، تقوم في جهته الغربية الجبال القاحلة الجرداء ، وقد لعبت هذه المدينه دوراً مهما في العهد العربي القديم وكانت لها المنزلة المحترمه في الرقي والتجارة ، واحتلها الصليبيون في آخر الجيل الحادي عشر ثم استولى عليها العثمانيون فبقيت في حوزتهم الى نهاية الحرب الكونيه ، عدد سكانها ٥٦ الفاً تقريباً معظمهم من المسلمين

١٨ تموز

سافرنا من حمص بعد ان تفقدنا مدارسها واسواقها وانوال المنسوجات وكنا في

بعلبك حوالي الظهر فتناولنا طعامنـا في فندق كران نيواوتل (١) حيث شعرنا براحة تامه وذهبنا بعد الظهر نزور المدينه وآثارها

وبعلبك لفظة مركبة من كلتين : بعل وبك ومعناها بالفينيقيه «رب الوادي» وقيل بل مدينة البعل او بيت الرب، وسماها اليونانيون هليوبوليس اي مدينة «الشمس» وهي مدينة قديمة العهد كليه الشهرة تحيط بها اثار اسوار قديمه وحدائق غناء من كل جانب وفيها نبع مشهور هو رأس العين ، وقلعتها من اعجب مباني الدنيا وابهجها اثراً ، كانت بعلبك من اعظم المدن السورية ومن اشدها منعة ، وكانت محطاً للقوافل بين صور والشرق ومقصداً للملوك ومطمحاً لعيون الدول القديمة ولذلك زينت بالهيا كل الجليلة اخصهـا هيكل الشمس وقد كان سبباً لتقدمها وعمرانها ، وقيل ان تمثال الشمس جلب الى هذا الهيكل من مصر وهو يشبه تمثال اوزريس

ولما انتشرت الديانة المسيحية في الشرق هجرت كل الهيا كل وتحول هيكل الشمس الى معبد . وكان ذلك في عهد قسطنطين الملك . وبقيت زاهية مزدهرة الى ان فتحها العرب سنة ٦٣٥ وقد خربها الايوبيون واستباحوا اهلها . وفي سنة ١٤٠٠ داهمها تيمورلنك فخرب ما بقي من قصورها ثم داهمها زلزال اودى بكل عامر وكان ذلك في عام ١٧٩٩ .

وقد ارتبك العلماء في امر بعلبك وبحثوا كل البحث توصلاً لتاريخهـا الصحيح فلم يحصلوا على نتيجة . ويذهب العرب الى انها من بناء سليمان الحكيم وقد وهبها الى بلقيس مهراً غير ان ذلك لا يعول عليه . واول ما عرف من تاريخها الصحيح زمن استيلاء بوليوس قيصر عليها وذلك في اواسط القرن الاول قبل المسيح . وفي ايام اغسطس كان فيها حامية من الرومان بدليل ما كتب على باب احد الهيا كل

وقاست بعلبك من الاهوال ما لا يطاق لانهـا كانت قبلة جموع الفاتحين ومع ما تحملته من انواع الذل وما لحقها من الخراب فان قلعتها العجيبة ما زالت قائمة تناطح الدهور وتهزأ بالجبابرة المغيرين وتبلغ استدارتها من اربعة الى خمسة كيلومترات وهي بعد تدمر من اعجب اثار سوريه واشهر ما يرى منها من السهل رواق مؤلف من ستة اعمدة

---

(١) : (كران نيو اوتيل الذي بناه المرحوم ابراهيم عريبد واليه يرجع الفضل في تسهيل زيارة بعلبك للسياح لانه اول من بنى فندقاً من الدرجة الاولى في مدينة الشمس)

وقسم من جدران الهيكل الكبير



قلعة بعلبك

اما الهيكل الصغير فيدعى هيكل « باخوس » وفيه نقوش فاقت حد الابداع · وفي جملة تلك النقوش رسوم اغصان اللبلاب او الكرمة وكلها منقورة في الحجر

اما المهندسون الذين تولوا بناء الهياكل الضخمة في بعلبك فيستدل بالادلة المقنعة على انهم كانوا سوريين

١٩ تموز

انجزنا زيارة الآثار المذكورة سابقاً ثم ركبنا القطار الحديدي الذي اقلنا الى بيروت فانتهينا اليها عند الساعة السادسة مساء وكان اخي بولس وزوجتي ينتظراني فيها · واتفق ان احدى البواخر كانت تتأهب للسفر الى اوروبا في ذلك المساء · فبادر رفيقي الى ركوبها وقد ودعته والدمع يسبح من اعين كلينا وكنا قد صرفنا ايامنا الماضية على اتم وفاق لم يكدرنا مكدر ولا ازعجنا مزعج

بقيت واخي وزوجتي في بيروت تلك الليلة وافكارنا مضطربة من الاخبار التي كانت تنذر بالحرب القريبة

٢٠ تموز ١٩١٤

غادرنا بيروت باكراً وجهتنا بيت شباب العزيزة مسقط رأسنا وهناك اجتمعت بعد غياب طويل وسفر شاق واخطار عظيمة الى والديّ وشقيقي وسائر الانسباء والاصدقاء والمواطنين الذين هنأوني برجوعي اليهم سالماً



المغفور له
الشيخ
يوسف حنا
الحايك
والد صاحب
الرحلة

مسقط رأس صاحب الرحلة في بيت شباب



حنا افندي يوسف الحايك

شقيق صاحب الرحلة



ميشل افندي يوسف الحايك

شقيق صاحب الرحلة





الانسباء والاصدقاء

يوم وصولي الى بيت شباب





الانسباء والاصدقاء



يوم وصولي الى بيت شباب



الشيخ جان يوسف المكرزل

صاحب معامل الحرير الكبرى في بوناسيرس

ادب ناضج ، وثقافة عالية ، ونفس ابية ، وكرم حاتمي يزينه شباب ناهض وطلعة جميلة وخلق كريم .

نال في مهجره ثروة طائلة بجده ونشاطه واستقامته ، كما نال منزلة سامية كانت له ولوالده وجده في الوطن القديم



حسن افندي شبلي القرداحي
من معتبري تجارنا في الارجنتين



جورج افندي شاكر لحود
مزرعة النهر قضاء الشوف

حسن افندي شبلي القرداحي

غيور ، جواد ، رائده الى الاخلاص والولاء ، والاندفاع في سبيل اصدقائه ، هاجر الى لديار الاميركية تحفزه آمال كبيرة ونفس مثلها فصاب نجاحاً باهراً ومنزلة محترمة .

جورج شاكر لحود

من اولئك الشبان اللامعين الذين بلغوا قسطهم الوافر من التقدم والنجاح بصدقه واستقامته فهو من معتبري تجارنا في ديو ريبل السنغال واشدهم غيرة واخلاصاً

كان قبل هجرته ترجماناً في فيلق الطيران الالماني سنتين ١٩١٥—١٩١٦ ابان الحرب الكونية ، ثم ترجماناً في فيلق ميسور الانكليزي في حلب سنة واحدة بعد الاحتلال ثم ترجماناً في الباخرة الحربية الافرنسية شالبتيا ليزرون سنة ونصف

فكان في وظيفته مثال الصدق والاستقامة والنزاهة



الشيخ هنري الجميل

الغيرة والوطنية والاقدام والتضحية والاخلاص والولاء بعض ما اتصف به الشيخ هنري الجميل، عين اعيان الجالية اللبنانية في منروفيا ليبريا ومؤسس ورئيس الجمعية اللبنانية فيها وحامل الاسم اللبناني عالياً شريفاً في تلك الامصار

